

2020

روبرت لويس ستيفنسون 30.12.2019

جزيرة الكنز

ترجمة: رنيم العامري



مرايا | منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING



روبرت لويس ستيفنسون

جزيرة الكنز

رواية

ترجمة

رنيم العامري

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
مرايا



جزيرة الكنز

الكاتب: روبرت لويس ستيفنسون

عنوان الكتاب: جزيرة الكنز

ترجمة: رنيم العامري

تصميم الغلاف: ناصر العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 9-19-723-9921-978

الطبعة الأولى - سبتمبر / أيلول - 2019

3000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 11 00 78 964 +

publishing@takweenkw.com takweenkw

www.takweenkw.com @takweenKw

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING



لبنان - بيروت / الحمراء

تلفون: 683 345 1 / 980 541 1 961 +

بغداد - العراق / شارع المتنبي، عمارة الكاهجي

تلفون: 07830070045 / 07810001005

daralrafidain@yahoo.com Dar alrafidain

info@daralrafidain.com Dar.alrafidain

www.daralrafidain.com @Dar alrafidain



المحتويات

٩	مقدمة المترجمة
٢١	إلى المشتري المتردد

الجزء الأول: القرصان العجوز

٢٥	(١) كلب البحر العجوز في نُزل الأدميرال بينبو
٣٦	(٢) بلاك دوغ يظهر ويختفي
٤٨	(٣) الوسمة السوداء
٥٩	(٤) الصندوق البحري
٦٩	(٥) نهاية الرجل الأعمى
٧٩	(٦) أوراق القبطان

الجزء الثاني: طبّاح السفينة

٩٣	(٧) ذهابي إلى بريستول
----	-----------------------------

- (٨) عند لافتة السبائي غلاس ١٠٢
- (٩) أسلحة وبارود ١١٢
- (١٠) رحلة الإبحار ١٢٤
- (١١) ما سمعته وأنا في برميل التفاح ١٣٤
- (١٢) مجلس الحربية ١٤٧

الجزء الثالث: مغامرتي الساحلية

- (١٣) كيف بدأت مغامرتي الساحلية ١٦١
- (١٤) الضربة الأولى ١٧٠
- (١٥) رجل الجزيرة ١٧٩

الجزء الرابع: الحصن

- (١٦) الطيب يروي الأحداث: كيف غادرنا السفينة ١٩٣
- (١٧) الطيب يكمل رواية الأحداث: رحلة قارب الجولي
بوت الأخيرة ٢٠٢
- (١٨) الطيب يستمرّ بسرد الأحداث: نهاية اليوم الأول
للقتال ٢١١
- (١٩) جيم هوكينز يستأنف رواية الأحداث: الثكنة في
الحصن ٢١٩

- (٢٠) بعثة سيلفر ٢٣٠
(٢١) الهجوم ٢٤٢

الجزء الخامس: مغامرتي البحرية

- (٢٢) كيف بدأت مغامرتي البحرية ٢٥٧
(٢٣) بين المدّ والجزر ٢٦٧
(٢٤) الكوراكل في عرض البحر ٢٧٥
(٢٥) إنزال راية الجولي روجر ٢٨٥
(٢٦) إزريال هاندز ٢٩٤
(٢٧) قطعُ الثمانية ٣٠٨

الجزء السادس: القبطان سيلفر

- (٢٨) في معسكر الأعداء ٣٢١
(٢٩) الوسمة السوداء مرّة أخرى! ٣٣٧
(٣٠) إطلاق سراح مشروط ٣٤٩
(٣١) البحث عن الكنز - دليل فلينت ٣٦٢
(٣٢) البحث عن الكنز - الصوت بين الأشجار ٣٧٤
(٣٣) سقوط الزعيم ٣٨٥
(٣٤) النهاية ٣٩٦

مقدمة المترجمة

ماذا يمكن أن يقال أكثر عن أشهر قصة قراصنة استحوذت على الخيال الجمعي للقراء الصغار والكبار على حدّ سواء، وعلى مدى قرن ونصف؟ قصة تجاوزت حدود الزمان والمكان ونقشت اسمها مغلّداً في التاريخ الأدبي، حتى قيل إنّها «رواية معروفة لدرجة أنّ المرء لا يحتاج إلى قراءتها».

إنّ لولادة (جزيرة الكنز) حكاية؛ هي أن كاتبها (روبرت لويس ستيفنسون) كان يسترخي في بيته ذات مساء عندما قدحت في خياله فكرة رواية عن جزيرة كنز. كان الرجل وعائلته محتجزين داخل البيت ولعدة أيام، بسبب الطقس السيئ الممطر، ولكي يسلي ابن زوجته، الصغير (لويد أوزبورن)، اقترح ستيفنسون أن يقوما برسم خريطة لجزيرة ما. كان ستيفنسون يداعب خيال الصبي فأخبره أنّ هذه الجزيرة ما هي إلا وكرّ للقراصنة، لذا راح يملأ الخريطة بالأحراش والمستنقعات والصُّلبان، وفيما هو كذلك وإذا بالقصة تُبعث للحياة في ذهنه، كما كتب بعد ذلك: «فيما كنتُ

منهمكاً في رسم الخريطة، وإذا بشخوص الرواية تظهر لي من بين الأحرار المرسومة.. وفجأة وجدت نفسي أمام الأوراق أكتب قائمة بالفصول».

كان ستيفنسون يكتب فصلاً من الرواية في اليوم الواحد يقرؤه لأفراد عائلته وهم متعلقون حول المدفأة في الأمسيات الباردة. وكان متلهفاً لأن يعرف وقع الحكاية في نفس الصبيّ (لويد) كما لو أنه عيّنه من الجمهور. لكنه سرعان ما اكتشف أن والده -والد ستيفنسون- كان مُنجراً إلى القصة أيضاً، حتى أن هذا الرجل الكهل اقترح قائمة بالأغراض الموجودة في صندوق (بيلي بونز)، واقترح اسم (الراس) اسماً لسفينة (فلينت)، كما اقترح أيضاً حيلة وجود الفتى (جيم) في برميل التفاح، كما سيتضح للقارئ لاحقاً.

لقد أراد ستيفنسون أن يكون كتابه محض مغامرة، «بلا تزويقات لغوية ولا فذلكات نفسية»، كما يقول. فمن أول جملة سينجّر القارئ إلى عالم ضبابيّ مبهم يبدأ من نُزُلٍ معزول، ثم يسري به إلى وديان تعجّ بالقراصنة واللصوص والأسرار الخطيرة والشخصيات الغريبة والدماء المسفوكة.

ولخلق بيئة الرواية الخياليّة الممتزجة بالواقع، يعترف الكاتب أنه استعار شخصية (بيلي بونز) من كتاب (ليجيند أوف سليبي هول)، كما واعترف باستعارة مواد أخرى من مصادر عديدة مثل (روبنسون كروزو)، وقصة قصيرة لـ (أدغار آلان بو). ولكنه لم ينسخ الأفكار بل حسنها حتى صارت له، فصنع واحدة من أبرز الشخصيات في

أدب المغامرات، وهي شخصية القرصان (جون سيلفر الطويل) من كتاب (أوزبورن كلاسيكس ريتولد: تريجر آيلاند).

كما ويكتب ستيفنسون في مقالة له: «لقد أسميت إحدى الجزر بجزيرة (الهيكل العظمي)، سعياً للحصول على تصوير ذهنيّ خلّاب وفوري. ولتبرير التسمية اقتحمت معرض السيد (بو) وسرقت منه دليل فلينت؛ الخريطة التي هي حبكة الرواية، فالرواية من بقايا (بو) و(ديفو) و(واشنطن إيرفينغ) ونسخة من قرصنة (جونسون)، أمّا تسمية جزيرة (ديد مان تشيست) فقد جاءت من (كينغسلي)».

إن (Dead Man Chest Island) هي واحدة من الجزر التي تعرف اليوم باسم الجزر البريطانية العذراء، بين جزيرتي (بيتر) و(تورتولا)، وتُوصف بأنها جزيرة «غريبة وسيئة السمعة». في مقالة في (الدليل تيليغراف) للصحفي (أدريان بيري) تعيد إلى الأذهان أصل هذه الأغنية؛ تردُّ قصة عن (كويتن فان مارل) الذي وجد نفسه منفياً -مارونياً- على الجزيرة نفسها عندما فقد قاربه في رحلة غوص عام ١٩٦٩. وقد كتب المستكشف (فان مارل)، الباحث في (الجمعية الجغرافية الملكية) عن حكاية الأغنية والجزيرة قائلاً: قام القرصان (بلاك بيرد) في سنة ١٧١٧ بنفي المتمردين من طاقمه على جزيرة مساحتها ٢٥٠ ياردة مربعة، تحيط بها منحدرات عالية، ليس فيها ماء ولا طعام، تسكنها طيور البجع والسحالي والشعابين والبعوض، في عقوبة تدعى النفي (marooning)، وأعطى كل رجل مارونيّ منهم قطلساً وزجاجة روم. على أمل أن يقوموا بقتل بعضهم البعض، تحت شعار «mortui non mordent»، العبارة اللاتينية التي تترجم إلى

«الموتى لا يروون الحكايات»، فهم يأخذون الأسرار معهم، و«الموتى لا يعضون» أي أنهم لا يشكّلون مصدراً للتهديد، بكلمات (بيلي بونز) التي يردها (إزريال هاندز) في مشهد داخل الرواية بين سيلفر وإزريال وديك، وذلك عندما يسأل (ديك) عن مصير أولئك الذين سيهاجمونهم.

على أن لا أحد اهتدى إلى حقيقة كلمة (chest) في أغنية البحّارة، إن كانت تعني صندوق الرجل الميت، أم صدر الرجل الميت. البعض قال إن الجزيرة تشبه صندوقاً، والبعض رجّح أنّ تسمية الجزيرة بصدر الرجل الميت كانت بلا سبب معين سوى أن القراصنة يحبون إطلاق التسميات الدموية على الجزر، لكن في واحد من أجزاء سلسلة (قراصنة الكاريبي) سيكون في صندوق الرجل الميت قلب (ديفي جونز)، إذن فالحبكة تتلاعب بالمعنيين. وسواء كان الصواب هذا المعنى أم ذاك، فإن التورية في هذه التسمية، تزيد من غموض الجزيرة، وبالتالي تجعل الرواية مشوّقة ومحفّزة لمخيلة القارئ الصغير، وهو الأمر الذي كان ستيفنسون يرمي إليه منذ البداية.

إن العبارة اللاتينية التي ترجمت إلى الإنجليزية (Dead Men Tell No Tales) قد أصبحت عنواناً لأحد أشهر أفلام القراصنة في وقتنا الحالي، وأعني به فيلم (قراصنة الكاريبي) الآنف ذكره. ولقد امتدّ تأثير جزيرة الكنز إلى قرننا هذا، فمنذ ١٩١٨ وإلى اليوم أنتج حوالي ستة عشر фильماً سينمائياً، عنك المسرحيات واستعراضات الدمى، ومسلسلات الأنيميشن، وبشتى اللغات. لذا فلا عجب

لورأى القارئ - مثلما وجدتُ أنا - شهاً بين شخصية (بين غان) في جزيرة الكنز وبين القرصان (جاك سپارو) من قراصنة الكاريبي، لأن كلا الرجلين مارونّي، وكلاهما أصيب بلوثة عقلية إثر نفيهما على جزيرة نائية.

وبالعودة إلى القرصان (بلاك بيرد) فإنه عندما عاد إلى الجزيرة بعد شهر واحد، وجد أنّ الرجال ما زالوا على قيد الحياة، ومن هذه الحكاية أتت الأغنية: «خمسة عشر رجلاً على صندوق الرجل الميت، يوو هوو وزجاجة روم!». قال ستيفنسون مرة: «إن تسمية الجزيرة بـ(ديد مان تشيست) جاءت من كتاب (آت لاست) لـ(تشارلز كينغسلي) ومنها كانت البذرة». والنص الذي يشير إليه من الكتاب الصادر ١٨٧١ هو: «كنا نرحف ببطء، وكنا في عالم رمادي من الماء، وكنا نبحث عن جزيرة (الفيرجين غوردا) أولى الجزر التي لا تعدّ ولا تحصى التي وجدها (كولومبس) في يوم القديسة (أورسولا)، لذا سمّيت الجزر على اسمها: جُزر القديسة أورسولا وعذرواتها الأحد عشر ألفاً! ولسوء الحظ فإن القراصنة الإنجليز عندما وجدوا الجزر هذه أطلقوا عليها أسماء أقلّ شاعرية، مثل: الدوتشمان كيب، بروكين جوروسيليم، ديد مان جيست، روم آيلاند... إلخ».

نُشرت الرواية في البدء على شكل أجزاء في مجلة (يونغ فوكس) للأطفال ما بين عامي ١٨٨١ و١٨٨٢ وتحت عنوان (طبّاخ السفينة)، في دلالة إلى الأهمية المركزية لشخصية سيلفر. وبالرغم من أنها كُتبت للأطفال، لكنها نالت إعجاب الكبار أيضاً، فأعجبت كلاً من: (مارك توين)، (روديارد كيبلينغ)، (بورخيس) و(هنري جيمس)

... وسواهم. وقد قيل عن جزيرة الكنز: «إنها حكاية تعيد الرجل إلى صباه». إلا أن البعض رأى أنها لا تناسب الأطفال، لأنها رحلة كانت غايتها الطمع، مليئة بالموت والدماء والخيانات، والسيد فيها هو الحظّ لا الإنصاف، الحظ والدهاء معاً، كما لو أنّ الحكاية مبنية على سلسلة من ضربات الحظ والحوادث والصدف، فمنذ قدوم (بيلي بونز) إلى النّزل، وعثور (جيم هوكينز) على الخريطة، إلى وجوده في برمبل التفاح عندما اكتشف المؤامرة التي تحاك لخداعهم؛ والصدف تتوالى. ولكن لماذا لا يجب أن تكون الحكاية مبنية على الحظ، أو ليس القراصنة هم «سادة الحظ» في النهاية؟

وربما يخيل إلى القارئ الفتى أن (جيم هوكينز) هو بطل القصة، ولكنني أعتقد - وأقول أعتقد، لأن هذا ما حدث معي على الأقل - أنه عندما يعود إلى القصة بعد سنوات سيجد أنّ بطلها الحقيقي هو سيلقر، ولولا عقد نية المؤلف بذلك، لما نشر الرواية لأول مرة بعنوان (طباخ السفينة).

إنّ طباخ السفينة هذا، هو رجل متعلّم نوعاً ما، متزوِّج ويأتمن زوجته على أمواله، صاحب حانة، ذو باع طويل في البحر، وهو يعرف، على عكس القراصنة، كيف يدير أمواله، إنه يحلم أن يكون «جيتلماناً»، لكنّه في الوقت نفسه رجل يفتقر إلى الولاء، وهو مستعدّ لاستبدال رفاقه مقابل حفنة من المال. إن لسانه المعسول وتاريخه المرعب في البحر عنصران يمكنانه من اكتساب ثقة الضباط والطاقم معاً، فتراه متنقلاً بين مقصورة النبلاء وسطح السفينة بسلاسة.

إن القيمة الأدبية للكتاب تكمن في غمرة التناقض في شخصية سيلفريين كونه قرصاناً وإنساناً، ومن هذا التناقض ستبدي للقارئ رمادية خيارات سيلفري على المقاييس الأخلاقية التي تقتضي أن يكون المرء إما صالحاً أو طالحاً. الكتاب يقرب إذن من موضوع طبيعة الإنسان الفطرية، وبعد أن يزود ستيفنسون القارئ بخلفية كاملة عن الشخصيات، يترك له الحكم والكلمة الفصل، فهذا هو جيم هوكينز في أحد مشاهد الرواية يقوم بجمع الفضة في أكياس الخبز ويحكي بمرارة عن الدماء التي سُفكت من أجل هذا الكنز، وعن العار الذي ارتكب في سبيله. إذن فهو يعترف أن هذا كسبٌ باطل ومالٌ ملوث بالدماء، ولكنه مع ذلك ينتهي بأيدي النبلاء الذين سينفقونه «كلُّ حسب هواه»، على قولة جيم. فهنا نرى أن جيم دائماً ما يكون مستعداً لمواجهة الأشرار بشجاعة بريطانية مشهودة، وفي النهاية يعود إلى الوطن مكللاً بالنصر والثروات.

وحتى اللهجة التي يتحدث بها القراصنة على كونها عنصراً حيوياً في الرواية، كانت كما لو أنها حكم حاضر عليهم بأنهم قوم جهلة غير متعلمين، على عكس النبلاء الأخيار من أمثال الملاك تريلاوني والطبيب ليفزوي والقبطان سموليت الذين يتحدثون بإنجليزية واضحة. فهم الجانب المثالي من وجهة النظر البريطانية الكولونيلية، وحتى دوافعهم في فعل الخير فقد كانت تتأتى من امتيازهم على الجميع كبريطانيين.

الرواية رومانسية، ونعني بالكلمة خيالية. فهي تتحدث عن العاطفة والمغامرة والخيارات التي يُضطر المرء لاتخاذها، وليست

عن الكنز بحدّ ذاته، فهي هو الملاك تريلاوني يقول في رسالته:
«دعك من الكنز! إن مجد البحر يُثملني».

لقد أرسى ستيفنسون إحدى كبريات دعائم كتب المغامرات التي كانت لولاه خليقة بأن تظل مجرد حكايات خيالية مسلية للأطفال، فقد صنع جنساً أدبياً راسخاً ومأثوراً حياً باستخدام لغة واقعية كادت أن تجعل منها قصة ممكنة الحدوث، مستغلاً استعداد القارئ إلى تصديق المستحيل الممكن حدوثه، من خلال وجود عناصر جديرة بالتصديق. فإن سيلفر شخصية تسكن كوايس جيم هوكينز منذ البداية. ورغم أنه لم يظهر في الرواية إلا بعد حين، إلا أن القارئ يستشعر ظلّه المهتد وهو يتسلّل خلصة ويقف منتصباً على عكازه مهيمناً على الحدث - وهو الانطباع الذي رسخه في مخيلتي منذ الصغر إلى اليوم؛ المشهد إيّاه في مسلسل الإنيميشن المأخوذ عن الرواية نفسها - ومنذ الصفحات الأولى فإن ثمة شخصية مرعبة تتقدّم؛ بحار بندبة، كما لو أنّ حضوره نذير بأن الفصول القادمة تحمل إثارة وغرابة في طياتها.

ومن خلال قدرة ستيفنسون على رسم الشخصيات والأحداث بشكل حيوي، فقد جعل القارئ كما لو أنه حاضر في نفس بيئة الحدث، في تجربة تخضع لها كل الحواس، فهو يكاد أن يسمع (بيو الأعمى) ينقر بعكازه الأرض وهو يدنو من التزل، ويكاد أن يشعر بالنسيم الهادئ وهو يداعب وجهه، ويتذوق ملوحة البحر وهي تغطي شفّتيه. وخلال الرواية كلها لم يفتأ البحر يدمدم ويهدر في الخلفية.

ثم ها هو ستيقنسون يبعثر هنا وهناك عناصر أصبحت اليوم جزءاً أساسياً من تراث القراصنة وكل صورة نمطية عنهم في أذهاننا، كالخريطة ذات الصلبان الحُمر الثلاثة، والبيغاء المتكلم، والقرصان ذي الساق الواحدة، وحبّ القراصنة لشرب الروم، والكنز المدفون، والمشي على اللوح، والوسمة السوداء، وصندوق الرجل الميت.. إلخ.

لقد استعار الكاتب من التاريخ أسماء حقيقية، كالأدميرال (بينبو)، والقبطان (بلاك بيرد) و(إزريال هاندز) الذي كان أحد أفراد طاقم القرصان (بلاك بيرد)، وكذلك القبطان (كيد). وهو يضيف أغاني وأناشيد بعضها من بنات أفكاره وبعضها حقيقي، كما لو أنه، عندما سرب هذه الشخصيات الحقيقية داخل روايته، يريد من القارئ أن يقع في شك من كون القصة التي بين يديه خيالية.

اللغة والترجمة

نحن نتابع القصة من خلال راويتنا الفتى (جيم هوكينز) الذي لم يبحر يوماً قبل ذلك، لذا فإن هذا الكتاب سيكون مُهماً لأن يقرأه الأهل لأولادهم أو أن يقرأه الأولاد بأنفسهم، لأنه يمحو المسافة بين القارئ الصغير والرواية، فعندما يجد هوكينز صعوبة في فهم كلام القراصنة كما حدث في المشهد مع (بين غان)، فإن هذا سيخفف من إحساس القارئ الصغير بالاغتراب عن لغة الرواية المثقلة بمفردات الملاحه.

تبدأ الحوارات بسيطة، ثمّ تزداد تعقيداً وكثافة كلما تقدمت الرواية. فتصبح القراءة أصعب وبالتالي ترجمتها، إذ أنه كلما ازداد

حضور القراصنة في الحدث، زاد استخدامهم للاستعارات الغربية. فنراهم تارة يستخدمون عبارة: (shiver my timbers) التي تُترجم حرفياً إلى: «فلترتعد أخشابي»؛ وهو تعبير يستخدمونه في حالة شعورهم بالصدمة، مستعيرين هذا من حالة أن تمر السفينة بطقس عاصف فترتجف أخشابها. أو عبارة: (going about to get the wind of me) وتترجم حرفياً إلى: «أن يحرموا شراعي من الريح»، وتعني أن يمسكوا بي، أو عبارة: (Flint's fist) (قبضة فلينت) التي تعني: «خط يد فلينت»، وبالتالي الخريطة.

وحتى لهجتهم فقد شكّلت معضلة أثناء الترجمة والقراءة، فللقراصنة طريقة في لفظ الكلمات، خاصة المفردات التي تحتوي على أصوات عِلّة، فمثلاً عندما يقول سيلفر: (a noo boarder) بدلاً من: (a new boarder)، فإن الفرق بين اللفظين كالفرق بين كلمتي (coot) و(cute)، وقد كان هذا تحدياً حقيقياً في الترجمة، إذ لا يمكن إدراجها بالعربية دون تشويه النص العربي. عنك المفردات الملاحية وأجزاء هيكل السفينة. ولأن النص العربي لا يحتوي على مثل هذه الاستعارات الثقيلة والمفردات المشوهة لفظياً فيما لو ترجمت حرفياً، فقد وجدنا أنه من الأفضل تقريب المعنى حتى لو عنى ذلك «خيانة» للنص الأصلي. وبعد هذا القول، فإن النسخة العربية هذه قد حرصنا على أن تحتوي على هوامش ومراجع ليتسنى للقارئ العربي الاطلاع من خلالها على العبارة الأصلية لو أراد.

إن هذه المعاناة في القراءة قد واجهت القارئ الغربي نفسه، فقد أجمعت أغلب آراء القراء الغربيين على أن اللهجة السوقية للقراصنة

والمفردات الملاحية وأجزاء هيكل السفينة، قد زادت من صعوبة الرواية، لكن ما أن ينغمس القارئ في الحدث، حتى ينسى ذلك وتصبح تلك الصعوبات جزءاً من سحر الكتاب.

لقد أعيدَ تقديم الرواية في العديد من المرات، ومن ذلك نسخة (جامعة أوكسفورد)، التي قدّمها وحرّرها (بيتر هانت)، وهو أستاذ فخري في أدب الأطفال في جامعة (كارديف)، ولقد أورد فيها ملحقين؛ ملحقاً أسماه (شروحات)، وملحقاً آخر هو (قاموس للمفردات الملاحية وأجزاء السفينة)، وتلك كانت موجهة إلى القارئ بالإنجليزية، وذلك خير دليل على صعوبة لغة الرواية على القارئ بنفس اللغة، فما بالك بقارئ العربية؟ لذا فقد ارتأينا في هذه الترجمة أن نعود إلى شروحات وقاموس نسخة أوكسفورد في محاولة لتقديم ترجمة مكتملة العناصر.

ومراعاة للأدب العامة، فقد ارتأينا أيضاً أن نقدم مفردة «التجديف» بكلمة «شتيمة» أو «لعنة» تحفظاً مما قد يقع من سوء في نفس القارئ الصغير، ولقد فعلنا ذلك دونها إخلال بالمعنى، فقد كتب ستيفنسون مرة في إصراره على وجود التجديف في رواية للأطفال: «لقد واجهتُ مشكلة في إكمال الرواية دون تجديف. أتخيلون قراصنة لا يجدفون؟ إنه مثل طوب بدون قشّ. لذا يجب مراعاة الأطفال واستشارة الآباء». كما وقد استُبدلت مفردة «Negress» المرفوضة في عصرنا الحالي، بكلمة «امرأة ملونة»، على حذو الوصف الذي ذُكر في البداية عن زوجة سيلفر في رسالة الملاك (تريلاوني).

عن الكاتب

وُلد روبرت لويس ستيفنسون في عام ١٨٥٠ في إدنبرة، ابناً وحفيداً وابن أخ لعائلة من مهندسين مدنيين مرموقين. وعلى الرغم من تدريبه كمهندس، فقد اختار أن يصبح كاتباً. ولقد شملت كتبه الأولى عناوين (رحلة داخل البلاد) (١٨٧٨) و(رحلات مع حمار) (١٨٧٩). سافر إلى كاليفورنيا حيث تزوج (فاني أوسبورن) في ١٨٨٠، سيدة مطلقة وعندها ابن هو (صموئيل لويد أوزبورن). كانت رواية (جزيرة الكنز) (١٨٨٣) هي أول نجاحاته، ثم (الحالة الغربية للدكتور جيكل والسيد هايد) (١٨٨٦)، وبعدها (المخطوف) (١٨٨٦).

رنيم العامري

إلى المشتري المتردد

روبرت لويس ستيفنسون

إن كانت قد قيلت حكايةٌ عن البحارة وأناشيدهم
عن العواصف والمغامرات
عن القيظ والبرد
والسفن والجُزر والرجال المارونيين
والقراصنة والذهب المدفون،
وإن أُعيدت حكاية وبالطريقة القديمة نفسها
عن كل الخيالات الأولى
وأبهجت الكبار وفتية اليوم الحكماء، بمثلما أبهجتني
إذن فلتبدأ الآن!
وإذا لم يعد الشبان المجتهدون تواقين
ونسوا مسراتهم القديمة

مثل كينغستون وبالانتاين الشجاع
وكوبر رجل الغابات والبحار^(١)
لهم إذن ما يشاؤون، فلينسوا
لكنّ مصيري وقراصتي سيكون القبر
حيث ستقع هذه القصة
وقصص كلّ أولئك
إلى الأبد!

(١) ويليام كينغستون، روبرت بالانتاين، جيمس فينيمو كوبر، كتاب قصص مغامرات
أطفال.

الجزء الأول

القرطبان العجوز

(١)

كلب البحر العجوز في نزل الأدميرال بينبو^(١)

بعد أن طلب مني الملاك تريلاوني، والطبيب ليفزي وبقية الرجال أن أكتب عن حكاية جزيرة الكنز من البداية إلى النهاية، وأن لا أتكتّم على شيء من التفاصيل ما عدا موقع الجزيرة لأنه ما زال بعدُ ثمة جزء مدفون من الكنز فيها، لذا ها أنا ذا، أتلقّف قلمي في العام الميلادي ألف وسبعمئة و...، وأعود إلى الزمن الذي كان فيه والدي يدير نزل الأدميرال بينبو، والوقت الذي حلّ فيه عندنا نزيراً لأول مرة البحار الأسمر العجوز ذو الندبة على وجته.

أتذكّره كما لو كان ذلك في الأمس، عندما أقبل إلى باب النزل متثاقلاً في خطواته، وخلفه صندوقه البحريّ في حمالة، كان رجلاً طويلاً شديداً جسيماً ذا لون بنيّ كالْبُنْدُق، صغيرة شعره المدهونة بالقطران تتحدّر فوق معطفه الأزرق المتسخ، كانت يدها خشنتين عليهما ندوب، أظافرهما سود ومكسّرة، والندبة ممتدة على طول أحد

(١) سمي النزل على اسم الأدميرال جون بينبو (١٦٥٣-١٧٠٢) وهو قائد الأسطول البحريّ الملكيّ في جزر الهند الغربية خلال عمليّات ملاحقة القراصنة.

خديه بلون رماديّ مزرق من أثر جرح قدر ملتحم، أتذكر أنه كان يصفر فيما يقلّب نظره في أرجاء المكان، ثم رفع عقيرته وغنّى أغنية البحر القديمة المعروفة، في صوتٍ كهولي عالٍ، بدا وكأنه متناغم مع دوران قضبان الرحويّة التي ترفع المرساة^(١)، تلك الأغنية التي لطالما ظلّ يغنيها فيما بعد:

«خمسون رجلاً على صندوق الرجل الميت..
يوو هوو وزجاجة روم!».

دفع الباب بواسطة قضيب رحويّة كان يحمله، وعندما قدّم إليه والذي عند الباب، طالب بفضاظة بكأس من شراب الروم. وعندما جيء بالكأس إليه شربه على مهلٍ وكأنه ذوّاقه خبير بالشراب، يستطرد الطعم في فمه ولا ينفك عن تفحص المكان حوله وتقليب نظره ما بين الجروف الصخرية ولافتة النزل.

قال بعد برهة:

- هذا الخليج يصلح كملجأ، وحانة الغرغ^(٢) هذه تشرح القلب، هل يأتي الكثيرون إلى هنا يا صاحبي؟

أجابه والذي:

(١) الرحويّة: هي بكرة أسطوانية تدور على محور عموديّ يمثل حركة دوران حجر الرحي، تستخدم في لفّ حبال السفينة، يتم تحريكها بواسطة قضبان جانبية، على كل قضيب رجل يدفعه وكلهم يتحركون في نفس الاتجاه، يقوم البحارة أثناءها بالغناء لكي ينسقوا حركتهم معاً.

(٢) Grog: الشراب الكحولي المفضل للبحارة، وهو أي شراب قوي، وعادة الروم أو البراندي، مخفف بالماء.

- كلا، لا يأتي الكثيرون، مع الأسف.

فقال:

- إذا كان الأمر كذلك فهذا إذن مرساي.

ثم صاح على الرجل الذي كان يدفع بمشقة الحماله الخشبية التي فيها صندوقه:

- تعال يا صاحبي اجلب الصندوق، سأنزل هنا.

وأكمل موجهاً حديثه إلينا:

- أنا رجل بسيط، كل ما أريده هو الروم واللحم المقدد والبيض، وذلك المرتفع الذي هناك لكي أراقب من فوق قمته السفن المبحرة. أما كيف ستنادونني؟ فعليكم أن تنادونني بالقبطان.

ثم أردف قائلاً:

- أعرف ما الذي ترمي إليه، هاك..

ثم رمى على الأرض بثلاث أو أربع قطع ذهبية.

كان يبدو صارماً كقائد عندما قال:

- خبّروني عند نفاذها.

على الرغم من ملابسه السيئة وفضاظة حديثه ومظهره الذي لا يحمل أيّاً من صفات الرجال الذين أبحروا يوماً أمام صاري سفينة، إلا أنه كان يبدو كريّاناً أو نائب ربّان معتاد على أن يُطاع أو يفتك بمن يخالفه. أخبرنا الرجل الذي كان يدفع الحماله أن ضيفنا كان قد

جاء بالعربة التي تنقل البريد ونزل عند محطة الـ (رويال جورج) البارحة، ولكنه قرّر أن يقيم في نزلنا وكان قد استفسر عن الأنزال القريبة من الساحل، واختاره من بينها بعد أن سمع بأنه مكان معزول وذو سمعة طيبة. وكان هذا كلّ ما قد تمكّنا من معرفته عن نزيلنا هذا.

كان رجلاً صموتاً في العادة، يقضي نهاراته متجوّلاً بين الخليج والجروف وهو يحمل ناظوراً نحاسياً، ويقضي ليليه جالساً في ركنٍ من الصالة قرب النار مفرطاً في شرب الماء والروم. وإذا ما وجّه أحدهم الحديث إليه، لا يردّ، بل تعلق وجهه بغتة نظرة شرسة وينفخ من منخرينه مُنذراً مثل بوق الضباب^(١)، وهكذا سرعان ما اعتدنا نحن والناس الذين كانوا يرتادون النزل على أن نتركه وشأنه. كان يسأل عندما ينتهي من جولته اليومية حول الساحل عمّا إذا كان قد قدّم إلى المكان بحارة آخرون. في البدء اعتقدنا أنّ ما يدفعه لتكرار السؤال هو حاجته إلى رفقة لرجال من صنوه، لكننا فيما بعد أدركنا أنّه كان يسعى إلى تفاديهم. وكان إذا قدّم بحار ما إلى الأدميرال بينبو (مثلما ينزل الآن، ومثلما كان ينزل من قبل بعض البحارة في طريقهم إلى بريستول) كان يعاينه من فرجة الباب قبل أن يدخل إلى الصالة، وكان يحرص على البقاء هادئاً كفأرة في وجود مثل هؤلاء الرجال. أمّا أنا، فلم يكن أياً من ذلك يثير استغرابي، فقد كنتُ على نحو ما أقاسمه مخاوفه، لأنه في أحد الأيام كان قد أخذني على انفراد ووعد

(١) وهو بوق عالي الصوت يستخدم لتحذير السفن عند الرسو في الموانئ، وخصوصاً أوقات اشتداد الضباب.

بمنحي شلناً فضياً في مطلع كل شهر إذا أقيمت عيني متيقظة من
قدوم بحار ذي ساق واحدة، فأحذره حال ظهوره فوراً. وفي مطلع
كل شهر عندما أطلبه بأجرتي كان ينفخ منخره بحدة ويحملق في
بغضب، ولكن ما يكاد أول أسبوع أن ينقضي حتى يعيد النظر في
الأمر، فيحضر لي شلني الفضي ويكرّر أوامره: «احذر البحار ذا
الساق الواحدة».

وأتى لي أن أخبركم كيف طاردتني في كوابيسي شخصية البحار
ذي الساق الواحدة، فقد كنت أراه خلال الليالي العاصفة، عندما
كانت الرياح تهز أركان البيت الأربعة، والأمواج تهدر على طول
الخليج وتصطفق على الجروف، كنت أراه مائلاً أمامي على ألف
شكل وألف هيئة شيطانية، تارة أراه وساقه مقطوعة من الركبة،
وتارة مقطوعة من الفخذ، ومرة رأيت في هيئة مخلوق وحشي مرعب
بلا ملامح سوى ساق واحدة في منتصف جسده. أما أسوأ كوابيسي
فقد كان عندما أراه يثب على ساقه الوحيدة ليلاحقني عبر الخنادق
والأسيجة. وهكذا فقد كان الثمن الذي دفعته في هيئة خيالات
ملعونة أقضت مضجعي، أعلى من قيمة الشلن الذي كنت أتقاضاه.

وعلى الرغم من أنني كنت مرعوباً من البحار ذي الساق
الواحدة، إلا أنني كنت أقل الناس خوفاً من القبطان من بين الذين
عرفوه. ففي الليالي التي كان يفرط فيها من شرب الروم بكميات
أكثر مما يستطيع رأسه الاحتمال، كان أحياناً ينطلق في إنشاد أغنيته
البحرية المشؤومة، لوحده وغير مكترث بأحد، ولكنّه في أحيان
أخرى كان يطلب جولة من الشراب للجميع ثم يجبرهم، وهم في

خوفٍ من معارضته، على الاستماع إلى قصصه أو غنائه. وكم سمعتُ
النُّزْلَ بأكمله يهتَزُّ على وقع: «يوو هوو وزجاجة روم»، عندما ينضمُّ
كُلُّ الحاضرين للمشاركة في الغناء خوفاً من الخطر المحدق بحياتهم،
وكل واحدٍ منهم يصدح بصوت أعلى من الثاني تجنّباً لعيني القبطان
التي تراقبهم. وكان من أكثر الأشخاص غلظة على الإطلاق عندما
تعتره تلك النوبات، فهو إمّا أن يضرب بقبضته على الطاولة مطالباً
بالصمت، أو أن يستشيط غضباً عندما يحكي حكايته فيسأله أحد
عن شيء ما فيها، وهو حتى إذا لم يُسأل، فيتناهى إلى عقله أن الجمع
لا يتابع حديثه، وكان لا يسمح لأحد بمغادرة المكان حتى يشمل
تماماً ويدبّ النعاس في أوصاله فيغادر مترنحاً إلى مضجعه.

كانت قصصه فظيعة وتثير الرعب في قلوب الناس، فقد كانت
كلّها تدور حول المشانق والقراصنة الذين يعدمون أسراهم غرقاً
بأن يسيروهم على لوح طويل معلق إلى حافة السفينة، موثقي
الأيدي ومعصوبي الأعين فينتهون إلى قرارة البحر، وعن عواصف
البحر، وجزر دراوي تور توجاس، والأفعال والجرائم الهمجية،
والمستعمرات الأسبانية.

وبحسب ما يرويه، فقد عاش حياته في البحرين أكثر مخلوقات
الله شراً من جواي البحار، وقد روّعت كلماته التي استعملها في
وصف قصصه، أهالي بلدتنا البسطاء بنفس القدر الذي روّعتهم
فيه الجرائم التي تحدّث عنها. كان والدي يقول إن عملنا في النُّزْل
سيتداعى لأن الناس سيهجرونه بسبب من وجود القبطان وخوفاً
من أن يبطش بهم أو أن يهدّدهم ويرسلهم إلى منازلهم مرتعنين، على

أني كنتُ أعتقد أن وجوده كان من صالحنا، فرغم أن الناس كانوا يرتعون من قصصه في وقتها، إلا أنهم وبعد حينٍ من الوقت كانوا يميلون إليها، فقد كانت مصدر إثارة في حياتنا الريفية الهادئة، حتى أن هنالك عصبة من الفتيان الذين تظاهروا بأنهم أعجبوا به وكان يلقبونه بـ(كلب بحر حقيقي) وبـ(ملح قديم أصيل)^(١) وغيرها من تلكم الألقاب، ويقولون إنه من طراز الرجال الذين جعلوا لإنكلترا اسماً مهيباً في البحار.

ولكن على نحو ما، بدا حقيقياً أنه سيتسبب في انهيار النزل، إذ أنه بقي اسبوعاً بعد أسبوع، ثم شهراً بعد شهر، حتى استنفدت كل أجرته ومنذ أمدٍ طويل، ومع ذلك فلم يجرؤ والدي على طلب المزيد، ولو حصل أن بدت منه إشارة حول هذا الشأن، فإن القبطان سينفخ من منخره بصوت عالٍ حتى ليخيل لك أنه يزأر، ثم يحدق في أبي المسكين بشراسة فيجبره على الخروج من الغرفة. وكم من مرة شهدتُ فيها أبي بعد تلكم الردود الخشنة، وهو يضرب بكفيه ويعصرهما من شدة انزعاجه وأساه، وإنني على يقين من أن ذلك الخوف والضيق الذي عاش فيهما كان لهما أثرٌ كبير في التعجيل بموته الباكر المحزن.

لم يبدل القبطان شيئاً من ملابسه طوال الوقت الذي عاش فيه معنا، إلا حينما اشترى بعض الجوارب من أحد الباعة الجوالين.

(١) كلب بحر حقيقي، يعني بخار محنك، والملح القديم لقب يطلق على البحارة القدماء أو على راوية قصص البحار.

حتى أن طيئة في أحد جانبي قبعته أفلتت، وعلى الرغم من أنها كانت مصدر إزعاج عندما تتحرك بهبوب الرياح، إلا أنه أبقاها متدلية مذاك الوقت. وما زلت أتذكر منظر معطفه الرث، الذي كان يرقعه بنفسه عندما يختلي في غرفته في الطابق العلوي، حتى ما عاد في النهاية سوى رقعاً. لم يكتب نزيلنا رسالة أو يتلقّى واحدة البتّة، ولم يتحدث مع أيّ أحدٍ خلا الجيران، ولم يكن ذلك إلا عندما يكون ثملاً. أمّا الصندوق البحري فلم يره أيّ منّا مفتوحاً قط.

ولم يجرؤ أحد على معارضته إلا مرة وحيدة، وذلك قبيل وفاة والدي، عندما كان في شدة الاعتلال والمرض الذي فتك به في النهاية، فزاره الطبيب ليثزي في وقت متأخر ذات مساء، وجلس ليأكل من طعام العشاء الذي أعدّته والدتي، ثم تمشى إلى الصالة ليدخن غليونه بانتظار الجواد الذي سيقّله من القرية، إذ أننا لم نكن نمتلك اصطبلاً في النزل. كنت قد تبعته إلى الداخل، وأتذكر شدة التناقض بين الطبيب الأنيق وسيم الطلعة، يباروكته ذات المسحوق الأبيض الناصع كالثلج^(١) وعينه اللامعتين السوداوين وسلوكه المهذب الذي يميّز به على بقية سكّان البلدة الريفيين، وبين ذلك القرصان القذر بالأخصّ، السمين، المعتم، شبيه الفزاعة، الجالس قبالتنا وذراعاه على الطاولة غارقاً في شراب الروم. عندها شرع القبطان فجأة في إنشاد أغنيته الأبدية:

(١) اعتاد رجال الطبقة العليا والمتوسطة في ذلك الوقت أن يضعوا أشكالا متنوعة من الشعر المستعار، وكان هذا الشعر المستعار يُبيّض ويُعالج بمسحوق أو بودرة التالك الأبيض.

«خمسة عشر رجلاً على صندوق رجل ميت

يوو هوو وزجاجة روم

نشرب وسيتولّى الشيطان الباقي

يوو هوو وزجاجة روم!».

لقد اعتقدتُ في البداية أن «صندوق الرجل الميت» الذي يغني عنه، هو نفسه ذلك الصندوق البحري الموجود في غرفته، وقد اختلطت هذه الفكرة مع صورة البحّار ذي الساق الواحدة في كوابيسي. ولأنه كان قد مضى وقت طويل ونحن نستمع إليها، لذا توقفنا عن الاهتمام بهذه الأغنية التي اعتادت عليها مسامع الجميع ماعدا الدكتور ليفزي في تلك الليلة، الذي لاحظتُ أنه عندما سمعها لأول مرة قد خلّفت عنده انطباعاً غير مستحسن، لأنّه بدا غاضباً، وأكمل حديثه على مضضٍ حول علاج جديد للروماتيزم مع تايلور البستانيّ المسنّ. في هذه الأثناء كان القبطان قد انتشى تدريجياً على وقع موسيقى أغنيته، ومن ثم ضرب بيده على الطاولة التي أمامه في إشارة يعرف الجميع أنها تعني صمتاً، فسكتت على الفور كلّ الأصوات، ما عدا صوت الطبيب ليفزي الذي استمر في حديثه في صوتٍ هادئٍ ولطيفٍ وهو يجرّ بخفة بين الكلمة والأخرى نفساً من غليونه، فما كان من القبطان إلا أن حدّق فيه بشراسة، وصفق الطاولة مرةً أخرى بيده، ثم حدّق من جديد وبشراسة أكثر، وفي النهاية انفجر غضباً وصار يشتم بطريقته الخسيسة:

- أنتم، على سطح السفينة، اصمتوا!

قال الطبيب:

- هل توجه حديثك إليّ، سيدي؟

وعندما أجاب البحّار الخسيس بشتيمة أخرى، بأنّه كان يخاطبه،

قال الطبيب:

- عندي شيء واحد سأقوله لك يا سيدي، وهو أنّك لو لبثت

على شرب الروم مثلما اعتدت أن تفعل، فإن العالم سوف

يتخلّص قريباً من رجل في غاية القذارة والوضاعة!

كان غضب البحّار العجوز فظيماً، فما كان إلا أن وثب على

قدميه وفتح مديته^(١) وهدّد بأنه سيسمّر الطبيب على الحائط بطعنة.

أما الطبيب فلم يحرك قيد أنملة، بل استمر موجّهاً حديثه من فوق

كتفه ورافعاً صوته قليلاً كي يستمع بقية من في الغرفة، قائلاً بنبرة

هادئة ومتوازنة:

- إذا لم تُعد هذه السكين إلى جيبيك من فورك، أعدك، وأقسم

بشر في على ذلك، بأنك سوف تُحكّم بالشنق في أقرب جلسة

محكمة^(٢).

تلا ذلك معركة بالنظرات بين الخصمين، انتهت بأن أغمد

القبطان سلاحه، وتراجع إلى مقعده متبرّماً مثل كلبٍ مضروب.

(١) clasp-knife: مديّة جيب قابلة للطّي ذات شفرة مغلقة.

(٢) Assizes: قضاة من شعبة مقاعد الملك في المحكمة العليا كانوا يسافرون في البلاد،

ويحاكمون في القضايا التي هي أكثر خطورة من القضايا التي تتناولها محاكم الصلح

المحلية. وكان الطبيب ليفزي قاضياً من هذه الفئة.

أكمل الطيب:

- أمّا الآن يا سيدي، وقد صار عندي علم بوجود شخص من نوعيتك في مقاطعتي، فليكن بحسبانك بأنني سأبقيك تحت ناظري ليلاً ونهاراً. فأنا لستُ طبيياً فقط، بل وقاضٍ مدني أيضاً، ولو تناهت إلى سمعي أية شكوى ضدك، حتى لو كانت مجرد شيء من سوء السلوك مثل الذي أظهرته هذه الليلة، فسأخذ كل وسيلة متاحة لكي أتعقبك وأطردك من هنا، وليكن تحذيري هذا كافياً لك.

وصل عند الباب جواد الطيب ليقرّي بعد ذلك بقليل، ركبه ثمّ مضى، أمّا القبطان فلم يُسمع له حس لا في تلك الليلة ولا في الليالي التي تلتها من بعد.

(٢)

بلاك دوغ^(١) يظهر ويختفي

لم يمض وقت طويل بعد ذلك عندما حدثت أولى الأحداث الغامضة التي خلصتنا أخيراً من القبطان، غير أننا لم نتخلص من مشاكله بعده، كما سترون. كان شتاءً مريراً وقاسياً صاحبه عواصف صقيعية ثقيلة وطويلة، وكان واضحاً من الوهلة الأولى أن أبي المسكين لن يعيش ليرى قدوم الربيع. كان يزداد اعتلالاً وكان علينا أنا وأمي أن نأخذ على عاتقنا مسؤولية إدارة النزل، وهكذا كنا في غاية الانشغال فلم نعد نهتم بما يحصل مع ضيفنا البغيض.

حدث في باكورة أحد الصباحات الصقيعية الباردة من شهر يناير، عندما استحال لون الخليج رمادياً لأنه تغطي بالجليد الأشيب، والأمواج ترتطم على صخور الساحل بهدوء، والشمس لا زالت خفيضة إذ لم تلامس أشعتها إلا قمم التلال فشعت بعيداً في البحر؛ أن استيقظ القبطان في ذلك الصباح في وقت أبكر من المعتاد، كان

(١) Black dog: الكلب الأسود.

قطلسه^(١) يتأرجح تحت الحاشية الواسعة لمعطفه الأزرق القديم، متأبطاً ناظوره النحاسي وقبعته ماثلة إلى خلف رأسه، ثم توجه نحو الشاطئ. لا أزال أتذكر أنفاسه المعلقة كالدخان في أعقابه وهو يحث الخطى، وكان آخر صوت سمعته يصدر منه عندما استدار خلف الصخرة الكبيرة، صوت شخير عالٍ من السخط، كما لو أنّ عقله لا يزال معلقاً بها حدث مع الدكتور ليفزي.

كانت أمي برفقة أبي في الطابق العلوي، وكنت أحضّر مائدة الفطور تحسباً لعودة القبطان، عندما فتحت باب الصالة ودخل رجل لم أكن قد رأيته من قبل قط، كان مخلوقاً شاحباً، ذا صفرة بلون الشحم يفتقد لإصبعين من يده اليسرى، ومع أنه كان يتقلد قطلساً، إلا أنه لم يبدُ كمقاتل على الإطلاق. كنت طالما أتحرّز من ظهور بحّارة بساق واحدة أو ساقين، أمّا هذا الرجل فقد أصابني بالحيرة، فهو لم يكن بحّاراً رغم أن له سحنة البحر.

سألته عمّا بإمكانني خدمته، فقال إنه يريد شراب الروم، وفيما كنتُ أهرج خارج الغرفة لآتي بالشراب، جلس على طاولة وأشار إليّ لأقرب منه، توقفتُ حيث كنتُ ومنديلي في يدي.

قال:

- اقرب يا ولدي، تعال هنا.

دنوتُ خطوة منه.

(١) cutlass: سيف ثقيل مقوس ذو نصل حاد من جهته المحدّبة فقط، وهو ذو نهاية أعرض من قبضته، وهو السلاح المفضّل لدى القراصنة.

سأل بنبرة خبيثة:

- أهذه طاولة صاحبي بيل؟

أخبرته بأنني لا أعرف صاحبه بيل، وأن هذه الطاولة هي لتزليل
لدينا ندعوه بالقبطان.

قال:

- حسناً، صاحبي بيل قد يكون هو القبطان، أو قد لا يكون.
صاحبي عنده ندبة على أحد خديه، وله سلوك بهيج خاصة
عندما يشمل. فلنفترض أن قبطانك ذاك، لديه ندبة على أحد
خديه، ولنقل أيضاً إن تلك الندبة على خده الأيمن، هل هذا
صحيح؟ حسناً إذن، كما أخبرتك، هذا هو صاحبي بيل،
والآن أخبرني هل هو موجود؟
أخبرته بأنه خرج ليتمشى.

- أخبرني يا ولد في أي طريق مضى؟

وعندما أشرتُ إلى الصخرة وأخبرته بأن القبطان على وشك
الرجوع وأجبتّه على بضعة أسئلة أخرى، قال:

- آها، سيكون هذا جيداً كطعم الشراب لصاحبي بيل.

كانت تعلقو وجهه ملامح بغیضة عندما قال تلك الكلمات،
واعتقدتُ بأن هذا الغريب كان على خطأ، حتى لو كان يقصد ما
يقوله. ولكنني فكّرت على كل حال أن هذا ليس من شأني، إضافة
إلى أنني كان من الصعب عليّ أن أعرف ما الذي يجب عليّ فعله.

وهكذا ظلّ الرجل الغريب مرابطاً قرب باب النزل، يتلصّص حول الزاوية كما لو كان قطة تنتظر فأراً. وحالما خطوت متوجهاً إلى الخارج، ناداني على الفور، وحين لم ألبّ نداءه بالسرعة التي كان ينتظرها مني لأطيعه، حدث تغيير فظيع على ملامحه الشاحبة، وأمرني أن أرجع إلى الداخل بشتيمة جعلتني أقفز هلعاً. وحالما عدتُ عاد هو إلى سلوكه السابق نصف المتزلّف ونصف الساخر، وربت على كتفي وأخبرني بأنني ولد مطيع وأنه أعجب بسلوكي.

قال:

- عندي ولد، يشبهك تماماً وهو فخر قلبي. أهم شيء بالنسبة للأولاد هو الانضباط، يا ولدي، الانضباط. لو كنت قد أبحرت برفقة بيل، لما كنت ستقف مثلما تقف الآن وتكرّر الأوامر مرتين عليك، هذا ليس أسلوب بيل، ولا الذين أبحروا معه. ها هو ذا بلا شك، بيل -بورك قلبه العجوز- عائداً متأبطاً ناظوره التجسسيّ. لذا علينا أنت وأنا أن نعود إلى الصلاة ونختبئ خلف الباب ولسوف نقوم بعمل مفاجئة صغيرة لبيل -بورك قلبه مرة ثانية-.

وهكذا كان أنني وجدتُ نفسي في الصلاة مع الرجل الغريب وقد وضعني خلفه في الركن، وبهذا الشكل كان الباب المفتوح سيخبئنا كلانا وراءه. ولكم أن تتخيلوا كم كنت في حالة الانزعاج والقلق، وما زاد في خوفي أنني لاحظت أن الرجل الغريب نفسه كان خائفاً. كان قد حرّر مقبض قطلسه وأرخصي النصل في غمده،

وطوال الوقت الذي كنا ننتظر فيه عودة القبطان، كان الرجل
الغريب يتلعب ريقه خوفاً.

أخيراً قدّم القبطان، دخل وشفق الباب وراءه دون أن يلتفت
يميناً أو يساراً، وتوجه مباشرة نحو طاولته التي كان فطوره معداً
عليها بانتظاره.

ثم صاح الغريب في صوت أعتقد أنّه حاول أن يجعله يبدو
شجاعاً وجليلاً:

- بيل!

استدار القبطان على عقبه لمواجهتنا، امتقع وجهه وشحب لونه
البنّي، حتى أن أنفه صار أزرق، وعلت وجهه نظرة من رأى شبحاً
أو شيطاناً أو مخلوقاً ما أكثر شراً، لو كان مثل هذا المخلوق موجوداً،
ويا لمفاجأتي عندما شعرتُ بالشفقة عليه وأنا أراه في تلك اللحظة
وهو يتحول إلى رجل مسن وضعيف.

قال الغريب:

- هيا يا بيل، أنت تعرفني، لا بدّ من أنك تعرف رفيق السفينة
القديم.

شهق القبطان وقال:

- بلاك دوغ!

قال الرجل الغريب وقد بدا مرتاحاً أكثر من ذي قبل:

- ومن غيره؟ بلاك دوغ، جاء ليرى رفيقه القديم بيلى في نُزل
الأميرال بينبو.

ثم قال بعد أن رفع يده المشوّهة:

- أوه بيلى، بيلى، لقد شهدنا الكثير كلانا، منذ أن فقدت مخلبيّ
هذين..

قال القبطان:

- اسمع، لقد طاردتني حتى عثرت عليّ، وها أنا أمامك، فقل
ما عندك، هيا؟

قال بلاك دوغ:

- ها أنت ذا كعادتك يا بيلى. أنت محق. سأشرب كأساً من
الروم من هذا الولد العزيز الذي أعجبت به، وسنجلس،
إذا رغبت، ونتحدث دون مواربة كبخّارة ورفقاء قدماء.

عندما عدتُ بالروم كانا قد جلسنا إلى طرفي طاولة فطور القبطان،
كان بلاك دوغ يجلس قرب الباب وقد أمال جسده إلى الجانب، لكي
يُبقي عيناً على رفيقه القديم وعيناً على وسيلة هربه، هكذا فكّرت.

أمرني بالخروج وترك الباب مفتوحاً على مصراعيه، قال لي:
«لن يكون لك أن تتلصص من خلال فتحات الباب يا ولدا!»، لذا
تركتها على انفراد وعدتُ إلى المشرب.

ورغم أني بذلت كل ما بوسعي لكي أستمع إلى حديثهما، إلا
أنني ولفترة طويلة لم أسمع إلا همسات خفيضة، لكنني فيما أخذت

الأصوات تزداد ارتفاعاً، تمكنتُ من التقاط كلمة من هنا وأخرى من هناك، وكانت غالباً شتائم يطلقها القبطان.

صاح في مرة:

- كلا، كلا، كلا، وهذه هي النهاية!

وصاح في مرة أخرى:

- إذا كان كذلك أقول فليتأرجح الجميع على المشانق!

ثم فجأة، علت الأصوات بالشتائم وحدثت جلبة كبيرة من أصوات تحطم الكرسي والطاولة وتكومهما في جهة، أعقبها صوت اشتباك الحديد ببعضه، ومن ثم صرخة ألم، وفي اللحظة التالية رأيت بلاك دوغ وهو يفرّ أمام القبطان الذي كان يطارده محموراً، وكلاهما كان يشهر قطلسه، والدم يتدفق من الكتف الأيسر لبلاك دوغ. عند الباب، وعندما كان الطريد يهّم بالفرار وجّه القبطان إليه ضربة أخيرة كانت ستشطر عموده الفقري إلى نصفين لو لم تعترض طريقها لافته نُزل الأدميرال بينبو. وباستطاعتكم أن تروا حزّ تلك الضربة على الجانب السفلي من إطار اللافتة ماثلاً حتى اليوم.

أعلنت تلك الضربة نهاية المعركة، فما أن أفلت بلاك دوغ حتى لاذ بالفرار رغم إصابته، وفي غضون نصف دقيقة كان قد اختفى خلف التل. أمّا القبطان، فقد ظل يحدّق باللافتة مثل رجل مرتبك، فرك عينيه عدة مرات، ثم استدار أخيراً عائداً إلى النُزل.

قال:

- جيم! إليّ بالروم!

وبينما هو يتكلّم ترتج قليلاً واستعان بالجدار بيد واحدة لكي
يمسك نفسه عن السقوط.

صحت قائلاً:

- هل أنت مُصاب؟

قال:

- ناولني الروم! عليّ أن أهرب من هنا. الروم! الروم!

هرعت لإحضار الروم، لكن لأنني كنتُ مضطرباً جرّاء ما
حدث، فقد كسرت كأساً وأتلفتُ صنوبراً، وفيما كنتُ أحاول أن
أجد طريقي بين الأنقاض، سمعتُ صوت شيء يرتطم في الصالة،
هرعتُ إلى الداخل وإذا به القبطان ممدد بطوله على الأرض. في هذه
الأثناء نزلت أُمي التي أفلقتها أصوات الصياح والقتال، جرت
لمساعدتي، وحاولنا معاً أن نرفع رأسه، كان يتنفس بصوت عالٍ
لكن عينيه كانتا مغمضتين وقد تحول وجهه إلى لونٍ فظيع.

صاحت أُمي:

- يا إلهي، يا إلهي، يا لها من فضيحة حلّت على النزل! ووالدك
المسكين مريض!

ولم تكن لدينا أدنى فكرة عمّا يجب القيام به لمساعدة القبطان،
ولم يخطر في بالنا سوى أنّه قد أصيب في مقتل عند مشاجرته مع
الغريب. جئتُ إليه بالروم، وحاولت أن أعبه في حلقه، لكن أسنانه

كانت مسدودة وفكيه كانا مطبقين كأنهما من فولاذ. وكم كان في
قدوم الطبيب ليقرزي في زيارته المعتادة لأبي من غوث لنا ونحن على
تلك الحال.

صحنا:

- أوه أيها الطبيب، ماذا سنفعل؟ أين أصيب؟ أين جرحه؟

قال الطبيب:

- أيّ جرح؟ هذا كلام فارغ. إنّه مثلي ومثلكما، سليم من أي
جرح. لقد تعرض الرجل إلى جلطة، سبق وأن حذرتة.
والآن يا سيدة هو كينز عليك العودة إلى زوجك في الطابق
العلوي، وعليك، لو سمحت، ألا تخبريه بشأن ما حدث
إطلاقاً. بالنسبة لي فأنا ملزم بإنقاذ حياة هذا الرجل التافهة.
هيا يا جيم، أحضر لي طستاً.

عندما عدتُ بالطست كان الطبيب قد مزق كُم قميص القبطان،
وكشف عن ذراع عضلية متينة، مليئة بوشوم منقوشة بإتقان
وحرفية، في عدة مواضع من ساعده: «حسن الحظ نديمي»، «الرياح
الطبية مؤنستي»، «حلم بيلي بونز». وكان في أعلى ذراعه، بالقرب من
الكتف، ثمة وشم على شكل مشنقة ورجل معلق في أنشوطتها، جال
ببالي وقتها أنه مرسوم بوجدانية عالية.

قال الطبيب وهو يتلمس بإصبعه رسمة الرجل المشنوق:

- إنها نبوءة!

ثم وجه كلامه إليّ قائلاً:

- والآن، علينا أن نتفحص لون دم السيد بيلي بونز إذا كان هذا هو اسمه، هل تخاف من منظر الدم يا جيم؟

- كلا يا سيدي.

وبذا طلب مني أن أحمل الطست، ثم تناول مشرطه وفتح وريداً سألت منه كمية غزيرة من الدم قبل أن يفتح القبطان عينيه لينظر من حوله بالتباس مبهم. وقع نظره لأول وهلة على الطبيب وميزه لأن وجهه اكتسى بعبوس لا لبس فيه، ومن ثم بدا عليه الارتياح عندما لمحني. وفجأة امتقع لونه وصاح وهو يحاول أن يحمل نفسه على النهوض:

- أين بلاك دوغ؟

قال الطبيب:

- ما من كلب أسود هنا، باستثناء ما تنوء بحمله^(١). لقد كنت تسرف في شرب الروم، لذا أصبت بجلطة مثلما حذرتك، ولقد أنقذتك بالكاد من موت محتوم، ولأقل صراحة أني وجدت نفسي مرغماً على فعل ذلك. أمّا الآن يا سيد بونز علينا أن...

قاطعهُ القبطان قائلاً:

(١) البلاك دوغ هو شكل افتراضي من الشيطان، وهو تعبير أيضاً عن الاكتاب.

- هذا ليس اسمي..

أجاب الطبيب:

- ليس هذا من اهتماماتي. انه اسم قرصان أعرفه، وسأدعوك به اختصاراً. يجب عليّ أن أخبرك أنّ كأساً واحدة من شراب الروم لن تقتلك، لكنك لن تكفي بكأس واحدة وستطلب الثانية والثالثة وسرعان ما ستنزلق في الشراب، وأراهنك أنّك ستموت بعدها بقليل. هل تفهم كلامي، ستموت وسيكون مصيرك مثل مصير ذلك الرجل في الكتاب المقدس^(١). أمّا الآن، أتمنى أن تبذل جهداً، وسأساعدك هذه المرة لتستريح في فراشك.

حاولنا بجهد حثيث أن نصعد به إلى غرفته بالطابق العلوي، ومددناه في فراشه، عندها رمى برأسه على وسادته كما لو أنه مغمى عليه من شدة الإعياء.

قال الطبيب:

- والآن لكي أخلص ضميري سأقول لك وانتبه إلى كلامي، فليكن في حسابك أن مجرد اسم الروم بالنسبة لك يعني موتاً محتماً.

وبهذا أنهى حديثه مع القبطان، ثم خرج ليزور والدي وقد أخذ بذراعي يصحبني معه. وحالما أغلق الباب وراءه قال لي:

(١) يعني به شخصيّة يهوذا.

- ما حدث ليس بذى أهمية. لقد سحبتُ منه مقداراً من الدم
يكفي لبقية مرتاحاً لفترة، إنَّ أفضل شيء بالنسبة له ولك،
هو أن يبقى مستلقياً في سريره لمدة أسبوع. إنَّ جلطة أخرى
ستودي به إلى حتفه قطعاً.

(٣)

الوسمة السوداء

كنت قد توقفت عند باب غرفة القبطان حوالي الظهرية لأحضر له دواءً وشراباً منعشاً، كان مستلقياً على نفس الحال التي تركناه عليها، إلا أنه كان قد رفع جسده قليلاً، وكان يبدو واهناً ومتحمساً في ذات الوقت.

قال:

- جيم، أنت الشخص الوحيد الذي له قيمة عندي في هذا المكان، وتعلم أنني كنتُ أعاملك معاملة طيبة، وكنت أعطيك شلناً فضياً، وإن لم يكُ ذلك بانتظام شهري. وها أنت تراني الآن ضعيفاً، وقد تخلّى عني الجميع، إذن يا جيم هل يمكنك أن تأتيني بكوز صغير من الروم؟ ستفعل ذلك من أجلي يا صاحبي، هه؟

قلتُ:

- ولكن الطيب...

إلا أنه وقبل أن أكمل، شرع في صبّ اللعنات على الطبيب، بصوتٍ واهن ولكن بانددفاع، قال:

- كل الأطباء تافهون. ما الذي يعرفه ذلك الطبيب عن البحارة؟ لقد جبت أماكن حارة كالقار، ورأيت رفاقي يتساقطون حولي بالحمى الصفراء، وأقمتُ في أراضٍ ملعونة تتقاذفها الزلازل مثل أمواج البحر. هل يعرف الطبيب شيئاً عن تلك الأراضي؟ ولقد عشتُ على الروم خلال كل هذه الحوادث، كان الروم بالنسبة إليّ كاللحم وكالماء، كالزوجة وكالرفيق. وإذا لم أشرب الروم الآن فسوف أكون مثل سفينة قديمة متهالكة على ساحل مهجور، سيكون دمي في رقبتك يا جيم. أمّا ذلك الطبيب فهو شخص تافه.

وعاد إلى صبّ لعناته. ثم قال في نبرة توّسل:

- أنظر يا جيم إلى أصابعي كيف ترتعش، لا يمكنني إبقاءها ثابتة. لم أحصل ولا حتى على قطرة من الشراب في هذا اليوم الجميل. ودعني أخبرك أنّ ذلك الطبيب أحمق. إذا لم أحتس الروم فسوف تجتاحني الهلوسات يا جيم. وقد بدأ بعضها يتتابني منذ الآن، لقد رأيت العجوز فلينت شاخصاً أمامي جلياً مثل لوحة هنالك في الزاوية خلفك، نعم لقد رأيته. أنا رجل عاش الأهوال ولو اجتاحتني تلك الهواجس فسوف أقيم الدنيا ولا أقعدها. وعموماً، إن طبيبك ذاك قد قال إن كأساً واحدة لن تضيرني. جيم، سأعطيك جنيهاً ذهبياً

مقابل كوز روم واحد^(١)، ها؟

كان إلحاحه يزداد وصوته يرتفع، وكنتُ قلقاً على والدي الذي اشتدّ مرضه في ذلك اليوم وكان بحاجة إلى الهدوء، أضف إلى أن الطبيب أكد بنفسه أنّ كأساً واحدة لن تضره، والآن يكرّر القبطان كلمات الطبيب، على أنني شعرتُ بالإهانة عندما عرض عليّ رشوة. قلتُ له:

- لا أريد شيئاً من أموالك، عدا الأجرة التي تدين بها لوالدي. وسأحضر لك كأساً واحدة لا غير.

وعندما عدتُ إليه بالشراب انتزع الكأس من يدي بجشع، وعبّها كلّها بشراهة.

قال:

- آي، آي، هكذا أفضل بالتأكيد. والآن يا صاحبي هل أخبرك ذلك الطبيب عن المدة التي يجب عليّ قضاءها في هذا المضجع القديم؟

أجبتُه:

- أسبوع على الأقل.

انفجر صائحاً:

- لترعد السماء! أسبوع! لا يمكنني البقاء طوال هذه الفترة،

(١) Noggin: كوز صغير بمقدار ربع لتر.

سيضعون الوسمة السوداء^(١) عليّ خلال هذا الوقت! هؤلاء الملاحون الخرقاء على وشك أن يقفوا بيني وبين الريح^(٢)، إنهم لم يحافظوا على ما يملكون لذا يسعون وراء ممتلكات الآخرين. أهذه من خصال البحارة الأصلاء! قل لي؟ لكنني بطبعي سأحافظ على أموالي، أوفرها ولا أنفقها عبثاً. ولسوف أخدعهم مجدداً، لست أهابهم. سأبسط شراعاً آخرأ يا صاحبي، وأضللهم مرة أخرى.

نهض من فراشه بصعوبة كبيرة بينما كان يتحدث، استند على كتفي بقبضة شديدة كادت أن تجعلني أصرخ ألماً، كان يجرجر ساقيه كما لو كانتا حملاً ثقيلاً، كانت كلماته على ما فيها من روح شجاعة تتناقض بأسى مع صوته الواهن الذي تحدّث به. كان قد توقّف لوهلة عندما وصل إلى وضعية الجلوس على حافة السرير.

تمتم قائلاً:

- لقد نال مني ذلك الطبيب. إنّ أذنيّ تطنّان. ساعدني كي أتمدّد.

وقبل أن أتمكّن من مساعدته كان قد هوى إلى وضعه السابق، حيث استلقى لفترة صامتاً.

قال بعد فترة:

(١) the black spot: فكرة من اختراع ستيفنسون قد تعكس صدى الممارسة (المزعومة)

وهي اتهام رجل بالخيانة من خلال اعطائه ورقة لعب آس من البستوني.

(٢) get the wind of: الحؤول بين السفينة والرياح. أي أن يعترضوا طريقي.

- هل رأيت ذلك البحار اليوم يا جيم؟

سألته:

- بلاك دوغ؟

قال:

- آه، بلاك دوغ، إنه رجل سيء. لكن هنالك من هو أسوأ منه، وهو من قام بإرساله. والآن أصغ إلي، إذا لم أتمكن من الهروب ووصموني بالوسمة السوداء فعليك أن تعرف أنهم يسعون للوصول إلى صندوقي البحري ذاك، عليك أن تتحصّل على جواد، هل يمكنك ذلك؟ عندها عليك أن تمتطي جوادك وتذهب إلى ذلك الطيب التافه وتخبره بأن ينفخ بوقه ويستدعي الجميع^(١)، قضاة وغيرهم، وسيقبض عليهم، كلّ طاقم فلينت العجوز في نزل الأدميرال بينبو، كل من بقي منهم، رجالاً وفتياناً. أتعرف أنني كنتُ الرفيق الأول للعجوز فلينت، وأنا الوحيد الذي يعرف المكان. لقد أعطاني إياها في السافانا عندما كان يحتضر، كما أحتضر الآن أنا. لكنك لن تبلغ عني إلا إذا وضعوا الوسمة السوداء عليّ، أو إذا ظهر بلاك دوغ مرة أخرى، أو الأهم من بينهم كلّهم البحار ذو الساق الواحدة، جيم البحار ذو الساق الواحدة هذا هو الذي عليك أن تحذر منه.

(١) pipe all hands: عريف الملاحين على السفينة يمتلك بوقاً يستدعي فيه الطاقم على ظهر السفينة. استعمل القبطان بيلي بونز هذا التعبير ويقصد به استدعي الجميع.

سألته:

- وما هي الوسمة السوداء يا قبطان؟

- إنه استدعاء يا صاحبي. سأخبرك عنه إذا ما وضعوه عليّ،
أمّا الآن فعليك أن تبقي عينك يقظة، وأقسم لك بشر في أنني
سأقاسمك كل شيء مناصفة.

فقد وعيه قليلاً وصار صوته أكثر خفوتاً، ولكنه استغرق في
نومٍ شبيه بالغيوبة، بعد أن أعطيته دواءه الذي تناوله مثل طفل
مطيع قائلاً: «إذا كان ثمة من بحار بحاجة إلى دواء، فذلك هو أنا»،
ثم غادرته وهو على تلك الحال. كنتُ أجهل ما الذي كان بوسعي
فعله لكي أجعل الأمور تسير على ما يرام، ربّما كان يجب عليّ أن
أطلع الطبيب على كلّ القصة، لكنني كنتُ في خوف مميت خشية
أن يتراجع القبطان عن اعترافاته وينهي حياتي. ولكن الأحداث
غيّرت مسراها، إذ باغتتنا وفاة والدي تلك الليلة، فدفع هذا الأمر
بباقى الأمور جانباً. في هذه الأثناء كان حزننا على فقدان والدي،
وزيارات الجيران وترتيبات الجنائز وإدارة النزل الذي تعيّن عليّ أن
أهتم به، وكلّ تلك الأمور، قد أبقنتني مُنشغلاً لدرجة ما عاد عندي
معها وقت للتفكير بالقبطان، بل ولا حتى الخوف منه.

في الصباح التالي نزل القبطان إلى الطابق السفلي، تناول طعامه
كالمعتاد، وأخشى أنه كان قد شرب من الروم أكثر من جرعته
المسموح له بها، إذ كان قد توجّه إلى المشرب متجهماً وناظراً من
منخريه، وصبّ شرابه بنفسه، فيما لم يجرؤ أحد على معارضته. كان

شديدة الشمالة في الليلة التي سبقت الجنازة، وكان سماعه يغني أغنيته القبيحة القديمة في منزل يمرّ بفترة جِدَادٍ أَمْراً صَادِماً، وبالرغم من حالته الضعيفة إلا أننا كنّا جميعاً مذعورين منه حدّ الموت، أمّا الطبيب فقد ذهب ليعود مريضاً على بعد أميال، ثم لم يعاود القدوم إلى النزل بعد وفاة والدي. ذكرتُ مسبقاً أنّ القبطان كان في حالة ضعيفة وبدا كأنه يزداد ضعفاً بدلاً من أن يستعيد عافيته. كان يصعد وينزل السلم بمشقة، ويمضي وقته بين الصالة والمشرب ذهاباً وإياباً، وأحياناً كان يمدّ أنفه خلال الباب ليتشمّم عبير البحر مستنداً على الجدران، يتنفس بصعوبة وبسرعة مثل رجل يتسلق جبلاً شديد الانحدار. لم يكن يخاطبني وأعتقد أنّه نسي تماماً سرّه الذي باح به إليّ، ولكن مزاجه صار أكثر جموحاً، وبأخذ اعتلال جسده بنظر الاعتبار فإنه صار أكثر عنفاً من أي وقت مضى. وقد صار الآن أخطر عندما يشمل إذ يقوم بإشهار سيفه وطرحه أمامه على الطاولة متوعداً. ورغم كل ذلك فقد كان لا يعبأ بأحد، وبدا ليس مستغرقاً في أفكاره فحسب، بل حائراً. وأذكر في إحدى المرات أنه أنشد أغنية مغايرة تماماً، واحدة من أغاني الحب الريفية لا بدّ أنه كان قد سمعها في فتوته قبل أن يصير بحاراً.

وهكذا مرّ الوقت وصولاً إلى اليوم التالي للجنازة، وكانت الساعة تشير إلى الثالثة في مساء ضبابي صقيعي مريع. كنتُ أقف عند الباب تتابني خواطر حزينة عن والدي، عندها رأيتُ شخصاً على قارعة الطريق يقترب ببطء. كان جلياً أن هذا الشخص أعمى، إذ أنّه كان ينقر بعكازه على الطريق قبل أن يخطو أية خطوة. كان

يضع عصا به خضراء على عينيه وأنفه، كان أحداً بسبب الشيخوخة أو الوهن، ويرتدي عباءة بحر قديمة رثة فيها قلسوة تغطي رأسه جعلت منظره يبدو مشوهاً تماماً. لم أر في حياتي حياة أفضح من حياته. توقف لوهلة أمام النزل ثم شرع في إنشاد أغنية غريبة بدا وكأنه يخاطب فيها الهواء من حوله: «ألا من صديق طيب يرشد مسكيناً أعمى فقد بصره الغالي دفاعاً عن بلده الأصيل، إنجلترا؟ فليبارك الرب الملك جورج! أين أنا الآن وفي أي جزء من هذه البلاد؟».

قلت:

- أنت عند نزل الأدميرال بينو، في خليج بلاك هيل، أيها الرجل الطيب.

قال:

- أنا أسمع صوتاً يافعاً، ألا تمدّ لي يدك وتقودني أيها الفتى الطيب؟

مددتُ يدي وفي لحظة واحدة أمسك الرجل الأعمى الفظيع المتزلف بيده على يدي وأحكم قبضته كملزمة.

قال:

- والآن يا ولد خذني إلى القبطان.

قلتُ:

- أقسم لك أنا لا أجرؤ على ذلك.

قال بصوت كالنخير:

- أوه، هكذا إذن ها؟ خذني إليه أو سأكسر ذراعك!

وفيا قال ذلك لوى ذراعي بشدة جعلتني أصرخ المأ.

قلتُ:

- أرجوك يا سيدي، أنا أرعى مصلحتك، القبطان ليس كما

كان، إنّه يجلس شاهراً قطلسه أمامه، حتى أن رجلاً آخر..

فقاطعني قائلاً:

- سر أمامي، الآن.

لم أسمع من قبل صوتاً أقبح أو أغلظ أو أقسى من صوت ذلك

الأعمى، لقد روّعني أكثر من الألم بحد ذاته، لذا طاوعته من فوري،

أرشدته من الباب إلى الصالة حيث كان يجلس قرصاننا العليل ثملاً

من الروم. تشبث الرجل الأعمى بي بقبضة حديدية وارتمى عليّ

بكلّ ثقل جسده فكنتُ بالكاد أستطيع اقتياده.

قال:

- خذني إليه مباشرة، وعندما أصبح أمامه ناد بصوتٍ عالٍ:

«إنّه صديقك يا بيل»، وإذا لم تفعل ما أمرتك به فسوف

ألوي ذراعك هكذا..

ثم قام بليّ ذراعي بقوة حتى ظننتُ أنني سأفقد الوعي من شدة

الألم. بين هذا وذاك، كنتُ في غاية الرعب من الشحاذ الأعمى حتى

نسيتُ خوفاً من القبطان، وفيما كنتُ أفتحُ باب الصلاة صحتُ
وبصوت مرتعش، بالكلمات التي أمرني أن أقولها.

رفع القبطان المسكين نظره، وفي لمحة واحدة طار تأثير الروم
وخلفه واعياً. لم تعلُ وجهه تعابير الرعب، بل كانت أقرب إلى أن
تكون علامات مرض مميت. وحتى عندما حاول النهوض لم يفلح،
إذ لم تبق في جسده الكليل أية قوة.

قال الشحاذا:

- والآن يا بيل أبق جالساً حيث أنت. فحتى لو لم أكن أرى
لكنتي أسمع ديبب النملة. العمل عمل.

ثم وجّه كلامه إليّ قائلاً:

- أيها الصبي، مديك اليسرى، وخذي بيده اليسرى من المعصم
وقربها من يمناي.

أطعناه كلانا بالحرف، ثم رأيتُه يخرج شيئاً ما من يده التي حملت
العصا، ويضعه في راحة كفّ القبطان، الذي أغلق عليها وداخلها
ذلك الشيء من فوره.

قال الأعمى:

- والآن انتهى الأمر.

ويقوله هذا أفلت قبضته عني، وخرج من الصلاة برشاقة
وخفة عجيبة، كنتُ لا أزال واقفاً بسكون وأسمع من مكاني نقرات
عصاه على الطريق: تب تب تب... حتى تلاشى الصوت بعيداً.

مرّت فترة قبل أن نتمكّن أنا أو القبطان من استجماع شتات
نفسينا، ولكننا تحركنا أخيراً، فقام هو بسحب يده تقريباً في نفس
اللحظة التي حرّرت فيها معصمه الذي كان ما يزال في قبضتي، ثم
نظر بحدّة إلى راحة يده.

وثب على قدميه قائلاً:

- في العاشرة تماماً، إذن أمامي ست ساعات، هذا وقت كافٍ.

لكنه حتى في وثبته كان يترنّح، وضع يده على حلقه، أخذ يتمايل
في وقفته، ثم هوى بكلّ قامته حتى التصق وجهه على الأرض محدثاً
دويّاً غريباً.

هرعت إليه من فوري وأنا أنادي على أمي، ولكن لم يكن
في الإسراع من طائل. لقد أصيب القبطان بسكتة دماغية شديدة
أودت بحياته. لم أكن أحبّ الرجل، رغم أنّني صرّتُ مؤخراً أشفق
عليه، ولكن ما أثار حيرتي أنني حالما رأيته ميتاً انفجرت بالبكاء.
لقد كانت هذه ثاني ميتة أشهدها، فيما لا يزال الأسي يملأ قلبي من
الأولى.

(٤)

المدوق البحري

لم أضيّع وقتاً، بالطبع، وأخبرتُ أمي بكلّ ما أعرفه، وربّما كان يجب عليّ إخبارها من قبل، وهكذا أدرك كلانا الموقف المعقد والخطير الذي وجدنا نفسيينا فيه. من المؤكّد أنّ بعضاً من نقود الرجل - هذا إن كان عنده أية نقود - كان مديناً لنا بها، ولكن ليس من المرجّح أن رفاق القبطان سيميلون إلى التخلّي عن غنيمتهم لسداد ديون الرجل الميت، بالأخص العيّتان اللتان التقيت بهما من قبل، وأعني بهما البلاك دوغ والشحاذ الأعمى. لو أطعتُ أوامر القبطان وركبتُ متوجهاً مباشرة إلى الطيب ليفزي فهذا يعني أنني سأترك أمي وحيدة دون حماية، ولم يكن هذا بأمرٍ مقبول إطلاقاً. وهكذا بدا لكلينا أنه من المستحيل البقاء في المنزل لفترة أطول، كان صوت سقوط الجمر في موقد المطبخ، وحتى صوت دقات الساعة، يملؤنا بالخوف. كان كلّ ما حولنا يبدو إلى مسامعنا وكأنه مسكون بأصوات خطوات أقدام تدنو منّا، وما بين جثة القبطان الممدّدة في الصالة وهواجسي عن ذلك الشحاذ الأعمى الفظيع وهو يحوم

حولنا استعداداً للعودة؛ مرّت عليّ لحظات كاد فيها دمي أن يتجمّد في عروقي هلعاً. توجّب علينا أن نجد حلاً وبسرعة، وخطر لنا أن نلجأ إلى القرية المجاورة لطلب النجدة، لذا لم نضيع وقتاً في الكلام، وانطلقنا فوراً حاسري الرأس فيما المساء الذي كان يقرب، يغشاه ضباب صقيعي.

كانت القرية على بعد بضع مئات من الياردات، ولكنها كانت بعيدة عن الأنظار، على الجانب الآخر من الخليج الثاني، وما شجّعني للّجوء إليها أنها كانت تقع عكس الاتجاه من المكان الذي ظهر فيه الأعمى وعاد إليه. ركضنا لعدة دقائق على الطريق، وكنا نقف بين الحين والحين نحتمي أحدنا بالآخر ونصيخ السمع، ولكن لم يكن ثمة من أصوات غير اعتيادية، لا شيء باستثناء هدير الأمواج الخافت ونعيب أبوام الغاب.

كان الظلام قد حلّ وكانت القناديل مضاءة عندما وصلنا إلى القرية، ولن أنسى بهجتي لمراى الوهج الأصفر يشعّ على الأبواب والنوافذ، ولكنّ كما تبين فيما بعد، كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي تحصّلنا عليه كمساعدة من تلك القرية، إذ لم يتقدّم أي أحد للعودة معنا إلى نزل الأدميرال بينبو - وقد تعتقدون أن الرجال سيشعرون بالعار من ذلك - ولكننا كنا كلّما زدناهم خبراً عن المتاعب التي تواجهها، كانوا في المقابل، رجالاً ونساءً وأطفالاً، يتراجعون متشبّثين بحماية منازلهم. لأن اسم القبطان فلينت بثّ الرعب في قلوبهم، لقد كان معروفاً بينهم رغم أنه كان غريباً على أسماعي. تذكّر بعض من

رجال القرية الذين كانوا يعملون في الحقول على الجانب البعيد من
النزل أنهم كانوا يرون أناساً غرباء ظنّوهم مُهرّبين فازّين، وقال آخر
أنّه كان قد رأى قارب لوغر^(١) في مكان كنا ندعوه كيت هول. ولذا،
فإن إياً من رفاق القبطان كان يرعبهم حدّ الموت. وباختصار، لم
نتمكّن من تحشيد أي رجل من القرية لمساعدتنا في الدفاع عن نزلنا،
إلا أن بعضهم أبدى استعداداً للتوجّه إلى الطبيب ليفزي الذي كان
يسكن في الجانب الآخر.

يُقال إنّ الجُبن مُعدّ، ولكن من ناحية أخرى، فإنّ الحاجة
ترفع من العزيمة، لذا فعندما قال الجميع ما عندهم، طفقت أمّي
تخطب فيهم، وأجهرت قائلة إنّها لن تخسر نقود ولدها يتيم الأب.
قالت:

- إن لم تكن فيكم، ففينا من الشجاعة، أنا وجيم، لنعود من
حيث أتينا. لا شكر لكم أيها الرجال الضخام الشداد،
بقلوب مثل قلوب الدجاج. سنعود، ونفتح ذلك الصندوق،
حتى لو متنا في سبيل ذلك. وشكراً لكِ سيدة كروسلي على
الكيس الذي اعطينا إياه لكي نعيد فيه نقودنا التي من حقنا.

وطبعاً، قلتُ إنني سأذهب مع أمي، وطبعاً صاح الجميع
فينا لتهورنا، ومع ذلك لم يجرؤ أي رجل على مرافقتنا. كلّ ما
فعلوه أنهم منحوني مسدساً مذخراً لاستخدامه في حال تعرضنا
للهجوم، وواعدونا بأنهم سيهيئون لنا جياداً جاهزة للركوب في

(١) Luggar: قارب شراعي صغير بأربعة أشرعة.

حال عودتنا مصابين، فيما توجه شاب إلى الطبيب ليفزي لطلب
النجدة المسلّحة.

كان قلبي ينبض بشدة عندما انطلقنا إلى مغامرتنا الخطيرة في
تلك الليلة الباردة. ومما زاد في إسراعنا أن القمر قد بدأ بالارتفاع،
وبدا محمراً بين حافات الضباب، لذا كان جلياً لنا قبل أن نصل، أنّه
كان سيشتعّ ساطعاً كضوء النهار وستكتشف العيون المراقبة رحيلنا.
لذا اندسنا برشاقة وهدوء بين الأجمات، وما زاد في خوفنا هو أنّنا
لم نسمع في طريقنا أو نرّ أي شيء، إلى أن تنفسنا الصعداء عندما
وصلنا أخيراً وأغلقتنا خلفنا باب نُزل الأدميرال بينبو.

أغلقتُ ترباس الباب فوراً، ووقفنا لاهئين لبرهة في الظلام
برفقة جثة القبطان، ثم تناولت أُمّي شمعة من المشرب، وأوغلنا
في الصالة أكثر ممسكين بيدي بعضنا. كان على الحال الذي تركناه
عليها ممدّداً على ظهره وعيناه مفتوحتان، باسطاً إحدى ذراعيه.

همست أُمّي:

- أغلق الستائر يا جيم، قد يأتون ويروننا من الخارج.

وعندما فعلتُ ما أخبرتني به، قالت:

- والآن علينا أن نخرج مفتاح الصندوق من ذلك، ولكن يا

ويلي، أنّي لنا أن نلمسه!

وبينما كانت تقول تلك الكلمات أخذتُ بالنيشيج.

جثوت على ركبتيّ من فوري، ورأيت على الأرض بالقرب من

يده، ورقة صغيرة مدوّرة سوداء من إحدى جهتيها، ولم يساورني أدنى شك في كون تلك هي الوسمة السوداء، وفيما كنتُ أهمّ بالتقاطها، وجدتُ على الجهة الأخرى رسالة قصيرة مكتوبة بخط واضح ومتقن: «لديك من الوقت إلى الساعة العاشرة من هذه الليلة».

قلتُ:

- أمهلوه وقتاً إلى العاشرة يا أمي.

وفيما كنتُ أقول ذلك، دقت ساعاتنا القديمة، ورغم أن دقائقها أجفلتنا بشكل صادم، إلا أنها كانت بنحو ما تعلن عن خبر جيد، الساعة السادسة.

قالت:

- والآن يا جيم، هات المفتاح.

فتشّنتُ جيوبه واحداً تلو الآخر، ووجدتُ فيها بضع قطع نقدية، كشتباناً، خيوطاً وإبرة كبيرة، صغيرة من التبغ ممضوغة إلى نهايتها^(١)، سكينه ذات المقبض الملتوي، بوصلة جيب، صندوقاً صغيراً لحفظ حجر القداحة لإشعال النار، وكان هذا كلّ ما عثرتُ عليه، فشعرتُ بالإحباط.

اقترحتُ أمي:

- ربّما كان حول عنقه!

(١) pigtail tobacco: صغيرة سوداء مصنوعة من التبغ المنقوع بالروم المعدّ للمضغ أو التدخين.

مزقت القميص من العنق وأنا أصارع شعوري بالغيثان، وإذا بالفتاح معلق في خيط مقير قطعته بسكينه. كنا ممتلئين أملاً بهذا الانتصار فعجلنا بالصعود إلى الطابق العلوي حيث غرفته الصغيرة التي نام فيها طويلاً، وقبع فيها صندوقه منذ اليوم الذي قدم فيه.

لقد كان من الخارج مثله مثل أي صندوق بحري آخر، وكان مختوماً بواسطة قطعة حديد ساخنة بالحرف «ب»، فيما كانت زواياه محطمة ومهشمة كما لو كان ذلك بفعل الاستعمال الطويل العنيف.

قالت أمي:

- ناولني المفتاح.

ورغم أن القفل كان عصبياً إلا أنها بطرفة عين، تمكنت منه، وفتحت غطاء الصندوق.

فاحت بقوة رائحة تبغ وقطرانٍ من داخل الصندوق، لم يكن هنالك من شيء أعلى الكومة باستثناء بزة أنيقة نظيفة ومطوية بعناية، لم تلبس قط من قبل، قالت أمي. ظهرت تحتها مجموعة متنوعة من اللقى: إسطربلاب، وعاء من القصدير للشرب، أعواد تبغ، زوجان من المسدسات الأنيقة، سبيكة فضة، ساعة إسبانية عتيقة، حلّ أجنبية الصنع زهيدة الثمن، بوصلتان نحاسيتان، وخمس أو ست قواقع غرب-هندية غريبات الشكل، ولطالما تساءلتُ في سري حين رأيتهما لماذا كان يحملها معه في حياته الجوّابة والإجرامية والملاحقة.

لم نعثر على أي شيء ذي قيمة ما عدا سبيكة الفضة والحلى، ولم يكن لأي من تلك الأشياء أهمية بالنسبة لنا. وتحت كلّ ذلك كانت

هنالك عباءة بحرية قديمة، مبيضة بفعل ملح البحر في العديد من سدود الموانئ^(١)، جذبتها أُمِّي بتبرم، وإذا بأخر أشياء الصندوق جاثمة هناك، حزمة بدت كمجموعة من الأوراق ملفوفة بمشمع، وكيس من الخيش أصدر ما يمكن أن يكون رنين قطع ذهبية.

قالت أُمِّي:

- ساري أولئك الأوغاد أنني امرأة أمينة. سأخذ مستحقاتي فقط، ولا ربح شلن زيادة. ارفع كيس السيدة كروسلي.

ثم شرعت بحساب ديون القبطان وأخذتها من كيس البحار ووضعتها في الكيس الذي كنتُ أحمله.

كان هذا عملاً طويلاً وصعباً، إذ أنّ العملات كانت من مختلف البلدان والأحجام، كان هنالك دبلنات إسبانية، لويسات فرنسية، جنيحات، وقطع من الثمانية^(٢)، وعملات أخرى كثيرة لم أتبينها، إذ أنها كانت كلّها في كيس واحد مختلطة بعشوائية. كانت الجنيحات هي الأقل عدداً، ولكنّها كانت العملة الوحيدة التي تستطيع أُمِّي أن تعدّها.

فجأة وضعتُ يدي على ذراعها في منتصف مهمّتنا، إذ تناهى إليّ من خلف الضباب الصقيعي الهامد، صوتاً جعل قلبي يقفز إلى

(١) harbour bar: عائق أو ضفة من الملح أو الرمال توضع على الموانئ لكي تثبت السفن وتعيق حركتها.

(٢) Doubloons نقود ذهبية إسبانية. louis-d'ors نقود سكّت في عهد لويس الثالث عشر. Eight عملة معدنية إسبانية مختومة برمز 8R الذي يعني ثمانية ريالات.

حلقي هلعاً، لقد كان صوت نقرات عكّاز الرجل الأعمى على الطريق المتجمدًا. بقينا صامتين حابسي الأنفاس فيما كان الصوت يدنو أقرب فأقرب، حتى خبط بحدّة على باب النزل، ثم سمعنا مقبض الباب يدور، والترباس يقع لأن ذلك المخلوق الحقير كان يحاول الدخول، ومن ثم ساد الصمت لفترة طويلة، داخل وخارج النزل، وأخيراً بدا صوت النقرات يتوارى، ويا لشدة فرحنا وابتهاجنا، عندما أخذ يغور في البعيد تدريجياً حتى انقطع عن سمعينا تماماً.

كنتُ متأكداً من أن الباب المقفل سيبدو مثيراً للشكوك، ولا بدّ من أنه سيدفع بكلّ عش الدبابير للهجوم علينا، ورغم ذلك لا أحد ممن لم يقابل ذلك الرجل الأعمى الفظيع يمكنه أن يعرف كم كنتُ محظوظاً لأنني أقفلت الباب.

لذا قلتُ لأمي:

- أمي، خذي كل شيء ولنذهب.

لكنّ أمي على الرغم من خوفها، لم ترض أن تأخذ كسرة أكثر من حقّها، وفي نفس الوقت غير مستعدّة البتة بالرضى بأقلّ من ذلك.

قالت:

- لم تشارف الساعة على السابعة حتى.

كانت امرأة عنيدة تعرف حقّها وستأخذه، وكانت لا تزال

تتجادل معي عندما سمعنا صوت صافرة ضعیف آتياً من أعلى التلّ،
وكان ذلك الصوت إنذاراً كافياً بل أكثر من كافٍ بالنسبة لنا.

وثبت أمي على قدميها وقالت:

- سأكتفي بها أخذته.

قلتُ وأنا ألتقط حزمة المشمّع:

- أمّا أنا فساخذ هذه الحزمة لتصفية الحساب.

وفي اللحظة التالية كنا نتلمّس طريقنا نحو الأسفل، إذ أننا كنا قد
تركنا الشمعة قرب الصندوق الفارغ، ثم فتحنا الباب ولدنا بالفرار.
كاد الوقت أن يهزمننا، فالضباب كان يتلاشى بسرعة، والقمر كان قد
لاح مشرقاً على الأراضي المرتفعة من الجانبين، ولكن ثمة وشاح من
الظلام ما زال يعانق قاع الوادي وحول النزل، يجب أن فرارنا
الأولى. هكذا إذن، صار لزاماً علينا أن نتقدّم تحت ضوء القمر، ولم
نكن بعد قد وصلنا حتى إلى منتصف الطريق إلى القرية، بعد قاع التلّ
بمسافة قليلة جداً. ولم يكن هذا كل شيء، فقد سمعنا وقع خطوات
راكضة، وعندما نظرنا خلفنا باتجاه الصوت، كان هنالك ضوء
يتأرجح جيئةً وذهاباً يُظهر رجلاً من الوافدين الجدد يحمل فانوساً.

قالت أمي فجأة:

- عزيزي، عليك أن تأخذ المال وتفرّ وحدك، فأنا سيغمى عليّ.

فكرتُ لا بدّ أن تكون هذه هي نهايتنا. وكم لعنتُ أهل القرية
الجبّناء، وكم لمتُ أمي المسكينة على أمانتها وطمعها، وعلى تهوورها

السابق وضعفها الحالي! ولكن من حسن الحظ أننا كنا عند الجسر الصغير، كانت أمي تترنح وساعدتها حتى وصلنا إلى حافة الضفة، عندها تنهدت وانهارت على كتفي. لا أعرف من أين أتيت بالقوة لفعل ذلك، وأخشى أنني كنتُ خشناً بنحو ما، لكنني تمكّنت من جرّها إلى أسفل الضفة حتى داخل القوس قليلاً، وليس أبعد من ذلك، إذ أن الجسر كان في غاية الانخفاض فلا يمكنني إلا الزحف أسفله. وهكذا كان علينا أن نقبع كلانا قاب قوسين أو أدنى من النزل، وأمي مكشوفة للعيان كلياً.

(٥)

نهاية الرجل الأعمى

لأن فضولي، بنحو ما، كان أقوى من خوفي، فلم أبقَ في مكاني وانسللتُ عائداً إلى الضفة، فأنا ما أن أتمكّن من التواري خلف شجيرات البروم، حتى يصير بإمكانني السيطرة على الطريق إلى بابنا. ما أن تموضعتُ بالكاد حتى بدأ أعدائي بالتوافد، كان هنالك سبعة أو ثمانية منهم يجرون خفافاً وأقدامهم تسابق الوقت، وكان الرجل ذو الفانوس يتقدّمهم ببضع خطوات. كان ثمّ ثلاثة رجال يجرون يداً بيد معاً، وتوضّح لي حتى من خلال الضباب، أن الرجل الأوسط بين الثلاثة كان الشحاذ الأعمى، وقد تبيّن من صوته في اللحظة التالية أنني كنتُ محقاً.

صاح:

- حطموا الباب!

فأجاب اثنان أو ثلاثة منهم:

- أي، أي، سيدي!

انقضوا على النزل، وتبعهم حامل الفانوس، ومن ثم رأيتهم يتوقفون، وسمعتهم يتخاطبون بصوت خفيض، كما لو أنهم كانوا متفاجئين لرؤية الباب مفتوح. ولكن وقفتم لم تستمر طويلاً لأن الأعمى أصدر أوامره بصوت أعلى وأعنف، كما لو أنه كان يستشيط غضباً ويشتعل حماسة.

وانصبّ بلعناته عليهم بسبب تباطئهم وطفق يصيح:

- ادخلوا، ادخلوا، ادخلوا!

أطاع أوامره على الفور أربعة أو خمسة منهم، وبقي اثنان منهم على قارعة الطريق مع الشحاذ الهائج، كانت وقفة قصيرة تلتها صرخة مفاجأة، ومن ثم صوت يصيح من داخل المنزل:

- لقد مات بيل!

ولكن الرجل الأعمى راح يصبّ جام غضبه عليهم مرة أخرى بسبب تباطئهم، صاح بهم:

- أيها التافهون المتملصون، فليقم بعضكم بتفتيشه وليتوجه البقية إلى الأعلى لجلب الصندوق.

كان باستطاعتي أن أسمع وقع أقدامهم تحبط على سلالنا العتيقة، ولا بدّ أن المنزل قد ارتجّ إثرها. بعد ذلك بقليل ارتفعت أصوات جديدة من الدهشة، ومن ثم أطيح بنافذة غرفة القبطان بضربة قوية أدت إلى تكسر الزجاج، وظهر منها تحت ضوء القمر رجل مدّ رأسه حتى كتفيه وخاطب الشحاذ الأعمى الواقف على قارعة الطريق تحته.

صاح قائلاً:

- يا بيو، أحدهم سبقنا إلى الصندوق وقلبه رأساً على عقب.

زجر بيو:

- أهي هناك؟

- المال موجود.

لعن الأعمى المال وصاح:

- أعني قبضة فلينت، أهي موجودة؟^(١)

أجاب الرجل:

- ليست هنا.

صاح الأعمى مجدداً:

- أنتم، في الطابق السفلي، أهي مع بيل؟

في تلك اللحظة قدم إلى الباب رجل آخر، ربّما كان قد بقي في

الطابق السفلي لتفتيش جثة القبطان، وقال:

- لقد نهبوا بيل تماماً ولم يبق شيء.

صاح بيو الأعمى:

- لا شك في أنها من فعلة أصحاب التزل، إنه ذلك الصبي،

ليتني اقتلعتُ عينيه! لم يمض وقت طويل عندما جئتُ إلى

(١) Flint's fist: الورقة المكتوبة بخط يد فلينت.

الباب وكان مقفلاً، إذن لا بدّ من أنهما بالقرب، تفرّقا يا
رجال، جدوهما!

قال الرجل في النافذة:

- بالتأكيد، لأنها خلفا الشمعة مشتعلة.

صاح يبو مرّة أخرى وهو يضرب على الأرض بعصاه:

- تفرّقا واعثروا عليهما، اقلبوا النزل!

سُنّت عقب ذلك غارة كبيرة على نزلنا القديم، كانت هنالك
أقدام ثقيلة تسحق جيئة وذهاباً، وأثاث يُطوح به، وأبواب تُركل،
حتى أنّ أحجار النزل نفسها دوّت، عندها عاد الرجال إلى الطريق
واحدًا تلو الآخر معلنين عن فشلهم في إيجادنا. ومن ثم صدح
جلياً في هذا الليل صوت الصفير الذي أُرعبنا أنا وأمي عندما كنّا
نعدّ النقود بالقرب من جثة القبطان، ولكّنه هذه المرة صفرّ لمرتين.
كنتُ أظنّه بوقاً ينفخ فيه الرجل الأعمى لاستدعاء طاقمه للهجوم،
ولكنّني أدركتُ الآن أنّ الصفير كان إشارة تأتي من جهة التلّ قرب
القرية، لتحذير القراصنة من خطر محقق.

قال أحدهم:

- هذا ديرك، يصفرّ مرتين! إذن علينا أن نهرب.

صاح يبو:

- أيها الرعديد، أقلتَ نهرب؟ لطالما كان ديرك أحقماً وجباناً،
لا عليك منه، لا بدّ من كونها قريبتين، ليكن بعلمك أنّهما في

قبضة يدك، لا يمكن أن يتعدا، تفرّقوا وابتحثوا عنهما أيها الكلاب! آه يا لروحي المتفضة، لو كانت عندي عينان!

بدا أن هذه المناشدة كان لها بعض التأثير، إذ اندفع رجلان ولو بفتور همّة كما أحسب، للبحث هنا وهناك وبين الأخشاب، وعيونهم على الخطر المحدق بهم طوال الوقت، فيما وقف البقية في حيرة من أمرهم على الطريق.

- أيها البُلهاء، أنتهاونون فيما النقود بالألوف تنتظر! ستكونون أغنياء كالمملوك فيما لو عثرتم عليها، والأعجب أنكم تعلمون أنها هنا، وما زلتُم قابعين ببلادة في أماكنكم. لم يكن من بينكم من يجرؤ على الوقوف بوجه بيل، سواي، أنا الرجل الأعمى! وها أنا أكاد أخسر فرصتي في الثراء بسببكم! أنا أوشك على أن أكون فقيراً، شحاذاً ذليلاً يستجدي الروم، فيما بإمكانني أن أغوص في أكوام الذهب، لو كنتم ولو بهمة دودة تنخر في الكعك، لكان بمقدوركم العثور عليهما.

قال أحدهم متذمراً:

- على رسلك يا بيو، بين يدينا الدبلونات!

قال آخر:

- ربّما كانوا قد خبأوا منشودك الثمين، اقنع بما حصلنا من الجورجيات^(١)، وكفّ عن العويل!

(١) Georges: لفظة عامية وتعني القطع النقدية. وهي في الأصل قطعة نقدية عليها صورة القديس جورج (جورج النبيل) سكّت في زمن هنري الثامن.

كانت كلمة عويل هي القشة التي قصمت ظهر البعير، لأن بيو استشاط غيضاً من كل تلك الاعتراضات حتى غلبه انفعاله كلياً فصبّ جامّ غضبه عليهم، وأخذ يلوح بعصاه ذات اليمين وذات الشمال فأغلظ بالضرب على بعضهم، وهؤلاء بدورهم لعنوا المجرم الأعمى وهددوه بكلمات مروّعة، وحاولوا أن ينتزعوا العصي من قبضته، ولكن بلا طائل.

كان هذا العراك كإخلاص بالنسبة إلينا، إذ بينما كان يستعر، تنهى صوت آخر من قمة التلّ على جانب القرية، لقد كان صوت حوافر خيلٍ تعدو. وفي نفس الوقت تقريباً انطلق مسدس ظهر وميضه وُسْمِع دويه من جهة الأجمات، وكان ذلك إشارة أخيرة جلية إلى الخطر، فتراجع القراصنة من فورهم لاثنين بالفرار، انفرط جمعهم في شتى الاتجاهات، فواحد من جهة البحر على طول الخليج، وآخر انحدر عن التلّ، وهكذا دواليك، ولم تنفضِ نصف دقيقة حتى اختفى كلّ أثر لهم، ما عدا بيو الذي تخلّوا عنه ولا أعرف إن كان ذلك بسبب هلعهم أم لأنهم أرادوا أن ينتقموا منه لأنّه شتمهم. ها هو هناك، وقد خلفه رفاقه وهو ينادي عليهم وينقر كمسعود بعكازه أعلى وأسفل متلمساً الطريق، وإذا به يتخذ منعطفاً خاطئاً، وكان على بعد بضع خطوات مني عندما اجتازني إلى القرية وهو يصيح:

- جوني، بلاك دوغ، ديرك! لن تتركوا بيو العجوز خلفكم يا رفاق! لا بيو العجوز!

في تلك اللحظة ساد وقع حوافر الخيل، ثم كشف ضوء القمر عن أربعة أو خمسة من الخيالة وهم منطلقون بأقصى سرعة أسفل المنحدر.

وعندها تبدى لبيو خطؤه، فاستدار صائحاً نحو الخندق مباشرة وتدحرج منزوياً فيه، إلا أنه سرعان ما وثب على قدميه وارتكب خطأ آخر وقد صار في غاية الارتباك، وإذا به تحت أقرب الخيول المقبلة، وقد حاول الفارس تجنبه ولكنه لم يفلح، فتردى لبيو تحت الجواد مطلقاً صرخة دوت عالية في الليل، وهكذا سحقته الحوافر الأربعة وأزاحته ثم ابتعدت عنه. سقط على أحد جانبيه ثم انهار بهوادة على وجهه وهمد.

وثبت على قدمي وحييتُ الفرسان الذين كانوا يبطنون مرعوبين من الحادث، وسرعان ما عرفتهم، أحدهم وكان في إثر بقية الخيالة، كان الشاب الذي انطلق من القرية لإخطار الطبيب ليثري، أما البقية فقد كانوا ضباطاً في الضرائب صادفهم في طريقه فدفعته فطنته لأن يعود بصحبتهم. وكان من بين الخيالة المشرف دانس الذي وصلته أخبار عن قارب اللوغر في كيت هول، وكم كنا أنا وأمي مدينين للصدفة التي أتت به في تلك الليلة إلى جهتنا، وحفظتنا من الموت.

بيو كان ميتاً، هامداً كحجر، أما أمي فقد عدنا بها إلى القرية وكان القليل من الماء البارد وبعض الملح كفيلين بإعادتها إلى وعيها، ورغم حالة الرعب التي انتابتها إلا أنها لم تصب بأذى، غير أنها ظلت تلتاع حزناً على نقودها الضائعة.

في هذه الأثناء، اعتلى المشرف صهوة جواده وتوجه على وجه السرعة إلى كيت هول، فيما توجب على رجاله أن يترجلوا لينزلوا أسفل الوادي، تارة يسوقون جيادهم وتارة يسندونها، وهم في خوف لا ينقطع من الكمائن، لذا لم يكن أمراً مفاجئاً أنهم عندما وصلوا متأخرين إلى كيت هول، كان قارب اللوغر قد أبحر في طريقه، رغم أنه لم يكن بعيداً. نادى المشرف دانس على من في القارب فأجابته صوت يجذره من الوقوف في ضوء القمر وإلا فسوف تُطلق النار عليه، وفي نفس الوقت أزت رصاصة قريباً من ذراعه.

وما كاد قارب اللوغر أن يضاعف من سرعته حتى اختفى. ظل السيد دانس واقفاً «كسمكة خارج الماء» كما قال، وكل ما كان بيده فعله هو أن يرسل رجلاً ليحذّر زورق الكاتر الحكومي^(١)، ثم قال:

- حتى هذا سدى، لقد أفلتوا، وتلك خاتمة الحديث.

ثم أضاف بعد أن استمع إلى جانبي من القصة:

- على أنني سعيد لأنني سحقت السيد پيو.

عدتُ معه إلى نزل الأدميرال بينبو، ولكم أن تتخيلوا الخراب الذي كان عليه، لقد حطّم أولئك القوم حتى الساعة في خضم مطاردتهم المحمومة بحثاً عنّا أمي وأنا، وبالرغم من أنهم لم يسرقوا شيئاً ما عدا كيس نقود القبطان وبعض القطع الفضية من درج نقوده،

(١) revenue cutter [cutter]: سفينة سريعة بصارٍ واحد وخمسة أشعة، تحمل حوالي عشرة مدافع.

إلا أنني من فوري أدركت جلياً، أننا قد خرب عملنا وأفلسنا. أما السيد دانس فلم يستوعب المشهد الذي رآه، فقال:

- أخبرتني مسبقاً أنهم قد عثروا على المال، إذن يا هوكينز عم كانوا يبحثون بحق السماء؟ أمزيد من المال؟
أجبتُ:

- لا يا سيدي، ليس المال مطلبهم، في الحقيقة أعتقد أنهم يسعون خلف شيء وضعته في جيب سترتي، ولأخبرك بالحقيقة، أودّ أن أحفظ به في مكان أمين.
قال:

- بالتأكيد أنت على حق يا فتى، يمكنني أن أحفظ به لو رغبت.
قلتُ:

- لقد فكّرت ربما لو كان الطبيب ليفزي..
فقاطعني مشجعاً:

- هذا صحيح، أنت على حق تماماً، الطبيب رجل نبيل وقاضٍ. تبادر إلى ذهني الآن ربّما يتعين عليّ أن أركب بنفسي إليه وأبلّغه هو أو الملاك، بأن السيد بيو قد مات، فبعد كل شيء لستُ نادماً على موته، لكن وكما تعلم لو كان الأمر منوطاً بيد العامة من الناس لوقفوا ضد ضابط من أتباع جلالة الملك. والآن، دعني أخبرك يا هوكنز، يمكنني اصطحابك لو رغبت.

شكرته من أعماق قلبي على عرضه ومشينا عائدين إلى حيث
كانت الجياد في القرية، وفي الوقت الذي كنتُ فيه أخبر أُمِّي عن
مسعاي، كانوا جميعاً على صهوات جيادهم.

قال السيد دانس:

- لديك جواد جيد يا دوجر، ألحق هذا الفتى خلفك.

وحالما امتطيت صهوة الجواد وتشبثت بحزام دوجر، وبكلمة
من المشرف، انطلقت جياد الجمع خيلاً على الطريق المؤدي إلى منزل
الطبيب ليفزي.

(٦)

أوراق القبطان

انطلقنا بسرعة على طول الطريق حتى وصلنا إلى باب الطيب ليثزي، كانت واجهة المنزل معتمة كلياً. أشار عليّ السيد دانس أن أترجل عن صهوة الجواد وأطرق الباب، فقدم إليّ دوجر أحد ركابي السرج لأنزل بواسطته، وبعد أن طرقت الباب فتحتة خادمة في الحال.

سألتُ:

- هل الطيب ليثزي في الداخل؟

قالت:

- كلا، لقد عاد إلى المنزل عصرًا لكنّه عاد إلى قصر الملاك ليتعشى ويمضي أمسيته معه.

قال السيد دانس:

- إذن فلنذهب إليه يا رجال.

لكنني هذه المرة ولقصر المسافة لم أركب على الجواد بل عدوتُ

بمحاذاة دوجر من بوابات منزل الطبيب ثم على طوال الطريق الطويل القمر المقفر المفضي إلى حيث يمتدّ صفّ أبيض من مرافق القصر على جانبي حدائق قديمة غنّاء. وهنا ترّجل السيد دانس من على صهوة جواده واصطحبني معه، وأدخِلنا إلى المبنى حالاً.

قادنا الخادم إلى ممرّ متعرج انتهى إلى مكتبة عظيمة اصطفت على رفوفها أكوام من الكتب تعلوها تماثيل نصفية، هنالك كان الملاك والطبيب ليفزي يجلسان متقابلين حول نار المدفأة، وفي يد كل منهما غليون.

لم يسبق لي من قبل رؤية الملاك عن كثب، لقد كان رجلاً طويلاً ترتفع قامته على الستة أقدام، مكتنزاً، له وجه مختال ذو ملامح قاسية محمّرة ومجعدّة من أثر ترحاله الطويل، كان حاجباه الكثيفان حالكا السواد يتحركان بسرعة، ممّا أضفى على هيأته طبيعة لا نقول إنها طائشة أو سيئة، وإنّما حادّة وانفعالية.

قال بطريقة متعالية ومهيبة:

- تعال يا سيد دانس.

وقال الطبيب ليفزي مع إيحاءة:

- طاب مساؤك سيد دانس، وطاب مساؤك صديقي جيم، أية

رياح طيبة تلك التي دفعت بكما إلى هنا؟

نهض المشرف باستقامة وصلابة ليروي قصته كما لو كانت درساً، وليتكم رأيتم السيدين الآخرين وهم يميلان إلى الأمام

ويطالغان بعضهما البعض، حتى أنّهما نسيا أن يدخنا غليونيهما لشدة دهشتها وذهولهما. وعندما سمعا كيف عادت أمي إلى التزل للدفاع عنه، ضرب الطيب على فخذه إعجاباً بما فعلته، وصاح الملاك «برافو!»، ثم نفّض رماد غليونه الطويل على الموقد. وقبل أن ينتهي المشرف من قصته كان السيد تريلاوني - وهذا هو اسم الملاك الذي ستتذكرونه به من الآن فصاعداً - قد نهض من على مقعده وظلّ يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً، أمّا الطيب فقد نزع باروكته وكأنه يريد أن يسمع بشكل أفضل، ثم ظلّ قابلاً في مكانه وهو يبدو بهيأة غريبة بذلك الشعر الأسود المجزوز حديثاً.

وأخيراً انتهى السيد دانس من القصة، فقال الملاك:

- أنت رجل نبيل بحق يا سيد دانس، أمّا فيما يخص مسألة كونك قد سحقت على ذلك الرجل الوضع المجرم، فإنني أعتبرها فضيلة يا سيدي، كما لو أنّك تسحق صرصوراً. أمّا عن هوكينز فهو فتى طيب كما فهمت. هلا قرعت ذلك الجرس يا هوكينز؟ يجب أن يشرب السيد دانس بعضاً من شراب البيرة.

قال الطيب:

- إذن يا جيم، بحوزتك الشيء الذي كانوا يسعون خلفه،
أليس كذلك؟

ناولته رزمة المشمّع وقلتُ:

- هو ذا.

طالع الطيب الرزمة ومرّر عليها أصابعه التي بدت كما لو كانت توّاقة لتفتحها، وبدلاً من أن يفعل ذلك، دسّ الرزمة بهدوء في جيب معطفه.

قال:

- سيد تريلاوني أرى أنّه يجب على السيد دانس العودة إلى خدمة صاحب الجلالة بعد أن يكمل شرابه، ولكنّي أنوي أن أبقى على جيم هوكينز لينام في منزلي، وأقترح من بعد إذنك أن نقدّم له فطيرة باردة وبعض الشراب ليأخذ منه رشفة.

قال الملاك:

- كما تشاء ليفزي، وأعتقد أنّ هوكينز يستحقّ أكثر من فطيرة باردة.

وهكذا جيء بفطيرة حمام كبيرة وضعت على طاولة جانبية، وكانت بالنسبة لي عشاء شهياً هائناً، إذ أنّني كنتُ جائعاً كصقر، أمّا السيد دانس فقد انصرف بعد أن تلقّى المزيد من الشاء.

قال الطيب:

- والآن يا سيادة الملاك تريلاوني.

وقال الطيب في نفس اللحظة:

- والآن يا ليفزي.

ضحك الطيب قائلاً:

- كل واحد في وقته، كل واحد في وقته. أفترض أنه سبق لك
وسمعت عن فلينت هذا، أليس كذلك؟

صاح الملاك:

- أتقول سمعتُ عنه! بل قل أمن شيء لا أعرفه عنه؟ لقد
كان أكثر القراصنة المتعطشين للدماء في البحر. حتى ليبدو
أن بلاك بيرد^(١) مجرد صبي أمام فلينت، كان الإسبانيون
في خوف عظيم منه، لدرجة أنني - وسأترك بهذا - كنتُ
فخوراً أحياناً لكون فلينت رجلاً انجليزياً. لقد شهدته يرفع
شرع سفينته مبحراً قبالة سواحل جزيرة ترينيداد، ورأيتُ
ابن برمبل الروم الذي كنتُ أبحر معه وهو يتراجع خائفاً،
يا سيدي، يتراجع إلى الميناء الإسباني^(٢).

قال الطيب:

- وأنا بدوري كنتُ قد سمعتُ عنه في إنجلترا، والسؤال هنا،
هل كان يمتلك مالاً؟

(١) بلاك بيرد: يعني اللحية السوداء، وهو لقب أطلق على القرصان إدوارد ثاتش (توفي ١٧١٨) ويوصف في كتب القراصنة بالنحو التالي: كانت لحيته سوداء طويلة وعريضة وممتدة إلى عينيه وكان يلفها في صفائر ويضعها خلف أذنيه، يحكى أنه مرة أطلق النار من مسدسه بصورة عشوائية على طاقمه وأصاب مساعده على أساس أنه إن لم يقتل واحداً منهم بين الحين والآخر فسوف ينسون مكانته، وفي حكاية أخرى قيل إنه حبس طاقمه أسفل السفينة ثم أشعل النار فيهم ليرى من منهم سيبقى على قيد الحياة لفترة أطول.

(٢) Port of Spain: عاصمة ما يعرف الآن بترينيداد وتوباغو.

صاح الملاك:

- أو ما زلت تسأل بعد أن سمعت القصة، ما أن كان المال هو مطلب هؤلاء المجرمون؟ وما عساه غير المال الذي يهتمهم ويخاطرون بأرواحهم السافلة لأجله؟

أجاب الطبيب:

- هذا ما سنعرفه قريباً، لكنك تصرخ وتستثيط غضباً فما عاد بإمكانني أن أقول ولا حتى كلمة. اسمع، فرضاً لو أن في جيبي دليلاً إلى المكان الذي دفن فيه فلينت كنزه، فما أريد أن أعرفه هو هل إن هذا الكنز يساوي الكثير؟

صاح الملاك:

- أقلتَ هل يساوي الكثير؟ دعني أخبرك يا سيدي، لو كان بحوزتنا الدليل الذي ذكرته، فسيبلغ بي الأمر أن أجهز في الحال سفينة من بريستول وأصحبك وجيم معي، وسأعود ومعني الكنز حتى لو كلفني البحث عنه سنة.

قال الطبيب:

- حسناً إذن، سنفتح الرزمة لو كان جيم موافقاً.

ثم بسط الرزمة أمامه على الطاولة. لقد كانت مخاطة بإحكام، لذا كان على الطبيب أن يأتي بحقيبة أدواته الطبية ويقطع الدرزات بواسطة مقصّه الطبي. وعندما فتحها كان تحتوي على شيئين: كتاب وورقة مختومة بالشمع ومغلقة.

قال الطيب:

- علينا أن نتفحص الكتاب أولاً.

أوعز إليّ الطيب ليفزي بلطف لأترك الطاولة الجانية حيث كنتُ أتناول طعامي، وأقرب لأحظى بمتعة الاكتشاف، هكذا كنا كلانا وأنا والملاك نحدّق من فوق كتف الطيب فيما كان يفتح الكتاب. كانت هنالك خربشات على الصفحة الأولى بدت كما لو أنّها كُتبت بخط رجلٍ إمّا ليتمرّن على الكتابة أو ليبدّد وقت فراغه. إحدى هذه الخربشات كانت هي ذات العبارة الموشومة على ذراع القبطان «حلم ببلي بونز»، ثم كانت هناك عبارات أخرى من قبيل: «نائب القبطان السيد و. بونز»، و«لا مزيد من الروم»، و«لقد حصل عليه في جزيرة بالم كي»، وبضع كلمات أكثرها مفردة ومبعثرة ومبهمة. لم يكن في وسعي إلا أن أتساءل: من الذي «حصل عليه» وما ذلك الذي «حصل عليه»، أيكون طعنة غدر في ظهره؟ من يدري.

قال الطيب ليفزي وهو يقلّب أوراق الكتاب:

- ليس ثمة من توجيهات هنا.

امتلأت الصفحات العشرة أو الاثنتي عشرة التالية بسلسلة من التدوينات الغربية التي تشبه إدخالات الدفاتر الحسابية الاعتيادية، يدوّن التاريخ في إحدى نهايتي السطر، وفي نهايته الأخرى يدوّن المبلغ، ولكن بدلاً من وجود شروحات كان يوجد عدد من علامات الـ (X) بين النهايتين، على سبيل المثال: «مبلغ من المال وقدره سبعون پاوند استحق التسديد في الثاني عشر من يونيو ١٧٤٥» ولم يكن ثمة

من أي شيء آخر سوى ست علامات أكس تصل بين النهائيتين.
وفي بعض التدوينات الأخرى كان يضاف اسم المكان مثل (خارج
كاركاس)، أو أحياناً مجرد أرقام خطوط طول وعرض مثل: ٦٢°
(١٧ / ١٩°٤٢)

وهكذا يستمر التدوين في السجل على مدى عشرين سنة أو
أكثر، وبمرور الوقت كان حجم الإدخالات النقدية يرتفع، في
النهاية وبعد ست أو سبع إضافات خاطئة، وُضع المبلغ الإجمالي
مذيلاً بالكلمات التالية: «كومة بونز».

قال الطبيب ليفزي:

- لستُ أتبيّن الرأس من الذيل لهذا اللغز.

صاح الملاك:

- الأمر واضح كالشمس، هذا هو دفتر حسابات ذلك الكلب
ذي القلب الأسود، هذه الأكسات تدلّ على أسماء السفن أو
البلدات التي أغرقت أو نُهبِت. المبالغ المسجّلة هي حصة
ذلك الوغد، ولخوفه من حدوث التباس يربكه، كان يضيف
كلمات دلالة مثل «خارج كراكاس»، وكما ترى فقد كانت
هنالك سفينة منحوسة أبحرت من ذلك الساحل. فليكن
الرب مع الأرواح التي كانت على متن تلك السفينة التي
صارت شعاباً مرجانية منذ أمد بعيد.

قال الطبيب:

- هكذا إذن، الآن فهمت، الآن تتجلى أمامي منفعة كون المرء
رحالة! نعم أنت محقّ، وكما ترى كانت المبالغ تزداد كلما
ارتفعت رتبته.

لم يذكر أي شيء آخر ما عدا بعض المواقع المذكورة في الصفحات
الأخيرة الخالية قرب نهاية المجلّد وهناك جدول لتحويل العملات
الفرنسية والانجليزية والإسبانية إلى القيمة المتداولة.

صاح الطيب:

- إنه رجل لبيب، لا يسهل على أحد خداعه.

صاح الطيب:

- والآن، علينا بالشيء الآخر.

كانت الورقة مغلقة بختم شمعي بواسطة كشتبان، وربّما كان
هو نفسه ذاك الذي وجدته في جيب القبطان. فتح الطيب الختم
برفق، وإذا بخريطة جزيرة تسقط، كان فيها كل الإحداثيات
من خطوط طول وعرض، وقياسات أغوار المياه، وأسماء تلال
وخلجان ومداخل، وكلّ ما يلزم للإبحار بسفينة وصولاً إلى مرسى
آمن على سواحل تلك الجزيرة. تمتدّ الجزيرة حوالي تسعة أميال طولاً
وخمسة عرضاً، ويمكن القول إنها على هيئة تين سمين منتصب،
وكان فيها ميناءان ساحران مغلقان، وتلة في منتصفها معلّم باسم
(سپاي غلاس)^(١). كان هنالك عدة إضافات دوّنت في وقت

(١) Spy-glass: ناظور تلسكوبي (دوربيل).

لاحق، وكان أهمها ثلاثة صلبان مرسومة بالحبر الأحمر، منها اثنان في الجزء الشمالي من الجزيرة، والأخير في الجنوب الغربي، وكانت إلى جانب العلامة الأخيرة كلمات مكتوبة بنفس الحبر الأحمر ولكن بخط يد دقيق وأنيق ومختلف تماماً عن حروف القبطان المرتعشة، تلكم الكلمات كانت:

«كمية ضخمة من الكنز تقع هنا».

في الخلفية كتبت نفس اليد هذه المعلومات الإضافية:

«شجرة طويلة، على كتف السپاي غلاس، في النقطة: الشمال، من شمال. شمال. شرق».

«جزيرة الهيكل العظيم، شرق. جنوب. شرق، من الشرق. عشر أقدام».

«سبائك الفضة في المخبأ الشمالي. يمكنك أن تجدها باتجاه الرابية الشرقية، على عمق عشرة قامات^(١) جنوب الصخرة السوداء ذات الوجه».

«من المتيسر العثور على الأسلحة: في التلّ الرملي، في الاتجاه شمالاً من اللسان الشمالي الممتد إلى المدخل، عند النقطة شرق وربع شمال».

ج. ف.

(١) Fathom: الغور، السبر، القامة وحدة لقياس العمق، وهي تساوي ستة أقدام.

كان هذا كلّ ما هو مدوّن على الخريطة، على أنه بالرغم من
إيجازه واعتقادي بإبهامه، إلا أنه قد أبهج الملاك والطبيب ليفزي أيها
بهجة.

قال الملاك:

- عليك أن تعتزل مهنتك البائسة في الحال يا ليفزي، لأنني
غداً سأتوجه إلى بريستول. وفي غضون ثلاثة أسابيع، أثلاثة
أسابيع! لا، بلّ أسبوعين! لا، بل عشرة أيام فحسب، سأختير
أفضل سفينة وأفضل طاقم في إنجلترا يا سيدي. هو كينز
سيصبح صبي مقصورة، نعم يا هو كينز ستكون أشهر صبي
مقصورة. وأنت يا ليفزي ستكون طبيب السفينة، أمّا أنا
فأدميرال. سنأخذ معنا ريدروث وجويس وهانتر. ستجري
الرياح كما تشتهي سفينتنا، وسيكون إبحارنا سريعاً، وسنعثر
على الكنز بسهولة، وعندها سيكون لدينا مال لنأكل منه،
ونعوم فيه، ونبدّده عبثاً إلى الأبد.

قال الطبيب:

- سأرافقك يا تريلاوني، وستكفل أنا وجيم بنجاح الخطة،
ولكن ثمة رجل واحد أخشاه!

صاح الملاك:

- ومن يكون هذا؟ ما اسم هذا الكلب يا سيدي؟

أجاب الطبيب:

- إنه أنت، إذ أنك لا تستطيع لحم لسانك. لسنا وحدنا من نعلّم بأمر هذه الورقة، فهناك أيضاً أولئك الذين هاجموا النزل هذه الليلة بجرأة واستقتال، ومن لبثوا على متن قارب اللوغر، وغيرهم الكثيرين ممن أجزؤ على قول أنهم قرييون، يربطهم زمراً وفرادى، أيا كانت صفاتهم؛ مسعى وحيد هو الظفر بذلك المال. لذا يجب علينا ألا نتحرك كلاً على هواه، لغاية أن نبحر. في غضون ذلك سنبقى أنا وجيم متلازمين، بينما ستذهب أنت وجويس وهانتر إلى بريستول. وعلينا جميعاً، ألا ننس بكلمة بشأن ما وجدناه من بداية الأمر إلى نهايته.

أجاب الملاك:

- أنت على صواب دائماً يا ليفزي. سألتزم صمت القبور!

الجزء الثاني

طبّاخ السفينة

(٧)

ذهابي إلى بريستول

لقد مضى وقت أطول من الذي قدره الملاك قبل أن نتجهز للبحر، ولم تمضِ أيّ من خططنا على الوجه الذي أردناه، ولا حتى خطة بقائي مع الطبيب ليفزي، فقد كان عليه المغادرة إلى لندن لأن على الطبيب أن يتولّى مسؤولية مرضاه، وكان على الملاك أن يذهب إلى بريستول ليكمل مهمته، وأنا بقيتُ في القصر تحت رعاية حارس طرائد لعبة الصيد العجوز ريدروث، كما لو كنتُ أسيراً عنده، مأخوذاً بأحلام البحر ومسحوراً بتصوراتي عن الجزر والمغامرات الغريبة. لقد تمعنت في الخريطة لساعات، وحفظت تفاصيلها مذاك إلى اليوم. كنتُ أجلس إلى جانب المدفأة في غرفة خادم المنزل، وقد أوغلت خيالي في الجزيرة من كل اتجاه ممكن، واستكشفت كل فدان من أرضها، وتسَلّقت آلاف المرات ذلك التل الطويل الذي يسمونه السپاي غلاس، ومن قمّته تمتعت برؤية الآفاق الخلابة والمتغيرة. وكنتُ حيناً أرى الجزيرة ممتلئة بالهمجين الذين قاتلناهم، وحيناً أراها ممتلئة بالحيوانات الضارية التي تطاردنا، ولكن في كلّ خيالاتي لم يحدث شيء أغرب ولا أفجع مما حدث فعلاً في مغامرتنا الحقيقية.

وهكذا مرّت الأسابيع، حتى وصلتنا في يوم رسالة معنونة إلى الطبيب ليفزي وعليها هذه الملاحظة: «في حال غياب الطبيب ليفزي، يفَضُّ الرسالة أما توم ريدروث أو الفتى هوكينز». وجدنا نفسينا أو بالأحرى وجدتُ نفسي أطيع الأمر وأفَضُّ الرسالة، إذ أن العجوز ريدروث كان ضعيفاً في قراءة أي شيء مكتوب إلا المطبوع، وإذا بها هذه الأخبار المهمة التالية:

نُزل المرساة القديمة، بريستول، ١ مارس، سنة -- ١٧

عزيزي ليفزي، ليس لي علم ما إذا كنت في القصر أم ما زلت في لندن، لذا ها أنا ذا أرسل إلى كلا المكانين رسالة. لقد اشتريتُ السفينة وتم إعدادها. إنها راسية على المرفأ تترقب البحر. لا يمكنك أن تتخيل سفينة أسلس منها، حتى أن طفلاً بإمكانه أن يقودها. إنها تزن مائتي طنّ واسمها هيسبانيولا. حصلت عليها بواسطة من صديقي القديم بلاندي، الذي أثبت لي، ويا للمفاجأة، أنه خير عون. فقد سحّر هذا الرفيق العجيب نفسه لخدمتي، ويمكنني القول إن جميع من في بريستول كانوا مثله. وما أن تهبّ رياح مواتية على المرفأ، حتى يكون لنا أن نبجر نحو الكنز.

قطعتُ قراءة الرسالة وقلتُ لريدروث:

- لقد أذاع الملاك أمرنا، لن يطيب ذلك لأسماع الطبيب ليفزي.

زجر العجوز:

- حسناً، من هو الأصوب بينهما؟ اعتقد أنه سيكون عجباً ومؤسفاً لو لم يتكلّم الملاك والتزم بأوامر الطبيب ليفزي!

وهنا تخلّيت عن كلّ محاولة للشرح والتعليق وأكملت القراءة
دون توقف:

وجد بلاندي بنفسه سفينة الهيسبانيولا، وتدبر بإدهاش أن
يحصل عليها مقابل مبلغ تافه. هنالك فئة من الرجال في بريستول
منحازون بوحشية ضد بلاندي، حتى أنهم يقولون إنّ هذا الإنسان
الأمين قد يفعل أي شيء مقابل المال، وإنّ الهيسبانيولا تعود له، وإنّه
باعها لي بمقابل مالي مبالغ به حدّ السخف، وهذا افتراء جليّ! على
أن لا أحد منهم تجرأ على أن ينكر ميزات السفينة. ليس ثمة من
عقبات إلى حدّ الآن. العمّال سواء كانوا مجهّزي سفينة أم غيرهم،
كانوا بطيئين حدّ الإزعاج، ولكن الزمن تكفّل بحلّ الأمر. بيد
أن اختيار طاقم السفينة هو ما كان معضلة بالنسبة لي، إذ رغبت
بالحصول على طاقم متكامل من عشرين رجلاً تحسّباً من مصادفتنا
سكاناً أصليين أو قراصنة أو فرنسيين بغضاء، وكنتُ لأقبل ولو بستة
رجال بسبب تعسّر أمري، إلا أن الحظ ضرب ضربته الاستثنائية
في صالحني وجاءني بالرجل المنشود. كنتُ أقف على رصيف الميناء
وبالصدفة المحضة تحدثت معه، لقد عرج إلى المرفأ في ذلك الصباح
ليشمّ رائحة ملح البحر كما قال، وعرفت أنه بحّار قديم كان يدير
حانة وهو خبير بكلّ بحارة بريستول، وقد اعتلّت صحته بسبب
مكوّته الطويل في البرّ فأراد لنفسه مأوى في سفينة ليستعيد عافيته،
حتى لو يعمل بصفة طبّاخ على متنها، طالما أنّه سيعود إلى البحر.
لقد أشفقت عليه للغاية ولو كنت أنت مكاني لكنت أشفقت عليه
مثلي، فعينته في وظيفة طبّاخ السفينة بداعٍ من الرأفة الخالصة. إنه

يدعى جون سيلفر الطويل، وهو فاقدٌ لإحدى ساقيه، ولكنني أحسبها تزكيةً لأنه فقدوها في خدمة الوطن تحت إمرة هوك خالد الذكر^(١)، ومع ذلك لم يكن لديه معاش تقاعديّ، فتأمل يا ليثزي الزمن اللعين الذي نعيش فيه!

حسناً يا سيدي، لقد حسبتُ أنني عثرت فقط على طبّاخ للسفينة، لكنّ ما عثرتُ عليه حقاً كان طاقماً للسفينة. فما بيني وبين سيلفر عثرتنا معاً على مجموعة من أعتى البحّارة المحنّكين الذين لا يمكن تصوّرهم، وقد لا يستسيغ الرائي منظرهم لكنّ وجوههم كانت تشي بسياء أرواح شديدة لا تُقهر، وأقول قولي هذا: سيكون لنا أن نقاتل فرقاطة حربية لو كانوا معنا. وقد خلّصني جون سيلفر من اثنين من الستة الذين كنتُ قد تورّطت معهم، فقد بيّن لي وفي غضون لحظة، أنهم كانوا من نوعية البحّارة الأغرار الخرقاء من الذين يجب الحذر من رفقتهم في مغامرة بهذه الأهمية.

أنا في تمام العافية الصحية والروحية، أكل مثل ثور وأنام كشجرة، لكنني مع ذلك لن تطيب لي ولا لحظة حتى أسمع وقع خطوات أولئك البحّارة القدماء^(٢) حول قضبان الرحوية. إلى البحر، يا رفاق! دعكم من الكنز! إنّه البحر وقد سقاني من مجده حدّ الثمالة.

(١) The immortal Hawke: إدوارد هوك (١٧٠٥-١٧٨١) اللورد الأول للأدميرالية البريطانية ١٧٦٦-٧١، معروف بنصره على الأسطول الفرنسي في معركة خليج كويرون.

(٢) Tarpaulins: قماش مشمع لحماية السفينة ومعدّاتها، ثم صارت تصنع منه ملابس البحّارة، ومن ذلك اشتقت مفردة (tars) وتعني البحّارة.

والآن، يا ليفزي، عجل بالقدوم، وإن كنتَ تكنّ لي الاحترام فلا تضيع ساعة. دع الفتى هوكينز يذهب في الحال لرؤية أمه، وليأخذ معه ريدروث كحارس، وليأتِ كلاكما بأقصى سرعة إلى بريستول.

جون تريلاوني

ملاحظة: فاتني أن أخبرك أن بلاندي سيقوم بإرسال سفينة في إثرنا إن نحن لم نعد بحلول نهاية أغسطس، وبالمناسبة، فقد حصل لنا على ضابط ملاحه هو رجل مثير للإعجاب، إلا أنه ويؤسفني قول ذلك، مُتعتت وملتزمت، على أنه صيد ثمين من كلّ النواحي الأخرى. جون سيلفر الطويل نَقب وعثر لنا على رجل كفوء كوكيل قبطان اسمه آرو، وعندني عريف بحارة يملك بوقاً لاستدعاء رجاله، لذا كما ترى يا ليفزي، فإن الهيسبانيولا العزيزة، ستمضي في نظام من نوعية أنظمة السفن الحربية.

ملاحظة: نسيت أن أخبرك أن سيلفر رجل ذو مال، أخبرتني مصادري أنه يملك حساباً مصرفياً لم يُستنفد ولا مرة. وقد ترك زوجته لتدير الحانة، ولأنتها امرأة ملوّنة فإن عازبين عتيقين من مثلنا، أنت وأنا، سيُعذران في ظنهما أن الزوجة أيضاً، لا اعتلال الصحة فحسب، من دفع بسيلفر إلى العودة لحياة الترحال في البحر.

ج.ت.

ملاحظة إضافية: يُسمح لهوكينز إمضاء ليلة واحدة مع أمه.

ج.ت.

ولكم أن تتخيلوا الإثارة التي منحنتها تلکم الرسالة. كنت في غاية البهجة، على أنني لم أحتقر رجلاً على الإطلاق بقدر احتقاري للعجوز ريدروث، الذي ما كان يحسن سوى التذمر والنواح، كان سيتهج لو كان في مكانه أي من حراس الصيد الأقل مرتبة منه، ولكن هذه لن تكون رغبة الملاك، ورغباته كالقانون الذي يسري على الجميع، لا أحد سوى ريدروث العجوز كان سيجرؤ على التذمر.

مشينا أنا وهو في صباح اليوم التالي إلى نزل الأدميرال بينبو، فوجدت أمي في صحّة جيدة وهمة عالية، لأن القبطان الذي كان باعثاً للضيق لفترة طويلة، كان قد رحل إلى حيث يكفّ فيه الأشرار عن بثّ شرورهم. أشرف الملاك على ترميم النزل: فقد أعيد طلاء الغرف واللافتة، وأضيفت بعض قطع الأثاث، من بينها كرسيّ جميل لأمي في المشرب. وقد عثر لها على صبيّ مبتدئ ليساعدها كي لا تُضطرّ لطلب المساعدة أثناء غيابي.

لقد فهمت موقفي لأول مرة عندما وقع نظري على ذلك الصبي، إذ كنتُ أفكّر بالمغامرة التي أمامي ولم أفكّر قطّ في المنزل الذي كنت سأتركه خلفي. والآن سألت الدموع مني مدراراً عندما أبصرت ذلك الصبي الغريب الأخرق الذي كان سيبقى إلى جانب أمي بدلاً عني. أخشى أنني قد قدتُ هذا الصبي ليعيش حياة الشقاء كالكلب، لأنه كان جديداً على العمل، وكانت أمامي مئات الفرص لإرشاده وتدريبه، وسرعان ما عاد جهدي عليّ بالفائدة.

مرّت الليلة وفي اليوم التالي بعد العشاء، كنّا أنا وريدروث

على الطريق. ودّعت أمي والخليج الذي ولدتُ وترعرعتُ فيه،
ونُزل الأدميرال بينبو الذي مذ أعيد طلاؤه لم يعد عزيزاً عليّ. آخر
ما راودتني من الأفكار كانت عن القبطان، الذي لظالما تجوّل على
الساحل بقبعته المتدلية وبندبة وجتته وناظوره النحاسي القديم. في
اللحظة التالية انعطفنا وغاب منزلي عن ناظري.

أقلّتنا عربة البريد عند محطة الرويال جورج في العراء عند
الغسق. كنت محشوراً بين ريدروث ورجل بدين عجوز، وبالرغم
من الحركة السريعة وهواء الليل البارد، إلا أنّني نمْتُ لوقت طويل
منذ البداية، فغفوتُ عميقاً طوال الطريق أعلى التل أو أسفل الوادي
ومن محطة عربات إلى أخرى، حتى أيقظتني أخيراً الكمة في أضلاعي،
وعندما فتحتُ عينيّ وجدتُ أنّنا كنا نقف أمام مبنى كبير في شارع
بمدينة، وأنّ النهار كان قد انبجح بنوره منذ وقت طويل.

سالتُ:

- أين نحن؟

أجاب توم:

- في بريستول! انزل.

كان السيد تريلاوني قد اتخذ مأوى له في نُزل بعيد عن الميناء
لكي يشرف على العمل في تجهيز السفينة، لذا كان علينا أن نمشي.
ويا لبهجتني حين اكتشفت أنّ طريقنا كان يمتدّ على طول أرصفة
الميناء، وإلى جانب عدد كبير من السفن مختلفة الأحجام والأبدان

والجنسيات. في إحداها كان الرجال يغتوّن أثناء عملهم، وفي أخرى كان الرجال في الأعلى معلّقين فوق رأسي بخيوط بدت أرقّ من خيوط العنكبوت. ورغم أنّي عشتُ طوال حياتي قرب الشاطئ إلاّ أنّه بدا لي أنّي لم أكن قرب البحر يوماً، حتى الآن. بدت رائحة القطران والملح جديدة عليّ. ورأيتُ أروع التماثيل الخشبية المنحوتة على حيازم السفن التي طالما أبحرت في المحيط. ورأيت في ما رأيتُ بحارة قدامى بأقراط في آذانهم وعقصات في شواربهم وقطران مدهون في ظفائرهم، وهم يمشون متمايلين مشيتهم البحرية المترنحة^(١)، وأحسب أنّي لن أحظى يوماً بسعادة مثل تلك، حتى لو رأيتُ ملوكاً وأساقفة بعدد البحارة الذين رأيتهم وقتها.

ها أنا مقبل على البحر بنفسي في سفينة شراعية مع عريف ملاحين بيوق وبحارة مغنّين بظفائر. في لجة البحر سأكون، مبحراً إلى جزيرة مجهولة للبحث عن كنز مدفون! كنتُ لا أزال في خضمّ حلمي المبهج هذا عندما وصلنا فجأة إلى نُزل كبير وقابلنا الملاك تريلاوني، الذي كان يرتدي معطفاً سميكاً أزرق كملابس ضباط البحرية، خرج من الباب بابتسامة تعلو وجهه، وهو يترنّح في مشيته مقلداً بإتقان مشية البحارة.

صاح:

(١) sea-walk: نوع من مشية مترنحة غير متوازنة بسبب من أن البحارة يمضون وقتاً طويلاً على البحر ولا يستعيدون مشيتهم البرية الاعتيادية إلا بعد مضي وقت من نزولهم إلى اليابسة.

- ها أنتما! لقد قدم الطبيب البارحة من لندن. وها قد اكتملت
عصبة السفينة، براقوا!
صحّت:

- أوه، ومتى سنبحر يا سيدي؟
- متى سنبحر؟ سنبحر غداً!

(٨)

عند لافتة السبائي غلاس

عندما انتهيتُ من تناول فطوري أعطاني الملاك رسالة موجّهة إلى جون سيلفر عند حانة السبائي غلاس، وأخبرني بأنه سيكون من السهل العثور على المكان لو مشيتُ بمحاذاة أرصفة الميناء وصولاً إلى حانة عليها لافتة تحمل رسمة ناظور تلسكوبيّ. انطلقتُ ممتلئاً حبوراً لفرصة رؤية المزيد والمزيد من السفن والبحّارة، واخترت لي طريقاً وسط حشد كبير من الناس والعربات وأكداس البضائع، لأن رصيف الميناء كان في هذا الوقت في أوج نشاطه، حتى وجدت الحانة التي أنشدها.

لقد كانت مكاناً صغيراً مبهجاً للتسلية واللهو، كانت اللافتة حديثة الطلاء، وستائر النوافذ حمراً أنيقة، والأرضية نظيفة رملية. وكان لها مدخلان على جهتيها، كلّ باب مدخل يفضي إلى شارع، مما جعل من الغرفة الواسعة المنخفضة أن تبدو جليّة للعيان من الخارج، رغم سحب دخان التبغ الكثيفة.

كان أغلب رواد الحانة من البحّارة الذين كانوا يثيرون الصخب

والضجيج، الأمر الذي دفعني للوقوف مسمراً عند الباب خائفاً إلى حد ما من الدخول.

وفيا كنتُ أنتظر أقبل رجل من غرفة جانبية، وبلمحة واحدة تخّنت يقيناً أنّه جون الطويل. كانت ساقه مقطوعة إلى الورك، وتحت إبطه الأيسر كانت ثمّة عكّازة، كان يتحكّم بها ببراعة مذهلة، ويثب عليها كطائر من مكان لآخر. كان رجلاً طويلاً وقويّاً، وله وجه كبير كوجه الخنزير، منبسط وشاحب، ولكن فطن وباسم. حقيقة لقد بدا ذا روح بهيجة حين كان يصفرّ وهو يدلف ما بين وحول الطاولات، فيما يجمي زبائنه المفضلين بكلمة مرحة إلى هذا أو مرتباً على كتف ذاك.

ولأخبركم بالحقيقة، فإنني من أول مرة ذكر فيها الملاك تريلاوني اسم جون الطويل في رسالته، وأنا مُرتاب من كونه البحار ذا الساق الواحدة ذاته، الذي طالما كنت أترقبه حذراً وأنا في نُزل الأدميرال بينبو. ولكن نظرة واحدة على هذا الرجل كانت كافية للحكم. لقد رأيتُ القبطان، وبلاك دوغ، والرجل الأعمى بيو، وظننتُ وقتها أنّ بمقدوري أن أُميّز قرصاناً من هياته، فالقرصان بحسب علمي مخلوق مختلف للغاية عن صاحب الحانة هذا، النظيف منبسط الأسارير.

استجمعتُ شجاعتني في الحال، واجتزت العتبة وتوجّهتُ إلى حيث كان الرجل واقفاً يستند إلى عكّازه ويتحدث إلى أحد زبائنه، مددت يدي بالرسالة، وقلت:

- أنت السيد سيلفر يا سيدي؟

قال:

- نعم هذا هو اسمي يا رفيقي، ومن أنت؟
وعندما رأى رسالة الملاك بدا وكأنه قد جفل قليلاً.

قال بصوت عالٍ:

- أوه! نعم، أنت فتى المقصورات الجديد.
ثم مدّ يده نحوي وصافحني بقبضة قوية قائلاً:
- سررتُ لرؤيتك.

وفي اللحظة عينها نهض أحد الزبائن من الجانب البعيد وولى
نحو الباب الذي كان قريباً منه، وفي لمحة كان في الشارع. ولكن
عجلته لفتت انتباهي، ومن نظرة واحدة ميّزته، لقد كان الرجل ذا
الوجه الأصفر صاحب الإصبعين المفقودين، الذي كان أول من
أتى إلى نزل الأدميرال بينبو.

صحتُ:

- أوقفوه، إنه بلاك دوغ!

صاح سيلفر:

- لا تساوي هويته عندي قرشين، إلا أنه لم يدفع حسابه، وهذا
هو ما يهمني حسب. الحقه يا هاري واقبض عليه.

قفز آخر كان قريباً من الباب وبدأ بمطاردته.

صاح سيلفر:

- سيدفع حسابه يعني سيدفعه، ولو كان الأدميرال هوك بحدّ ذاته.

ثم حرّر يدي وسألني:

- قلتَ ما كان اسمه؟ بلاك ماذا؟

قلتُ:

- دوغ يا سيدي. ألم يخبرك السيد تريلاوني عن القراصنة؟ لقد كان واحداً منهم.

صاح سيلفر:

- هكذا إذن. قرصان وفي بيتي! الحق هاري يا بين وساعده. أكان واحداً من أولئك المجرمين؟ أو كنت تشرب معه يا مورغان؟ تعال.

فأقبل الرجل الذي دعاه بمورغان بخجلٍ وهو يلوك مضغّة تبغ في فمه، وكان بحاراً أشيب، ذا وجه بلون الماهوغياني، قال له جون سيلفر الطويل بنبرة صارمة:

- والآن يا مورغان، هل سبق أن رأيت ذلك البلاك دوغ من قبل؟

قال مورغان وهو يحبب:

- أبداً يا سيدي.

- ولم تعرف اسمه؟

- كلا يا سيدي.

فزجر صاحب الحانة قائلاً:

- أقسم لك، يا توم مورغان، أن ذلك سيكون من صالحك،
فلو عرفتُ أنك كنت تخالط أمثاله، فلن أدعك تطأ خطوة
واحدة في منزلي، يقيناً^(١). وبمَ حدّثك؟

أجاب مورغان:

- لستُ أعرف بالتحديد يا سيدي.

صاح جون:

- أو تسمّي هذا الذي بين كتفيك رأساً؟ بل إنه بكرة بثلاثة
ثقوب^(٢). لم تعرف ما الذي كان يتحدث عنه، مثلما لم تعرف
من كان هو، أليس كذلك؟ هيا أخبرني عمّ كان يثرثر، أعن
الرحلات، أم القباطنة، أم السفن؟ هيا، قل!

أجاب مورغان:

- لقد كنّا نتحدث بشأن عقوبة سحل البحّارة بنصل هيكل
السفينة^(٣).

(١) you may lay to that: يقيناً.. لازمة سيستمر سيلفر بتكرارها طوال الرواية، وتعني

بلغة البحارة كن متأكداً، كن متيقناً، وارتأيناً أن تكون يقيناً.

(٢) dead-eye: زوج من الأسطوانات الخشبية تشبه اليكرة بها ثلاثة ثقوب للحبال التي
تستخدم لتثبيت الأشرعة.

(٣) Keel: تركيب طويل في قاع السفينة، وعليه تبنى بقية أجزاء السفينة، وقد يكون في
هياة نصل لزيادة استقرار وتوازن السفينة.

- عن عقوبة السحل ها؟ وأيّ حديث مناسب كان، يقيناً. عُذ
إلى مكانك أيها الأخرق.

وفيا كان مورغان يتراجع إلى مقعده همس لي سيلفر كما لو أنه
كان يكتمني سرّاً، الأمر الذي وجدته في حينها في غاية الإطراء،
قال:

- توم مورغان رجل أخرج إلا أنه صادق.

ثم عاد إلى الحديث بصوت عال:

- والآن، لنر إن كنتُ أعرف أن اسمه كان بلاك دوغ؟ كلا،
لكنني، بشكلٍ ما.. أعتقد.. نعم، لقد رأيت هذا الحثالة من
قبل. لقد اعتاد أن يحضر برفقة شحاذ أعمى، اعتاد ذلك.
قلتُ:

- لا شك في ذلك. وأعرف ذلك الأعمى أيضاً، ويدعى بيو.
صاح سيلفر باندهفاع:

- هذا صحيح، بيو! هذا كان اسمه. لقد كان يبدو كمحتال،
نعم! إذا قبضنا على هذا البلاك دوغ فسيكون ذلك خبراً
ساراً بالنسبة للقبطان تريلاوني! إن بين عداء سريع، قلّة
من البحارة يستطيعون الركض أسرع من بين، لا بدّ من
أنه سيلحق به، بسرعة. يا للساء هل تحدّث حقاً عن جرّ
البحارة تحت بدن السفينة؟ سأعاقبه بالمثل!

وطوال الوقت الذي كان يرشق فيه عباراته، كان يثب على

عكازه هنا وهناك في الحانة، ويضرب الطاومات بيده، ويقدم عرضاً مسرحياً بارعاً كان سيخدع به قاضياً محنكاً في محكمة أولد بيلي أو شرطياً حذقاً من طراز عدائي بو ستريت. لقد استيقظت في اللحظة ذاتها التي وجدت فيها بلاك دوغ في حانة السبائي غلاس، لذا راقبتُ الطباخ يامعان، إلا إنه كان ثاقب البصيرة، تام الاستعداد، متوقد الذكاء بالنسبة لفتى مثلي لكي يحيط به دراية. وما أن عاد الرجلان مقطوعي الأنفاس وأقرأ بأثهما فقدا أثر البلاك دوغ في الزحام، حتى وبخهما سيلفر كما لو كانا لصين، وجدت نفسي حينها مستعداً للرهان على براءة جون سيلفر الطويل.

قال:

- فتأمل يا هوكينز، كم أن هذا الأمر صعب ولعين على رجل مثلي، ألا ترى؟ ما عسى القبطان تريلاوني سيظن بي؟ ها هو ذا المحتال اللعين ابن الهولندي^(١) يجلس في بيتي ويشرب من شرابي! ثم تأتيني أنت وتخبرني عن حقيقته وإذا بي أدعه يفر من أمام كوئي نظري اللعنتين! أستنصفي أمام القبطان؟ نعم أنت فتى ولكنك ذكي وقد توسمت فيك هذا مذ لمحتك لأول مرة. والآن سأدع الحكم لك: ما الذي بوسعي فعله وأنا أعرج على هذه الخشبة العتيقة من أضلاع المركب؟ فلو أنني كنت اليوم كما كنتُ في السابق زعيم بحارة، لكنتُ

(١) son of a Dutchman: شتيمة أو إهانة تشير إلى الهولنديين مشتقة ومستمدة من الحروب الانجلو- هولندية، في القرن السابع عشر، والهولندي Dutchman الداتشان، هي مفردة بحرية تشير إلى البحارة الاسكندنافيين والألمان.

لحقت به وجئت به بسرعة، وسفحت دمه في وقت أسرع
من خفقتي شراع سفينة في مهبّ الريح، كنتُ سأفعل كل
ذلك، ولكنّي الآن..

ثم أمسك عن الحديث بغتة وفغراه كما لو كان قد تذكّر شيئاً،
وصاح:

- الحساب! لقد شرب ثلاث كؤوس من الروم! فلترتعد
أوصالي كأخشاب كسفينة في بحر أهوج^(١) إذا تذكّرتُ
حسابي!

ثم هوى على مقعدي وضحك حتى سقطت دموعه على وجنتيه،
ولم يكن في وسعي إلا أن أنضم إليه، ورنّت ضحكاتنا معاً فهقها إثر
أخرى حتى ماجت الحانة مجدداً.

ثم مسح الدموع من على وجنتيه وقال:

- أوه، يالي من عجل بحر عجوز! سنكون أنا وأنت رفيقين
جيدين، لأنني قسماً بميثاق ديفي^(٢)، يجب أن أعين كصبي
مقصورات. ولكن هيا الآن، تهباً للمضي في الأمر، الواجب
واجب ولن ينفعنا التكاسل، يا رفيق المائدة^(٣). سأعتمر
قبعتي القديمة مثلثة الأركان، وأرافك إلى القبطان تريلاوني

(١) shiver my timbers: كناية عن الصدمة، عبارة تقال في حالة الصدمة، مثلما تصطدم
سفينة بعائق ما.

(٢) my davy: سيلفر يعني الوثيقة الخطية affidavit أو الإفادة تحت القسم.

(٣) Messmates: الشخص الذي يشاركه المرء طعامه، في الجيش مثلاً.

لتبليغه بما حصل للتو، ولتضع في حسابك يا هوكينز الشاب
أنه أمر خطير، ولن نخرج منه كلانا، لا أنا ولا أنت، بشرف،
لو تجرأتُ على قول تلك الكلمة. ولست أنت بالذكي كما
تقول، كلانا لسنا كذلك. ولكن يا للويل! ذاك الذي ضيعته
كان واحداً من أفضل حساباتي.

ومرة أخرى طفق يضحك من كل قلبه، ورغم أنني لم أر الجانب
المضحك في الأمر، إلا أنني وجدت نفسي مجبراً على مشاركته سروره.
في مسيرتنا القصيرة على امتداد أرصفة الميناء، جعل من نفسه
الرفيق الأكثر إثارة للاهتمام، فصار يخبرني عن الفروقات بين السفن
التي كنا نمر بجانبها، عن أجهزتها، حمولاتها، جنسياتها، شارحاً
بالتفصيل عن الأعمال التي تجري عليها؛ كيف تفرغ سفينة حمولاتها،
وكيف تُشحن على أخرى البضاعة، وكيف تنهيأ نالمة للإبحار، وبين
الحين والآخر كان يروي طرفة أو حكاية عن بحار ما أو سفينة ما، أو
يعيد على مسامعي عبارات بحرية، حتى وجدت نفسي وقد أتقنت
معانيها تماماً، وصرت أراه كأحد أفضل البحارة معشراً.

عندما وصلنا إلى النزل، كان الطبيب ليفزي والملاك يجلسان
معاً يحتسي كل واحد منهما كأساً من البيرة مع شريحة خبز متبل^(١)،
قبل أن يذهبا إلى السفينة في زيارة تفتيشية.

روى جون الطويل القصة من البداية إلى النهاية، بقدر كبير

(١) quart of ale with a toast in it: كانت شريحة من الخبز المحمص المتبل تستخدم
لتنكيه النيذ أو البيرة. والعبارة الدارجة to toast someone هي من هذا الأصل.

من الحماس وقاصداً وجه الحقيقة بكاملها. وبين الحين والآخر كان يقول: «أليس كذلك يا هوكينز؟»، وكنتُ بدوري دائماً ما أسند، وكلياً، حديثه.

أسف الرجلان أيها أسف على فرار بلاك دوغ، ولكننا جميعاً اتفقنا على أنه لم تكن في اليد حيلة، وبعد أن أثنى عليه كان جون الطويل قد أخذ عكازه ومضى. فصاح به الملاك قبل رحيله:

- على الجميع أن يكونوا على متن السفينة بحلول الرابعة من عصر اليوم.

فصاح الطباخ من الممر:

- آي، آي، يا سيدي.

قال الطيب ليفزي:

- حسناً أيها الملاك. أنا في العادة لا أركن إلى اكتشافاتك، ولكن هذه المرة دعني أخبرك، إن جون سيلفر هذا يوافقني.

صرح الملاك:

- إنه رجل مستقيم ونزيه.

أضاف الطيب:

- والآن يمكن لجيم أن يصحبنا؟

قال الملاك:

- طبعاً ممكن، هيا يا هوكينز، خذ قبعتك ولنمضِ لرؤية السفينة.

(٩)

أسلحة وبارود

كانت الهيسبانيولا راسية على مسافة بعيدة، لذا مضينا في طريقنا إليها تحت تمثيل حيازم السفن، وحول كواثل سفنٍ أخرى، التي كانت حبالها إما تصرّ أحياناً تحت عارض مركبنا، أو تتأرجح فوق رؤوسنا. حتى وصلنا أخيراً إلى جانب الهيسبانيولا، وقوبلنا وحيّنا فيها كنا نصعد على متنها، من قبل ضابط الملاحة، السيد آرو، الذي كان بحاراً هرماً ملفوحاً بالشمس، بأقراطٍ في أذنيه وحوّلٍ في إحدى عينيه. كانت تربطه بالملاك علاقة وطيدة وودودة، غير أنّي سرعان ما أدركت أن الأمور كانت على العكس من ذلك بين القبطان والسيد تريلاوني.

فالقبطان كان رجلاً ضرّوساً، يغضب لكل أمرٍ على متن السفينة، وسرعان ما كان سيطلعنا على سبب استيائه، إذ أننا ما كدنا نطأ خشب المقصورة حتى لحقنا بحار قاتلاً:

- إنّ القبطان سموليت يرغب بالحديث معكم يا سيدي.

قال الملك:

- أنا تحت أمر القبطان دائماً. أدخله.

كان القبطان يكمن في إثر رسوله مباشرة، فدخل في الحال وأوصد الباب وراءه.

- حسناً يا قبطان سموليت، ما الذي جاء بك؟ أمل أن كل شيء على ما يرام، هل الأمور في نصابها وعلى أتم الاستعداد للإبحار؟

قال القبطان:

- حسناً يا سيدي، من الأفضل أن أتكلّم بصراحة، حتى لو كان ما بجعبتي من القول سيغيظك. هذه الرحلة لا توافقني، وهذا الطاقم لا يرضيني، وضابط الملاحة لا يروق لي. وهذه خلاصة القول.

فسأل الملاك بغضب كما بدا لي:

- ولربما كانت السفينة أيضاً لا توافق أهواءك يا سيدي؟

قال القبطان:

- لن يكون لي أن أبتّ بأمر السفينة يا سيدي، إذ أنني لم أختبرها في البحر. لكن يبدو أن عليها سمات الرشاقة والخفة، وهذا كلّ ما عندي لأقوله عنها.

فقال الملاك:

- أو يكون يا سيدي، أن ربّ عملك لا يتفق وهواك أيضاً؟

وهنا اعترض الطبيب ليفزي قائلاً:

- على رسلك، على رسلك. لا جدوى من مثل هذه الأسئلة إلا لإثارة البغضاء. وسواء أسهب القبطان أو أوجز في قوله، فأنا مجبرٌ على المطالبة بشرح لكلامه. قلتَ أنّ هذه الرحلة لا تروقك يا قبطان، والآن أخبرني لماذا؟

فأجاب القبطان:

- لقد وافقتُ يا سيدي، على إطاعة ما ندعوه بلائحة الأوامر المختومة^(١) وهذا يعني أن ليس عندي حقٌ من بعد الموافقة بالسؤال عن فحوى اللائحة، وعليّ الإبحار بالسفينة إلى حيث يأمرني هذا الرجل. والآن أجد أنّ البحّارة العاديين يعرفون من أمر هذه الرحلة أكثر مما أعرف. أو هذا من الإنصاف في شيء برأيك؟

قال الطبيب ليفزي:

- كلا، هذا ليس منصفاً بالمرّة.

قال القبطان:

- ليس هذا فحسب، بل وتأملوا هذه المسألة الثانية، كان عليّ أن أعرف ومن بحّارتي أننا ماضون للبحث عن كنز ما. أما

(١) sealed orders: أوامر مختومة، يتم قبولها دون أن يعرف الشخص بغرضها أو محتواها. وهنا يعني أنّ القبطان سموليت وافق على الإبحار بالمهسبانويولا دون أن يعرف وجهة الرحلة ولا غرضها.

وأن البحث عن الكنوز مسألة خطيرة، وإنني أمقت رحلات
الكنوز تحت أيّ اعتبار، ولا سيما رحلات الكنوز السرية التي
يعرف بأمرها، ولا تؤاخذني يا سيد تريلاوني، حتى البيغاء.

استفسر الملاك:

- بيغاء سيلقُر؟

قال القبطان:

- إنه تعبير مجازيّ وأعني به الثرثرة. أعتقد أن ما من أحد
منكما أيها السادة، يفقه حقيقة الأمر الذي أنتما مقبلان عليه،
ولكنني سأطلعكما على رؤيتي بهذا الشأن: إمّا موت أو حياة،
وبفارق ضئيل بينهما.

أجاب الطبيب ليفزري:

- هذا أمر جليّ، وقد أجرؤ على قول إن لا شك في حقيقته.
فنحن مقبلون على مخاطرة لكننا لسنا جهلة كما تظننا. المسألة
الثانية، ماذا عن قولك إن الطاقم لا يروك، أليسوا بحّارة
أكفاء؟

أجاب القبطان:

- لا يروقون لي، وأظن أنني الأحق باختيارهم، لو نظرتم
للأمر من هذا الجانب.

أجاب الطبيب:

- ربّما كان يجب أن تقوم أنت بذلك، وربّما كان على صديقي أن

يصحبك معه عند اختيارهم، ولكن لو بدر أي استخفاف،
لو كان هنالك شيء من هذا القبيل، فهو غير متعمد. ألا
يروقك السيد آرو؟

- كلا يا سيدي. رغم اعتقادي بأنه بحار جيد ولكنه منفلت
في سلوكه مع الطاقم. على وكيل القبطان أن يكون متحفظاً
ومحترساً، وبالتأكيد ألا يعاقر الخمر مع رجال تحت إمرته
أمام الصاري!

صاح الملاك:

- قلت إنه يشرب؟

أجاب القبطان:

- كلا يا سيدي، أقصد أنه يخالطهم.

سأل الطبيب:

- الرُبدة يا قبطان، أخبرنا ما الذي تريده؟

- حسناً يا سادتي، هل أنتم مصممون على المضي في هذه الرحلة؟

أجاب الملاك:

- نعم، كالحديد بعزم لا يلين.

قال القبطان:

- جيد جداً. كما أصغيتهم وبصير شديد إلى حديثي دون أن أدعمه
بأدلة، فاسمعوني وأنا أقول هذه الكلمات القليلة بعد. أولاً،

إنهم يضعون البارود والأسلحة في مخزن السفينة الأمامي،
على الرغم من وجود مكان جيد أمامكم تحت المقصورة
تضعونها فيه، فلم لا تفعلون؟ وثانياً، إنكم ستجلبون معكم
خمسة من الأفراد، وقيل لي إن بعضهم سيكونون في المقدمة،
فلم لا يبقون هنا إلى جانب المقصورة؟

سأل السيد تريلاوني:

- أهل من مزيد؟

قال القبطان:

- نقطة أخيرة، هنالك الكثير من الثرثرة.

وافقه الطبيب قائلاً:

- أكثر من اللازم.

أكمل القبطان سموليت:

- سأخبركم بما سمعته، أن بحوزتكم خريطة لجزيرة، وعليها
عدّة صلبان لتبين مكان الكنز.

ثم ذكر موقع الجزيرة على أيّ خط طول وخط عرض بالتحديد.

فصاح الملاك:

- ما أخبرت ذلك لامرئ قط.

أجاب القبطان:

- بل يعرف موقعها حتى البحارة يا سيدي.

صاح الملاك:

- لا بدّ أنّ من تحدّث بذلك هو أنت يا ليفزي أو أنت يا هوكينز.

أجاب الطيب:

- ليس مهمّاً من الذي تحدّث.

كان باستطاعتي أن أرى أنّ كلّاً من الطيب والقبطان لم يعبرا أهمية لاحتجاج السيد تريلاوني، ولا حتى أنا، إذ أنّه كان رجلاً ثرثاراً، بيد أنّي اعتقدتُ بصدقه هذه المرة، وأن لا أحد منا كان قد أفصح عن موقع الجزيرة.

أكمل القبطان:

- والآن أيّها السادة، لا علم لي بمن يحمل الخريطة منكم، ولكنّي سأوصيكم بإبقاء ذلك سرّاً، حتى عني وعن السيد آرو، وإلا سأستقيل.

قال الطيب:

- لقد فهمت ما ترمي إليه. توذّ أنّ تبقى هذا الأمر طي الكتمان، وتجعل من كوثل السفينة حامية عسكرية تمدّها بالثقات من رجال صديقي، وتعدّهم بكل البارود والأسلحة على متن السفينة. بمعنى آخر، أنت تخشى حدوث عصيان.

قال القبطان سموليت:

- لا تؤاخذني يا سيدي، ولا تقوّلي ما لم أقل. فما من مبرر

لأي قبطان للإبحار إطلاقاً وقد وقع على أي دليل أو أساس
باحتمال حصول عصيان. أمّا بالنسبة للسيد آرو فلا أشك
بأمانته، وأمانة بعض الرجال الآخرين، أو ربّما كانوا كلّهم،
على حد علمي. غير أنني مسؤول عن سلامة السفينة وسلامة
كل رجل على متنها، وكوني أرى أموراً أعتقد أنها تثير الريبة،
لذا أسألك أن تتخذ ما يلزم من أسباب الحيطة والحذر أو أن
تدعني أستقيل، وهذا كل ما عندي لأقوله.

علت وجه الطبيب ابتسامة وقال:

- هل سمعت يا قبطان سموليت عن حكاية الجبل الذي
تمخض فأنجب فأراً؟ لا تؤاخذني إن قلت أنك تذكرني
بتلك الحكاية. لأنك عندما أقبلت إلينا كان بجعبتك أكثر مما
أفصحت عنه، وأراهنك بباروكتي على ما أقول.

قال القبطان:

- إنك لفظن أيها الطبيب. هذا صحيح، كنتُ قصدتكم لأطلب
تسريحي من المهمة، إذ لم يدر بخلدي أنّ السيد تريلاوني
سيسمع كلمة من قولي.

صاح الملاك:

- لن أسمع المزيد، ولولا وجود ليفزي لكنّك أرسلتكم إلى
الجحيم. أما وقد سمعتك، فسأفعل ما تشاء، على أن ذلك
لن يدفعني إلا للتشكيك بك.

قال القبطان:

- كما يحلو لك يا سيدي، وستجد أنني رجل أقوم بواجبي.

وبهذا خرج.

قال الطبيب:

- خلافاً لكل اعتقاداتي يا تريلاوني، أظن أنك قد تمكنت من العثور على رجلين أمينين على متن السفينة معك، ذاك الرجل وجون سيلفر.

صاح الملاك:

- بل قل ذلك عن سيلفر إذا شئت، أمّا بالنسبة لهذا الدجال البغيض، فأقول إن سلوكه ليس من صفات الرجال ولا البحارة، وعموماً ليس من صفات الإنجليز في شيء.

قال الطبيب:

- حسناً، سوف نرى.

عندما انتهينا إلى سطح السفينة كان الرجال قد شرعوا في إخراج الأسلحة والبارود، وهم يردّدون: يوو هوو.. فيما كان القبطان والسيد آرو يقفان بالقرب للإشراف على العمل.

لقد استحسنّت الترتيب الجديد أيما استحسان، فقد تم إصلاح وتجديد السفينة بكاملها: تمت إضافة ستة مهاجع إلى المؤخرة في المكان الذي كان يكوّن الجزء الخلفي لمخزن السفينة الرئيسي،

وتتصل هذه المهاجع بالمطبخ وأعلى المقدمة بواسطة ممر من ألواح خشبية على الجانب الأيسر. وكان يُفترض أن يشغل هذه المهاجع الستة كل من القبطان، السيد آرو، هانتر، جويس، الطيب، والملاك. والآن بحسب الترتيب الجديد سيكون لنا أنا وريدروث أن نشغل كل واحد غرفة منها، والسيد آرو والقبطان سينامان على سطح السفينة في ممر السلام الذي جرى توسيعه من كلا الجانبين حتى لكأنكم تخالونه مقصورة مدورة^(١)، على أن سقفه لا يزال منخفضاً، بالطبع، ولكن ثمة مساحة تكفي لتعليق سريرين شبكيين، وكان وكيل القبطان السيد آرو، مسروراً بهذا الترتيب، الذي كان هو الآخر مرتاباً من الطاقم ربّما، وليس هذا إلا تخمين، إذ أننا لم نأنس برأيه طويلاً، كما ستسمعون فيما بعد.

فيما كنا منهمكين في العمل، نقل البارود أو نستبدل المهاجع، إذ أقبل آخر رجل أو رجلين، برفقة جون الطويل، في قارب ساحليّ. صعد الطباخ إلى سطح السفينة بخفة قدم، وما أن رأى ما كان يجري حتى قال:

- ماذا أنتم فاعلون يا رفاق؟

أجاب أحدهم:

- نحن نقل البارود إلى مكان آخر يا جاك.

صاح جون الطويل:

(١) round-house: مقصورة مربعة أو مستطيلة وتسمى بهذا الاسم لأنه يمكن المشي والاستدارة حولها.

- ولماذا بحق السماء؟ إذا فعلنا ذلك، سنفتوت المد الصباحي!

قال القبطان سموليت باقتضاب:

- هذه أوامري! عليك الذهاب إلى تحت يا صاح، فالبخارة سيرغبون بالعشاء قريباً.

أجاب الطباخ بعد أن سوى ناصية شعره:

- أمرك يا سيدي.

ثم اختفى من فوره باتجاه مطبخه.

قال الطيب:

- إنه رجل صالح يا قبطان.

أجاب القبطان:

- قد يكون ذلك صحيحاً يا سيدي.

ثم ركض باتجاه البخارة الذين كانوا ينقلون البارود وصاح بهم:

- تمهلوا بهذا الذي تحملونه، تمهلوا يا رجال.

ثم لمحني وأنا أتفحص المدفع النحاسي الطويل التساعي^(١) الذي

كنا قد حملناه إلى وسط السفينة، فصاح بي:

- أنت، يا صبي السفينة! دعك من اللهو، واذهب إلى الطباخ

علّه يحتاجك، جد لنفسك فائدة.

(١) long brass nine: مدفع من البرونز المصقول ليدو كالنحاس يطلق كرات مدفعية زنة الواحدة منها تسعة أرتال.

وفيا كنتُ أهمّ حثيثاً، سمعته يقول للطبيب بصوت عالٍ:

- لن أحتمل أن يكون في سفيتي محسوبيات.

وأقرّكم، أنني وقتها كنت قد وافقت الملاك فكرته عن القبطان،
وكرهته جداً.

(١٠)

رحلة الإبحار

ظللنا طوال تلك الليلة منهمكين في تنظيم وترتيب الأمور في مواضعها. وأقبل قارب مملوء بأصدقاء الملاك من مثل السيد بلاندي وصحبه، لكي يتمنوا له رحلة ميمونة وعودة محمودة. ولم يتسن لي ولا حتى لليلة واحدة، طيلة عملي في نزل الأدميرال بينبو، إنجاز ولو نصف العمل الذي كان عليّ إنجازه على السفينة في تلك الليلة، حتى أعياني التعب. وقبيل الفجر بقليل نفخ العريف ببوقه فأخذ البحارة في تدوير قضبان الرحوية. وحتى لو كان التعب سيبلغ مني ضعفي ما بلغ، إلا أنني ما كنت لأرغب بمغادرة سطح السفينة، فكل ما كان يجري حولي كان جديداً عليّ ومثيراً لاهتمامي؛ من الأوامر المقتضبة، وزعيق البوق الحاد، إلى الرجال الذين كانوا يسارعون ضاحجين إلى أماكنهم تحت الضوء الكابي لفوانيس السفينة.

صاح صوت:

- والآن يا باربيكيو، أنشدنا!^(١)

(١) Barbecue: لقب أطلقه البحارة على سيلفر ويعني شواء، أو العامل في المطبخ. وهي =

ثمّ صاح آخر:

- فلتغنّ أغنيتنا القديمة.

فقال جون الطويل الذي كان يقف على مقربة، وعكّاه تحت

ذراعه:

- آي، آي، يارفاق.

ثم طفق في غناء كلمات أعرفها حقّ المعرفة:

- خمسة عشر رجلاً على صندوق رجل ميت..

فراح الطاقم بأكمله مثل جوق غنائي يردّدون:

- يوو هوو وزجاجة روم.

وعند كل ثالث (هوو!)، كانوا يدفعون بالقضبان أمامهم بهمة.

وحتى وأنا في خضمّ تلك اللحظة الهائلة فقد عادت بي الأغنية

حالما سمعتها إلى نُزل الأدميرال بينبو، وبدا لي أنني أسمع صوت

القبطان ينشد مع الجوق. ولكن ما كادت ترتفع المرساة، وتعلّق

وهي تقطر ماء على المقدمة، حتّى بدأت الريح تدفع بالأشرعة

المبسوطة، وكأني بالبرّ وبالسفن التي على جانبي سفينتنا؛ هي التي

تسبح بعيداً عنا بهوادة، وقبل أن يتنسى لي أن أستلقي لأنال قسطاً

من النوم لساعة، كانت الهيسبانيولا قد بدأت رحلتها البحرية إلى

جزيرة الكنز.

= مفردة أصلها كاريبي أو هايتي.

لن أروي تفاصيل الرحلة، ويكفي القول إنها كانت موفقة،
فالسفينة أثبتت جدارتها، ورجال الطاقم برهنوا على كونهم بحارة
بارعين، أما القبطان فقد كان حريصاً أشد الحرص على عمله.
ولكن قبيل وصولنا إلى الجزيرة، وقع حدثان أو ثلاثة، يقتضي
ذكرها.

إنّ أول شيء يقتضي ذكره، هو تبيّن كون السيد آرو في حال
أسوأ مما كان يخشاه القبطان، فلم تكن لديه من سلطة على البحارة،
وكان الرجال يفعلون ما يحلو لهم معه. وليس هذا أسوأ ما في الأمر،
فبعد يوم أو يومين من إبحارنا صار يصعد إلى سطح السفينة بعينين
ضبابيتين وخدين موردين، ولسان متلعثم، وخلاف ذلك من
علامات الثمالة. وكان يؤمر مرة بعد مرة بالعودة إلى الأسفل مخزياً.
تارة يقع ويمرح نفسه، وتارة يستلقي طوال اليوم في سريره على أحد
جانبي ممر السلام، وأحياناً كان يظلّ يقظاً ليوم أو يومين فيؤدي عمله
على درجة أقل من الإتقان.

في هذه الأثناء لم يكن لنا أن نتوصل إلى من أين كان يأتي بالشراب،
وكان هذا لغز السفينة، وكنا مهتماً راقبناه لم ننته إلى حل ذلك اللغز،
وعندما كنا نواجهه بالأمر، ينطلق ضاحكاً لو كان مخموراً، وينكر
برصانة وجدية لو كان يقظاً، أنه ما شرب قط غير الماء.

لم يكن عديم النفع كضابط ذي أثر سيء على الرجال فحسب،
بل كان واضحاً وهو على تلك الحال أنه سيودي بنفسه إلى حتفه،
لذا لم يتفاجأ أو يتأسف أحد، عندما في ليلة ظلماء والبحر مضطرب

تجري أمواجه عكس مسيرنا، كان قد اختفى كلياً ولم يُر له أي أثر من بعدها.

قال القبطان:

- لقد سقط في البحر! حسناً يا سادة، لقد كفانا عناء ربطه بالأغلال.

وهكذا صرنا بلا وكيل قبطان، لذا لزم ترقية أحد الرجال، وكان عريف الملاحين جوب أندرسون هو المرجح بين البحارة، وقد أدى مهام وكيل القبطان رغم أنه ظلّ يحمل لقب العريف. جاب السيد تريلاوني البحر طويلاً، فأفدنا من خبرته، إذ كثيراً ما كان يتولّى نوبة مراقبة عندما يكون الجوّ صحواً. أمّا إزريال هاندز سائس الدفة، فقد كان بحاراً عتيقاً وحريصاً، وداهية محنكاً يمكن الاتكال عليه في حال حدوث أي خطب. وكان موضع ثقة جون سيلفر الطويل، وهكذا، فإن ذكر اسمه يقودني للحديث عن طبّاخ السفينة، باريكيو، كما كان البحارة يلقّبونه.

كان عندما يصعد إلى ظهر السفينة يعلّق عكّازه بحبل حول عنقه، لكي يحرّر يديه كما يشاء. وكم كان منظرأً جديراً بالرؤية عندما كان يحشر قدم العكّاز في أحد الحواجز ويستند إليه منقاداً لكل حركة تميد بالسفينة، فيما يستمر في الطهو كمن هو على البرّ بأمان. والأغرب من ذلك رؤيته يتحرك على السطح في أعنى الأنواء الجوية، إذ كانت هنالك حلقة أو اثنتين من الحبال المعقودة والمثبتة لمساعدته في اجتياز المساحات الأوسع، كُنّا نسميها أقراط جون الطويل. وكان ينتقل

من مكان لآخر بنفسه، تارة مستنداً على عكازه، وتارة يتركه مجروراً على الأرض بالحبل القصير حول عنقه، ليسير بنفس سرعة أي رجل بساقين. ومع ذلك فإن بعضاً ممن أبحروا سابقاً معه أعربوا عن شفقتهم لرؤيته وهو على هذه الحال.

قال لي سائس الدفة:

- باريكيو هذا ليس رجلاً عادياً، فقد حظي بتعليم جيد في صغره، وبإمكانه الحديث بفصاحة كتاب لو أراد، وشجاعة أسد، بل لا شجاعة لأسد مقارنة بشجاعة جون الطويل! لقد شهدته وهو يصارع لوحده أربعة رجال ويقرع رؤوسهم ببعضها، وهو أعزل.

كان الطاقم بأكمله يحترمه بل ويطيعه. فلقد كان لديه أسلوب للحديث مع كل واحد منهم، وكان لا يحجم عن تقديم أية خدمة لأي أحد. كان عطوفاً معي إلى حد بعيد، ويسرّه وجودي معه في المطبخ الذي كان حريصاً على نظافته أشد الحرص، فكانت الصحون مجلّية ومعلّقة، بينما البيغاء في إحدى الزوايا يقبع في قفصه.

اعتاد أن يقول لي:

- تعال يا هوكينز. واسمع من جون حكاية. لا أحد أجدر منك بالترحاب يا بني. اجلس واسمع الأخبار من القبطان فلينت، هكذا أسمي ببغائي، على اسم القرصان الشهير. ها هو ذا القبطان فلينت يتنبأ بنجاح الرحلة، أليس كذلك يا قبطان؟

فيما كان البغاء يردّد بسرعة:

- قِطْعُ الثمانية! قِطْعُ الثمانية! قِطْعُ الثمانية!

حتى لتتساءلون إن كانت ستقطع أنفاسه فيسكت، أو حتى يغطي جون القفص بمنديل فيخرسه.

كان يقول:

- ربّما بلغ هذا الطائر المائتي سنة يا هوكيز، هذه البغاوات تعيش إلى الأبد. ولم يشهد من أهوال أكثر منه إلا الشيطان. لقد أبحر مع القبطان العظيم القرصان إنغلاند^(١)، ورأى مدغشقر ومالابار وسورينام وبروفيدنس وبورتوبيللو^(٢). وشهد استخراج حطام السفن الغارقة المحملة بالكنوز. ولا ريب من أنّه قد تعلّم عبارته تلك (قِطْعُ الثمانية) من هناك. ولا عجب في الأمر يا هوكيز، إذ أنّه رأى كنزاً من ثلاثمائة وخمسين ألف قطعة ذهبية من فئة الثمانية! وأبحر مع وزير ملك جزر الإنديز خارج غوا!^(٣) إلا أنّك لو نظرت إليه لخيّل إليك أنه ما زال طفلاً. لقد شممت رائحة بارود المعارك، أليس كذلك يا قبطان؟

(١) Cap'n England: القبطان إنغلاند، إدوارد. قرصان أطاح به طاقمه في عام ١٧٢٠، طُبّق فيه الحكم الماروني (سيأتي ذكر الحكم) أي أنه نُفي على جزيرة تدعى موريشيوس ليموت، لكنه هرب بقارب صنعه بنفسه، بيد أنه مات من الفقر في ١٧٢٠.

(٢) هذه الجزر كانت مأوى للقراصنة المرتبطين بالقبطان إنغلاند.

(٣) بعد أن استولى طاقم إنغلاند على سفينة برتغالية متهاكمة في أبريل ١٧٢٠ طالبوا بقدية مقدارها ألفا دولار مقابل تحرير نائب ملك غوا.

فكان البيغاء يصرخ قائلاً:

- استعدّوا للانطلاق.

كان الطباخ يقول عن البيغاء:

- إنه مخلوق جميل.

ثم يُخرج حبة سكر من جيبه فيُطعمه، حينها ينقر الطير قضبان قفصه مطلقاً اللعنات والشتائم، مما يعطي انطباعاً بفضاعته.

عندها يضيف جون:

- لا عليك من شتائمك يا صاحبي، فمن يلعب بالقار يتلوث.
إنّ طائري بريء مسكين، يشتم بأقذع الألفاظ، دون إدراك
أو قصد منه، يقيناً، فهو قد يطلق الشتائم ذاتها ولو كان أمامه
قسيس.

ثم يلمس جون ناصيته بطريقة وقورة، جعلتني أظنه أفضل
الرجال. في هذه الأثناء كان الملاك والقبطان سموليت لا يزالان في
حالة من عدم الوفاق بينهما، ولم يكتف الملاك الأمر، فقد كان يبغض
القبطان علانية. أمّا من ناحيته فقد كان القبطان يلزم الصمت حتى
يُسأل، فيأتي جوابه حاداً وجافاً ومقتضباً، وبلا حتى كلمة واحدة
فائضة عن الحاجة. وقد سبق للاعتراف بدافع من الحرج، أنّه كان
مخطئاً بشكوكه حول الطاقم، فقد كان بعض الرجال نشيطين كما
كان يريد، وكانوا جميعاً ذوي سلوك حسن. أمّا بالنسبة إلى
السفينة فقد نالت رضاه كلياً. كان يقول عنها:

- إنها تركز إلى الريح كما تركز الزوجة إلى بعلمها.

غير أنه سيضيف:

- كل ما أقوله هو إننا لسنا بعائدين إلى الديار ثانية، وإنّي لمبغض هذه الرحلة.

وعندما كان الملاك يسمع ما يرده القبطان، ينأى عنه ويظل يذرع سطح السفينة ذهاباً وإياباً، شامخاً بأنفه وقائلاً:

- آية زيادة في الكلام، ولو كانت نزرأ يسيراً من هذا الرجل،
وسأنفجر!

لقد صادفتنا ظروف جوية قاسية، ولكن الهيسبانيولا برهنت على مميزاتها. بدا كل رجل على متن السفينة في تمام الرضا، ولو كان العكس لصعب إرضاؤهم، لأنه باعتقادي أن ليس ثمة من ركاب سفينة بهذا الدلال والعبث منذ أن أبحرت سفينة نوح، فقد كانت كؤوس شراب الغرغ تتقاطر تحت أية ذريعة، وفطائر الدوف^(١) تُقدّم في مناسبات معينة، كأن يسمع الملاك بعيد ميلاد أحدهم. وكان ثمة برميل من التفاح على سطح السفينة بقى مفتوحاً للجميع، إذا ما تبدت لأيّ منهم رغبة في الأكل.

قال القبطان للطبيب ليفزي:

- ما رأيت قط خيراً أتى من مثل هذا السلوك، أنا على يقين من أنّ تدليل البحارة يفسدهم ويصنع منهم أتعس الشياطين.

(١) Duff: طحين مغلي بالماء ويضاف له أحياناً شحم أو دبس سكر أو زبيب أو بيض.

وكما ستسمعون، فإن برميل التفاح هذا قد عاد بفائدة، إذ لولاه لما كنا لنتبه إلى الخطر المحدق بنا، ولربما كنا هلكنا في مؤامرة للخيانة.

وهذا ما حدث.

لقد صادفتنا الرياح التجارية^(١) وسرنا فيها نحو مسار الرياح التي ستقودنا إلى الجزيرة التي نشد - ليس مصرّحاً لي أن أضيف على قولي أكثر من هذا- وصرنا الآن نترقبها في دأب بعين ثاقبة البصر ليل نهار. كان ذلك في اليوم الأخير من رحلتنا، حيث ستلوح لنا الجزيرة وفي أبعد تقدير من حساباتنا، في وقت ما من الليل أو على الأقل قبل ظهيرة الغد. كنا نسير في اتجاه جنوب جنوب الغرب، وكان النسيم يهبّ بهدوء بزواية مستقيمة على السفينة، والبحر ساكناً. كانت الهيسبانيولا تنساب بروية على الماء، فيخضّل بنفحة من الرذاذ صارها الأمامي بين الحين والآخر. كان الجميع على ظهر السفينة بمعنويات مرتفعة، إذ كنا مقبلين على نهاية الجزء الأول من مغامرتنا.

عندما انتهيت من عملي، وكنت متوجهاً إلى مهجعي بعد غروب الشمس بقليل، خطر لي حينها أن أكل تفاحة. فصعدتُ إلى سطح السفينة، كان المراقب في نوبة الحراسة مكرّساً بالكامل لمراقبة

(١) Trades: رياح تجارية، واحدة من الرياح التي تهب ببات نحو خط الاستواء من الشمال الشرقي في المناطق الاستوائية شمال خط الاستواء، ومن جنوب شرق المناطق الاستوائية جنوب خط الاستواء.

الجزيرة أمامه. وسائس الدفة كان يراقب مقدمة السفينة ويصفر مع نفسه برفق، وكان صفيره هو الصوت الوحيد الذي يتردد مسموعاً، عدا حفيف الماء على جوانب السفينة ومقدمها.

ارتيمتُ داخل برميل التفاح ولم أجد إلا تفاحة واحدة، وما أن جلست في ظلمة البرميل وسمعتُ خرير الماء وهددتني حركة السفينة، وكنْتُ سأغفو أو أكاد، حتى ربض رجل بالقرب، واهتزَّ البرميل عندما اتكأ بكتفيه عليه، وكنْتُ على وشك أن أثب خارجاً عندما طفق رجل بالكلام، كان ذلك صوت سيلفر. وعندما سمعتُ شيئاً من الحديد لم أكن لأخرج ولو مقابل العالم، لذا قبعْتُ مرتجفاً ومُنصتاً، وقد أخذ مني الخوف والدهشة مأخذاً، إذ كنتُ قد أدركتُ ومن تلکم الكلمات القليلة التي سمعتها، أن حياة كل رجل شريف على متن السفينة في عاتقي وحدي.

(١١)

ما سمعته وأنا في برميل التفاح

قال سيلفر:

- كلا، لستُ أنا. كان فلينت القبطان وكنْتُ أمر انضباط^(١) بساقي الخشبية. في نفس الهجوم الذي فقدت فيه ساقي، فقد يبو العجوز نظره. لقد بتر ساقي رئيس جرّاحين، خرّيج كليّة ومتعلّم، ويعرف اللاتينية، ومع ذلك سُنِق مثل كلب، وتركوه معلّقاً في الشمس ليجف، وكذلك الباقون في قلعة كورسو، كان هؤلاء رجال روبرت، لأنهم كانوا قد غيروا اسم سفنهم، الـ(رويال فورتشن) وغيرها^(٢). وهاكم قولي:

(١) Quartermaster: الضابط المسؤول عن التوجيه والمخزن في سفن القراصنة. وهو في المرتبة الثانية بعد القبطان ومسؤول عن الانضباط، فإذا لم يحلّ البحارة على متن السفينة نزاعاتهم فإن أمر الانضباط سوف يأخذهم إلى الساحل ليتبارزوا بالسلاح.

(٢) بدأ القبطان بارثميلو، جون روبرت (١٦٦٢-١٧٢٢) مسيرته المهنية مع هاويل دايفيس. وكان قرصاناً سيء السمعة مشهوراً في سورينام وجزر الهند الغربية. استولى على فرقاطة أونسلو وغير اسمها إلى الرويال فورتشن. لقد قتل في معركة مع قبطان السفينة حربية سولو. أما بنود القرصنة فقد نجت من المعركة وفيها البند التاسع الآتي: لا يحق لأي رجل أن يترك القرصنة أبداً حتى يضع مبلغ ألف باوند أثناء خدمته. وإذا

ما أن تسمى السفينة فيجب أن تحتفظ باسمها. وهكذا الأمر مع السفينة كاساندررا، التي عادت بنا إلى الديار سالمين من مالابار، بعد أن قام إنغلاند بأسر وزير ملك جزر الإنديز. وكذلك الحال مع سفينة فلينت القديمة (والراس)، التي رأيتها ملطخة بالدماء وتكاد تغرق من ثقل حمولة الذهب.

صاح أصغر البحّارة على السفينة، وقد بدا عليه الإعجاب جلياً:

- لقد كان فلينت خيرة الرجال.

قال سيلفر:

- وكذلك كان دايفيس^(١) رجلاً بكل ما تحمله الكلمة من معنى، إلا أنني لم أبحر معه، وأبحرت أولاً مع إنغلاند ومن ثم مع فلينت، والآن أنا هنا وهذه المرة أعمل لحسابي الخاص، إن صح التعبير. لقد ادّخرت عندما كنتُ مع إنغلاند مبلغاً قدره تسعمائة باوند، وادّخرت مع فلينت

حصل أثناء خدمته أنه خسر طرفاً أو أصبح معوقاً فإنه سوف يحصل على تعويض قدره ٨٠٠ دولار من الصندوق المشترك، أو مبلغاً يتناسب مع حجم الضرر. تمت محاكمة طاقم روبرت في ١٧٢٢ في كورسو كاسل، وهي حصن بريطاني على ساحل الذهب في خليج غينيا. وتم شق اثنين وخمسين منهم. كان جراح السفينة هو بيتر سكودامور، وزعم أنه وقع على بنود القرصنة طوعية وأقنع القراصنة بالاستمرار بقوله لهم: «من الأفضل المجازفة بالنزول إلى البر وجمع طاقم جديد من التوجه إلى كايب كورسو فتُشنقون كالكلاب وتترك أجسادكم في الشمس لتجف».

(١) Davis: هاول دايفيس (١٦٩٠-١٧١٩) كان نائباً عند القبطان إنغلاند ولفترة وجيزة عمل بمفرده. وكان بارزاً في صفوفه ومعروفاً ببراعته في الخداع والحيل الحربية.

مبلغ ألفي باوند، احتفظ بها في المصرف. وهذا ليس مقداراً زهيداً بالنسبة لبحار عادي. وليكن بعلمك أن هذا ليس مبلغاً كسبته بل ادّخرته، يقيناً. فأين هم الآن رجال إنغلاند؟ لا أعرف. وأين رجال فلينت؟ إن معظمهم على متن هذه السفينة معنا، سعيّدون بحصولهم على فطائر الدوف، إذ كان بعضهم قد وصل حدّ التسوّل. خذ عندك ييو العجوز مثلاً، فقد بصره، ويا للأسف، وأنفق اثني عشر ألف باوند، كما لو أنّه كان لوردًا في البرلمان، فأين هو الآن؟ لقد مات واندرثر، ولكنّ الرجل، ولترتعد أخشايي، كان قبل عامين يتضوّر جوعاً! لقد استجدي وسرق وقتل حتى مات جوعاً، بحق السماء!

قال البحار الشاب:

- حسناً، في النهاية ليس في ذلك من فائدة.

صاح سيلفر:

- ليس في ذلك من فائدة للحمقى، كن على يقين، الحمقى لا يُجدي معهم شيء. ولكن انتبه لما أقول، نعم أنت فتى ولكنك ذكي وقد توسمت فيك هذا مذلمحتك لأول مرة.

ولكم أن تتخيّلوا شعوري عندما سمعتُ هذا الوغد اللعين يُعيد على مسامع فتى آخر نفس كلمات الإطراء التي أسمعني إياها من قبل. وفكرتُ ساعتها لو كان باستطاعتي لقتلته وأنا في داخل البرميل. في هذه الأثناء أكمل حديثه دون أن يداخله شك بوجود من يستمع.

- هذا هو شأن سادة الحظ، القراصنة، إثمهم يعيشون حياة العنف، معرضين لعقوبة الشنق، لكنهم يأكلون ويشربون بنهم مثل ديوك القتال، وعندما تنتهي الرحلة سيعودون بجيوب مليئة بمئات الپاوندات بدلاً من مئات الشلنغات. ومعظمها سينفق على شرب الروم وإشباع الشهوات، وإذا بهم يعودون إلى البحر بالقمصان. ولكن هذا ليس دأبي، أنا أدخر أموالي، هنا وهناك، ولا أضع مبالغ كبيرة في مكان واحد بداعٍ من الارتياب. فليكن بحسابك أنني الآن في الخمسين من عمري، وحالما سأعود من هذه الرحلة سأكون رجلاً نبيلاً بصدق. لقد آن أوان ذلك. فقد عشتُ حياة مرضية، ولم أحرَم نفسي من أي شيء يشتهي قلبي، نمتُ في سرير وثير وأكلت مما طاب لي طوال حياتي، إلا إذا كنتُ في البحر. لقد بدأتُ مثلك، بحاراً عادياً أمام الصاري.

قال الآخر:

- ولكن كل أموالك الباقية قد فرغت، أليس كذلك؟ ولن تجرؤ على إظهار وجهك في بريستول بعد ذلك.

سأل سيلفر بنبرة ساخرة:

- لماذا تقول ذلك؟ وأين تعتقدني وضعتُ مالي؟

أجاب رفيقه:

- في بريستول، في مصارف وما شابه.

قال الطباخ:

- لقد كانت في المصارف عندما رفعنا المرساة وغادرنا، ولكنها بحوزة زوجتي الآن. فقد بيعت حانة السبائي غلاس، وقبضت زوجتي على ثمن عقد الإيجار واسم المحل والأثاث، وهي بانتظار ملاقاتي، وكنت سأخبرك بمكان لقائنا، إلا أن ذلك سيثير الغيرة في نفوس البقية.

سأل الآخر:

- وهل تثق بزوجتك؟

أجاب الطباخ:

- القراصنة لا يثقون ببعضهم، وهم على حق، كن على يقين. على أن لي نهجاً خاصاً معهم. فإذا خدعني أحدهم، وأعني شخصاً يعرفني، فإنه لن يبقى على وجه الأرض. بعضهم كانوا يخافون بيو العجوز، وبعضهم كانوا يخافون فلينت، ولكن فلينت نفسه كان يخافني، لقد كان خائفاً وأيباً. كان رجال فلينت أشرس طاقم أبحر يوماً، وحتى الشيطان كان سيخشى الإبحار معهم. ولكن دعني أخبرك، أنا لست بمتبجح، وها أنت ترى بنفسك كم هي يسيرة رفقتي، غير أني عندما كنتُ أمر انضباط كنتُ شرساً، إذ لم يكن ثمة من حملان بين قراصنة فلينت. عليك أن تثبت جدارتك وأنت في سفينة جون فلينت العجوز.

أجاب الشاب:

- حسناً، لم أكن ولا ربع متحمّس بشأن هذا العمل، حتى حظيت بهذا الحديث معك، يا جون. وهاك يدي لأضعها بيدك.

أجاب سيلفر:

- يا لشجاعتك وذكائك، ما رأيت عيناى أسمى منك نموذجاً من القراصنة.

ثم أخذنا يتصافحان بحرارة حتى اهتزّ البرميل بكامله.

عندها استوعبت تماماً المعنى الحقيقي لكلماتهم، فسادة الحظ ليسوا سوى القراصنة، وكان المشهد الصغير الذي رأيته هو آخر فصل في المسرحية التي تهدف لإفساد رجل شريف، وربّما كان هذا آخر الشرفاء على متن السفينة. ولكن سرعان ما أسعفتني من تفكيري هذا، تصفيرة صغيرة أطلقها سيلفر، فجاء على إثرها شخص ثالث وانضم للمجموعة.

قال سيلفر:

- ديك معنا.

فأجاب صوت سائس الدفة، إزريال هاندز:

- أعرف أن ديك معنا، فهو ليس بأحمق.

ثم أدار مضغّة التبغ في فمه وبصق، وأكمل قائلاً:

- ولكن اسمعني يا باربيكيو، حتام سنظل مراوحين في مكاننا

وكأننا قوارب بوم بوت لعينة؟^(١) لقد ضقتُ ذرعاً بالقبطان سموليت، وقد نالني منه من الإزعاج ما يكفيني، بحق السماء! لكم أرغب بدخول المقصورة، أريد مخللاتهم ونيذهم وكلّ ذلك.

قال سيلفر:

- ما كان لرأسك أيُّ نفع، أبدأً، وحسبي فائدة أذنك الكبيرتين، فاسمع كلامي وأطع: ستظل حيث أنت، وستحمل عناء العيش، وستكلم بلطف، وستبقى يقظاً، وليكن بعلمك يا بني سيستمّر هذا حتى أصدر أمري.

زجر سائس الدفة:

- أنا لا أعترض، أتراني فعلتُ ذلك يوماً؟ كلّ ما أستفهم عنه هو متى سيكون ذلك؟ هذا كلّ ما أقوله.

صاح سيلفر:

- أتسأل متى! بحق السماء! حسناً سأخبرك متى سيكون ذلك. عندما يكون بإمكانني السيطرة على زمام الأمور، فعندك القبطان سموليت، بحّار من الطراز الأول، وهو الذي يسيّر السفينة. وعندك الملاك والطبيب، اللذان بحوزتهما الخريطة ولا علم لي أيّ واحد منهما يحملها، وبحسب علمي أنت

(١) Bumboat: قوارب الزبالين، كانت تستخدم لإزالة الفضلات والأوساخ من السفن التي ترسو في نهر التايمز، أو تحمل المؤن إلى السفن، أكشاك طافية، وتأتي التسمية من boom-boat وهي القوارب التي تربط تحت أذرع الصواري في الميناء.

أيضاً تجهل ذلك. لذا سيتحتّم على الملاك والطبيب أن يعثرا على الكنز، ويساعدان في تحميله على السفينة. وحتى أتأكد من سلامة طويتكم يا أبناء الهولنديين الحمقى، فسيبحر بنا القبطان سموليت إلى منتصف مسافة العودة، وعندها سأضرب ضربتي.

قال الفتى ديك:

- ولم تشكّ فينا؟ أو لسنا جميعنا بحّارة سواسية على متن السفينة؟

قال سيلفر بسخرية:

- تقصد أننا جميعنا بحّارة مقدّمة. يمكننا أن نسلك مساراً، لكن من هو الذي يحدّده؟ أو ليس هذا هو جُلّ ما يأتي بالشقاق بينكم، دائماً وأبداً؟ إنني إذا نفذت خطتي سأجعل القبطان سموليت يعيدنا إلى مسرى الرياح التجارية على الأقل، عندئذ لن يكون لنا أن نقلق بشأن الحسابات الخاطئة اللعينة ولا بشأن أن نتوه في عرض البحر فنجد أنفسنا نشرب ماء بمقدار ملعقة طعام في اليوم. لكنني خبير بأمثالكم. لذا سأضطر للتخلّص منهم في الجزيرة حالما يكون الكنز على السفينة. بيد أنه لن يرضيكم غير السكر والعريضة. الويل لي، قلبي العليل لا يحتمل الإبحار مع أمثالكم!

صاح إزريّال:

- على رسلك يا جون، من ذا الذي يجرّؤ على معارضتك؟

صاح جون:

- برأيك، كم سفينة طويلة شهدتها تتحطم؟ وكم بحاراً متمرساً شهدته معلقاً في منصة الإعدام تحت الشمس؟ والسبب في ذلك كان العجلة، العجلة، العجلة، هل فهمتما؟ لقد خبرت البحر طويلاً، وشهدت الكثير من الأحداث فيه. فلو أنكم رسمتم مساراً وتمسكتكم به وأشرتم إلى الريح، فإن المال من نصيبكم، وسوف تركبون في العربات الفارهة. ولكنكم لن تفعلوا ذلك! أنا ضليع بكم، إذ أنكم ستشربون الروم حتى تمتلئون، ثم ستساقون إلى المشنقة.

قال إزريال:

- يعرفك الجميع بنحو ما كقسيس يا جون. ولكن ثمة آخرين قادرين على الملاحة والقيادة مثلك، ولو أنهم يميلون للهو، فهم بأية حال ليسوا بمتعالين ولا جاقين، لكنهم يحصلون على نصيبهم من المائدات، مثل أية صحبة في المرح، مثل الجميع.

قال سيلفر:

- هكذا إذن، وأين هؤلاء الآن؟ لقد كان ييو من هذا النوع، ومات كشحاذ، فلينت أيضاً، ومات من فرط شرب الروم في السافانا. لقد كانوا صحبة طيبين في المرح ولكن، أين هم الآن؟

سأل ديك:

- وماذا نحن فاعلون بهم إذا ما هاجنناهم؟

صاح الطباخ متعجباً:

- هذا هو الرجل الذي أنشده! هذا ما أدعوه بالعمل. وما ظنك؟ أنخلفهم على الشاطئ مثل المارونيين؟^(١) هذه هي طريقة إنغلاند، أو نقطعم إرباً كلحم الخنزير؟ وهذه طريقة فلينت وبيلي بونز.

قال إزريال:

- ببلي هو الرجل المناسب لمثل هذه المهمة، لقد اعتاد أن يقول إن الموتى لا يعضون^(٢)، وهو الآن قد مات، لذا صار يفقه جوهر قوله أكثر. وإذا كان ثمة من بحار قاسٍ بلغ الميناء، فذلك هو ببلي.

قال سيلفر:

- أنت محقّ. لقد كان رجلاً قاسياً ومستعداً للإقدام على أية فعلة. ولكنني، وانتبه لهذا، سمح الطباخ، رجل نبيل حقيقي، بحسب قولك. إلا أن الأمر خطير هذه المرة. الواجب واجب، وعندما يمين الوقت سأصوت مع قتلهم. لأنني أخشى يوماً،

(١) Maroons: Marooning هي عقوبة نفي البحارة التمرديين في منطقة غير مأهولة، كأن تكون جزيرة.

(٢) تعني أن الحل الأفضل هو القتل، لأن الموتى لا يعودون للحياة، ولذا فهم لا يشكّلون أي مصدر تهديد.

عندما أصبح في البرلمان وأركب عربتي، أن يعود إلى الديار
أي من رجال القانون البحري أولئك الذين في المقصورة،
فياغتوني، كما يتربص الشيطان للمؤمن في صلاته. نصيحتي
هي التمهّل، ولكن عندما يحين الوقت ستكون ساعة حسم
وقضاء.

صاح سائس الدفة:

- نعم الرجل أنت يا جون!

قال سيلفر:

- ستقول ذلك عني عندما ترى بعينيك ما أنا فاعل يا إزريال.

ثم أضاف:

- إلا أنني لا أطلب إلا بشيء واحد، أنا أطلب بتريلاوني.

سأفصل رأسه الشبيه برأس العجل عن جسده بهاتين اليدين

يا ديك!

وأردف بعد أن سكت هنيهة:

- هيا يا ديك، انهض وكن فتى طيباً، وآتني بتفاحة لأرطبّ بها

فمي.

ولكم أن تتخيّلوا مقدار الهلع الذي أصابني! ولو كانت قد

ظلت عندي أية قوة لو ثبت خارج البرميل وركضت، إلا أنّ أطرافي

خذلّتي، وقلبي على حدّ سواء. سمعتُ ديك يشرع بالنهوض، ثم

بدا وكان أحدهم قد أوقفه، وكان ذلك صوت هاندز يهتف:

- أوه، دعك عن هذا، ولا تأخذ شيئاً من قعر ذلك البرميل
العفن يا جون. فلنشرب الروم.

قال سيلفر:

- هلم يا ديك إني مطمئن إليك، هاك خذ المفتاح واملاً قدحاً
بالروم وعُد به إلينا. وأذكرك بأنني قد وضعت على البرميل
الصغير مقياساً.

ورغم خوفي الشديد، إلا أنني لم يكن في وسعي إلا أن أفكر بأن
هذه لا بد أن تكون الوسيلة التي كان يأتي منها السيد آرو بشرابه
القوي الذي أودى بحياته.

خلال فترة غياب ديك همس إزريال في أذن الطباخ، ولم ألتقط
من حديثه سوى كلمة أو اثنتين، بيد أنني تمكنت من جمع بعض
الأخبار المهمة منهما، إذ بالإضافة إلى ما وصل إلى سمعي من كلمات
مشتتة تدور في نفس الغرض، فإنني سمعتُ هذه العبارة كاملة:
«ولا واحد آخر منهم سينضم إلينا».

وهكذا تيقنت من وجود بضعة رجال على متن السفينة، ما
زالوا مخلصين.

عندما عاد ديك بقدرح الروم، أداروه فيما بينهم وصار كل منهم
يأخذ رشفة، قال واحد:

- فلنشرب نخب الحظ.

وقال آخر:

- فلنشرب نخب فلينت العجوز.

أما سيلقر فقد جعل يُنشد ما يشبه الأغنية:

فلنشرب الأنخاب ولتترك الـ ريحُ تقودُ وجهةَ الأشرعة
ففي انتظارنا هباتٌ لنا فطائرٌ وأكؤسٌ مترعة

وهنا، شعّ ضوء عليّ في البرميل، وحينما رفعتُ بصري رأيتُ
القمر وقد تجلّى وصبّ نوره الفضي على منصة صاري المؤخرة، وقد
كسا بياضه حافة الشراع الأمامية، في تلك اللحظة صاح صوت
المراقب من أعلاها:

- هوو! إنها اليابسة يا رجال.

(١٢)

مجلس الحرية

كانت هنالك جلبة عظيمة من وقع الأقدام على سطح السفينة. كنتُ أسمع الرجال يعدّون مسرعين من المقصورة إلى المقدمة، فانسَلتُ بسرعة خارج برميلى، واندفعتُ خلف الشراع الأمامي ثم التفتتُ إلى حيث الكوئل، وخرجتُ إلى السطح في الوقت المناسب لكي أنضمّ إلى هانتر والطبيب ليفزي في هرولتهم نحو المقدمة المواجهة للريح.

وجدتُ كل البحارة متجمّعين هناك، وقد انزاح حزامٌ من الضباب في نفس الوقت مع انبلاجة القمر، فرأينا في الجهة الجنوب غربية تَلين منخفضين بعيدين، يفصل بينهما نحو ميلين اثنين، وينهض خلف أحدهما تَلٌ ثالث عالٍ، مازال الضباب يَلْف قمته، وبدت التلال الثلاثة حادةً ومخروطية الشكل.

ومن شدّة وقع ما رأيتُ كنتُ وكأني في حلم، إذ لم أكن قد تعافيتُ من هول الخوف الذي عايشته قبل دقيقة أو اثنتين. ومن ثم سمعتُ صوت القبطان سموليت يصدر أوامره. كانت الهيسپانيولا

تبحر بدرجتين أقرب من مسرى الريح، وصارت الآن تتبع مساراً
من شأنه أن يكشف عن الجزيرة بوضوح من جهة الشرق.

عندما كانت الأشعة مشدودة على مسارها باتجاه اليابسة، قال
القبطان:

- يا رجال، هل سبق لأحدكم أن رأى هذه الأرض التي أمامنا
من قبل؟

قال سيلفر:

- أنا رأيتها يا سيدي، لقد أبحرت بالقرب من هنا في سفينة
تجارية كنتُ طبّاحاً فيها.

سأل القبطان:

- وأعتقد أن المرسى يقع جنوباً، خلف جزيرة صغيرة، أليس
كذلك؟

- آي يا سيدي، وهم يسمونها جزيرة الهيكل العظمي، لقد
كانت مرتعاً للقراصنة فيما سبق، وقد كان معنا بحار في
السفينة التجارية يعرف كلّ اسمائها، فتلك التلة الشمالية
يطلقون عليها اسم تلة الصاري الأمامي، وهنالك ثلاث
تلات متتاليات تمتد جنوباً، واحدة تدعى تلة صاري المقدمة
والتلة الأخيرة تدعى تلة صاري المؤخرة. أمّا يا سيدي عن
ذلك التل الكبير الذي يغطيه الضباب فيدعى بتل السباي
غلاس، لأنهم اعتادوا أن يضعوا نقطة مراقبة أعلاها أثناء رسو

السفن لتنظيفها، إذ أتهم هناك في المرسى ينظفون السفن، يا سيدي، وأرجو المعذرة.

قال القبطان:

- لدي مخطّط هنا، انظر إذا ما كان هو المكان بعينه.

أبرقت مُقلتا جون الطويل في رأسه عندما تناول المخطّط، ولكن بنظرة واحدة على الورقة أدركتُ أنه محكوم بالخيبة، فهذه لم تكن الخريطة التي وجدناها في صندوق بيلى بونز، بل نسخة طبق الأصل عنها، كاملة من كلّ النواحي: أسماء، وارتفاعات، وسُبر، ما عدا استثناء وحيد وهو الصليبان الحمر والملاحظات المكتوبة. ولا بدّ من أن امتعاضه كان شديداً إلا أنّ سيلشر كان عنده من قوة العقل ما مكّنته من كتمانها.

فقال:

- نعم يا سيدي، هذا هو المكان، بالتأكيد، وقد تمت إعادة رسمه بطريقة متقنة. وأتساءل، من ذا الذي قام بهذا؟ فالقراصنة على حدّ علمي في غاية الجهل. أجل هذا هو المكان، فهذا مرسى القبطان كيد^(١) كما أسماه البحّار الذي كنتُ برفقته، ثمّة تيّار قويّ يجري جنوباً، ومن ثم بعيداً إلى شمال الساحل الغربي. أنت محقّ يا سيدي في اغتنام الرياح إلى الجزيرة، إذا

(١) Capt. Kidd's Anchorage: ويليام كيد (١٦٤٥-١٧٠١) قبطان بريطاني صار قرصاناً يُقال أنه دفن كنزاً في جزيرة غاردنر، في جزيرة لونغ آيلاند في نيويورك.

كان في نيتك أن تميل بالسفينة^(١)، فليس هنالك من مكان أفضل من هذا لتحقيق غرضك في مثل تلك المياه.

قال القبطان سموليت:

- شكراً لك يا صاح، سأطلب مساعدتك لاحقاً، يمكنك الانصراف الآن.

ولقد فاجأني فتور جون وهو يعترف بلمامه بالجزيرة، وأقرت أنني كنتُ خائفاً عندما رأيته يدنو مني. لم يكن يعرف بالتأكيد أنني سمعته من برميل التفاح في مجلسه، ومع ذلك فقد نال مني الرعب من قسوته، ونفاقه، وقوته، لذا كنتُ بالكاد قادراً على إخفاء رعدة سرت في جسدي عندما وضع يده على ذراعي.

قال:

- نعم، إنها لبقعة من الأرض عذبة هذه الجزيرة، بقعة عذبة سيبتهج فتى مثلك بالنزول على ساحلها. سوف تستحم وتتسلق الأشجار وتصطاد الماعز، وستصعد أعلى تلالها مثلك مثل تلك الماعز. إن هذه الجزيرة تعيدني شاباً من جديد، حتى لا أكاد أذكر ساقبي الخشبية، لكم هو شيء مفرح أن يكون المرء فتياً وبساقين، كن على يقين من قولي. لو رغبت بالقيام بشيء من الاستكشاف والتجوال حول الجزيرة، فما عليك إلا أن تطلب المساعدة من جون العجوز،

(١) careen: تميل السفينة إلى جانب واحد على الساحل من أجل تنظيفها.

وساعدك شيئاً من الطعام لتأخذه معك.

ثم ربت على كتفي بودٍ حافل، ومضى يعرج في طريقه للنزول إلى الأسفل.

كان كلٌّ من القبطان سموليت والملاك والطبيب ليقرزي منخرطين في حديث على سطح السفينة الخلفي، ورغم أنني كنت متلهفاً لإخبارهم بقصتي، إلا أنني لم أجروء على مقاطعتهم علانية. وفيما كنتُ أبحث عن عذر مناسب دعاني الطبيب ليقرزي إلى جانبه. كان قد ترك غليونه في الأسفل، ولأنه كان عبداً للتبغ، فقد كان يريد مني أن آتبه بغليونه، على أي ما أن وجدتُ نفسي وقد دنوتُ قريباً للتحدث معه دون أن يستمع إليّ أحد، حتى بادرتُ قائلاً:

- أيها الطبيب، أودّ الحديث معكم، خذ القبطان والملاك إلى المقصورة، ثم اختلق عذراً للإرسال في طلبي. عندي أخبار فظيعة.

تغيرت ملامح الطبيب لوهلة، ولكنه سرعان ما تمالك نفسه. فقال بصوت عالٍ:

- شكراً لك يا جيم. هذا كل ما كنت أرغب في معرفته.

كما لو أنه كان قد طرح عليّ سؤالاً وأجبتّه.

ويقوله هذا، انقلب على عقبيه وانضمّ إلى صاحبيه، فتحدّثوا قليلاً. وعلى الرغم من أن لا أحد منهم قد جفل أو رفع صوته أو حتى صفر، لكن كان من الواضح أن الطبيب قد أعرب إليهم

عن طلبي، لأن الشيء التالي الذي سمعته كان صوت القبطان وهو يصدر أوامره إلى جوب أندرسون ليستدعي كل البحارة إلى السطح.

قال القبطان سموليت:

- يا رفاق، عندي كلمة لأقولها لكم. إن هذه الجزيرة التي رأيناها هي المكان الذي كنا ننشده في رحلتنا. ولأن السيد تريلاوني رجل جزيل العطاء والكرم، كما نعلم جميعاً، فقد سألني سؤالاً أو اثنين عنكم، ولما أخبرته أن كل رجل على متن هذه السفينة قد أدى واجبه على وجه أكمل مما تمّنت، لذا ستتوجه أنا وهو والطبيب إلى المقصورة في الأسفل لنشرب في صحتكم ونخب حظكم، وسيكون عندكم الغرغ لتشربوه في صحتنا ونخب حظنا. إنني لأظنّ أنّ هذا أمراً جميلاً، وإذا كنتم تعتقدون بمثل اعتقادي، فلتهتفوا بهتاف البحر، للرجل الذي حقّق ذلك.

ثم وبالطبع تعالت أصوات الهتافات، ولكنها دوّت جهيرة وحارة، حتى راودني الشكّ في كونهم نفس الرجال الذين كانوا يمحكون مؤامرة لسفك دمائنا.

صاح جون عندما سكن الهتاف الأول:

- اهتفوا مرة أخرى للقبطان سموليت.

فارتفع الهتاف مرة أخرى بكل حماس.

وفي ذروة الهتاف، نزل الرجال الثلاثة إلى الأسفل، ولم يطل الوقت حتى أرسلوا في طلب جيم هوكينز إلى المقصورة.

وجدتُ الثلاثة جالسين حول الطاولة وأمامهم زجاجة من النبيذ الإسباني وبعض الزبيب. كان الطبيب يدخن غليونه وباروكته في حجره، وتلك إشارة كنتُ أعرف منها أنه كان مضطرباً. كانت النافذة مفتوحة، إذ كانت الليلة دافئة، ويمكن للمرء أن يرى انعكاس القمر وهو يتلألأ على أثر السفينة في الماء.

قال الملاك:

- والآن يا هوكينز، لديك ما تقوله، فهات ما عندك.

وبقدر ما أستطيع من الإيجاز، تحدثتُ عن كلِّ ما أعرفه من تفاصيل بشأن ما سمعتُ من حديث سيلفر. فلم يقاطعني أحد ولم يتحرك قيد أنملة حتى انتهيت، فقد كانت عيونهم مسّرة على وجهي من البداية حتى النهاية.

قال الطبيب ليثزي:

- اجلس يا جيم.

جعلوا لي مكاناً بينهم على الطاولة، وصبّوا لي كأساً من النبيذ، وملّؤوا يديّ بالزبيب، ثم شرب الثلاثة، واحداً تلو الآخر نخب صحتي، وانحنى كلُّ واحدٍ منهم تقديراً لشجاعتِي وحظي.

قال الملاك:

- لقد كنتَ على حقٍ يا قبطان، وكنت أنا على خطأ. وإنني

أعترف بأنني كنتُ مغفلاً. وأنا الآن طوع أمرك.

أجاب القبطان:

- لستَ بمغفلٍ أكثر مني يا سيدي. لم أرَ من قبل طاقماً كان يضمّر نيّة العصيان إلا وأظهر علائم مسبقة على ذلك، فإذا ما تجلّى الفساد أمام رجل ذي بصيرة، فسوف يتدبّر أمرهم..

سكتَ هنيهة ثم أردف:

- إلا هذا الطاقم، فقد هزمني.

قال الطبيب:

- عن إذنك يا قبطان، إن هذا كلّه من تدبير سيلفر، إنّه رجل استثنائي.

أجاب القبطان:

- وسيبدو استثنائياً وهو معلق على مشنقة أعلى الصاري^(١). ولكن هذا محض كلام، ولا يقود إلى نتيجة. هنالك ثلاث أو أربع نقاط، سأقولها لو أذن لي السيد تريلاوني.

قال السيد تريلاوني بوقار:

- أنت يا سيدي هو القبطان. إنّه أمرٌ لك بأن تتحدّث.

قال القبطان:

(١) yard-arm: ذراع ممتدة بصورة أفقية أعلى الصاري الرئيسي، وهي التي تثبت الأشرعة والحبال، وتستعمل لإطلاق إشارات التحذير أو للشنق.

- النقطة الأولى، هي أن علينا أن نمضي قُدماً إذ لا يمكننا التراجع، فإن أعطيت أمراً بتغيير مسارنا والعودة فإنهم سيثورون من فورهم. النقطة الثانية، ما زال أمامنا متسع من الوقت، على الأقل حتى العثور على هذا الكنز. النقطة الثالثة، ثمة بحارة مخلصون. ويجب أن تعرف يا سيدي أنه لا مفر من قتالهم عاجلاً أم آجلاً، وأقترح أن نمسك الوقت من ناصيته، كما يقول المثل، أي أن نغتنم الفرصة ونباغتهم بالهجوم في وقت لا يخطر لهم ببال. وأظننا قادرون على الاعتماد على رجالك يا سيد تريلاوني، أليس كذلك؟

قال الملاك:

- بلا ريب، ومثلما تعتمد عليّ.

قال القبطان:

- هم ثلاثة رجال، ونحن، بالإضافة إلى هوكينز، سنصبح سبعة. والآن ماذا عن البحارة المخلصين؟

قال الطبيب:

- هؤلاء في الأغلب هم الرجال الذين اختارهم تريلاوني، قبل أن يلتقي سيلفر ويعتمد عليه في اختيار البقية.

أجاب الملاك:

- كلا، هاندز واحد من الذين اخترتهم.

أضاف القبطان:

- لقد حسبت أنه بإمكانني الاعتماد على هاندز.

أضاف الملاك:

- ولتحسبهم رجالاً إنجليزين بحق! لكم أودّ من قلبي يا سيدي لو أني نسفت هذه السفينة.

قال القبطان:

- حسناً يا سادة. ليس عندي ما أضيفه. علينا أن نأخذ الأمور برويّة، إذا سمحتم، وأن نحترس، ولو أنني أعرف أنّ الانتظار أمر يرهق المرء، كما وأعرف أنّ قتالهم سائغ للنفس، ولكن ذلك سيكون بلا طائل حتى نتيّن رجالنا. اصبروا وصفروا للريح، هذا هو رأيي.

قال الطبيب:

- جيم هو خير عون لنا، فالرجال لا يتحفظون من شيء أمامه، وهو فتى ثاقب البصر والبصيرة.

أضاف الملاك:

- أنا واضع فيك ثقة عظيمة يا هو كينز.

وبهذا الحديث، بدأ اليأس يدب في أوصالي، لأنني شعرتُ بالعجز التام، بيد أنّي، وبترتيب غريب للأحداث التي صادفتُ، كنتُ السبب في نجاتنا.

في غضون ذلك، ولو أننا قلنا ما شئنا من الكلام، فإن الحقيقة

هي أن ليس هنالك إلا سبعة يمكننا الاعتماد عليهم من مجموع ستة وعشرين رجلاً، وأحد هؤلاء السبعة فتى، إذن فقد كان في جانبنا ستة من الرجال البالغين مقابل تسعة عشر رجلاً منهم.

الجزء الثالث

مغامرتي الساحلية

كيف بدأت مغامرتي الساحلية

لقد رأيتُ منظر الجزيرة وقد تغيّر كلياً عندما صعدتُ إلى سطح السفينة في الصباح التالي. ومع أن النسيم كان قد سكن تماماً، إلا أننا كنا قد قطعنا شوطاً كبيراً خلال الليل، وها نحن الآن هامدون في مكاننا دون رياح على بعد نصف ميل إلى الجنوب الشرقي من الساحل الشرقي المنخفض. كانت هنالك غابات رمادية تغطي جزءاً كبيراً من أرض الجزيرة، وقد تخلّلت هذا اللون المتجانس خطوط من الرمل الأصفر في الأراضي المنخفضة، والعديد من أشجار الصنوبر السامقة التي تطاول غيرها من الأشجار، زُمرّاً وفُرادى، ولكن في العموم كان لون الجزيرة موحداً وحزيناً. كانت التلال تنتصب واضحة للعيان كأبراج من صخور عارية فوق الخضرة، وكلّها غريبة الشكل، وكان تلّ السپاي غلاس يعلو على بقية التلال في الجزيرة بحوالي ثلاثمائة أو أربعمائة قدم، وكان هذا التلّ هو الأغرب من بين البقية في تكوينه، إذ كان يرتفع عمودياً من كل جوانبه تقريباً، ومن ثم تنبسط قمّته فجأة وكأنها قاعدة لتمثال.

كانت الهيسبانيولا تتدحرج في الأمواج لدرجة أن فتحات
تصريف الماء الفائض في بدنها كانت مغمورة تحت سطح المحيط،
وأذرع الصواري كانت تمخبط على الحواجز، والدفة كانت تهتز إلى
الخلف والأمام، وكانت السفينة بكاملها تصرُّ وتئن وتقفز وتقرقع
مثل مصنع جياش. فكان عليّ أن أتشبث بقوة إذ خيل لي أن العالم
يدور، رغم أنني كنتُ بحاراً لا بأس به عندما كنتُ نبحر، بيد أن
هذا السكون والتدحرج كزجاجة هنا وهناك، كان شيئاً لم أعتد عليه
دون غثيان أو ما شابه، وخصوصاً بمعدة فارغة في الصباح.

لعلّ هذا هو السبب، ولعلّه كان منظر الجزيرة بغاباتها الكثبية
وأبراجها الصخرية العارية والأمواج التي كنتُ نسمعها ونراها ترعد
وتزبد على الساحل شديد الانحدار، بالرغم من أنّ الشمس قد
أشرفت ساطعة وحارة، وطيور الشاطئ كانت تصطاد وتصخب.
وكنتم ستظنون، أو أن أيّ امرئ كان سيظنّ بأنّ المرء سيسعده أن
يطأ اليابسة بعد أن مكث في البحر طويلاً، إلا أنا، فقد كان قلبي
يغرق في جزمي، ومن أول نظرة ألقيتها عليها فقد كرهت جزيرة
الكنز كرهاً شديداً.

كان أمامنا صباح شاق من العمل، إذ لم يكن ثمة من علامة
على أن الرياح ستهب قريباً، لذا توجب إنزال القوارب وملؤها
بالرجال، لسحب السفينة لثلاثة أو أربعة أميال حول زاوية الجزيرة
صعوداً إلى الممر الضيق المؤدي إلى المرسى خلف جزيرة الهيكل
العظيمي. تطوعتُ للركوب في أحد القوارب إذ لم يكن عليّ أداء أي

عمل بالطبع. كان الجو قاتظاً وقد تدمر الرجال بفضاظة من عملهم. كان أندرسون هو قائد قاربي، وبدلاً من أن يحافظ على النظام بين الرجال، أخذ يتدمر هو الآخر وبصوت أعلى من البقية.

قال بعد أن أطلق شتيمة:

- حسناً، لا بأس، لن يدوم هذا الشقاء إلى الأبد.

ولقد حسبت أن هذا نذير شؤم، إذ كان الرجال، وحتى ذلك اليوم، ينجزون مهامهم بدأب وهمة، بيد أن مرأى الجزيرة بحد ذاته كان قد أرخى حبال الانضباط.

خلال كل ذلك الوقت كان جون واقفاً إلى جانب قائد الدفة ويوجه القارب، إذ أنه كان يألف الممر ويحفظه كراحة يده، وبالرغم من أن الرجل المكلف بقياس أعماق المياه كان يجد حينها يذهب مياهاً أعمق من المبيّنة في المخطط^(١)، إلا إن ذلك لم يدفع جون إلى الشك والتردد قط.

قال:

- هنالك تيار قوي يأتي مع المد وقد حفر ممراً عميقاً، وكان مجرفة قد سوّته ومهدّته، كما يقال.

وصلنا إلى النقطة حيث كان المرسى في المخطط، بنحو ثلث ميل من كل ساحل، كان البر الرئيسي من جهة وجزيرة الهيكل العظمي من الجهة الأخرى، وكان القاع من الرمل النظيف. وقد

(١) يقاس عمق الماء من خلال حبل مثقل بقطعة رصاص.

أجفل صوت إلقاء مرساتنا في الماء الطيور فقرّت كالغيوم نحو أعالي الغابات وهي تصيح، إلا أنها في أقل من دقيقة عادت فحطّت على الأرض، ثم خيم الصمت على المكان ثانية.

كان المكان محاطاً باليابسة تماماً، ومدفوناً بعمق في وسط الغابات، حيث تمتد الأشجار حتى تصل إلى أعلى نقطة وصل إليها ماء المدّ. كان الساحل منبسطاً في أغلبه، وتتصب قمم التلال حول المكان متخذة شكل مدرج لمسرح روماني، واحدة هنا وأخرى هناك. كان هنالك رافدان، أو بالأحرى مستنقعان، يصبّان في هذه البركة، إذا شتتم تسميتها بهذه الصفة. وكانت خضرة أوراق الشجر حول ذلك الجزء من الساحل ذات وهج ساطع. وكان من المتعذر علينا أن نرى من على السفينة أي وجود لمنزل أو مخزن، إذ كانا مدفونين بين الأشجار، ولولا وجودها على المخطّط لقلنا إنّنا أول من أرسى هناك مذ نهضت الجزيرة من البحر.

لم تكن ثمة من نسمة هواء تهب، ولا من صوت يُسمع باستثناء ما تناءى من هدير الأمواج على الصخور في الخارج على بعد نصف ميل. كانت هنالك رائحة تننة غريبة عالقة في المرسى، ولعلّها رائحة الأوراق المنقوعة وجذوع الأشجار المتفسخة. ولقد راقبت الطيب يتشّم ويتشّم مستاءً، كشخص يتذوق بيضة فاسدة.

قال:

- لا يقين لي بوجود كنز هنا، لكنني مستعدّ لأن أراهن بباروكتي على وجودهمى.

وإذ كان سلوك الرجال في القارب مريباً، فقد صار مهدداً بحق
عندما عدنا إلى السفينة. كانوا يستلقون على السطح ويتذمرون
في أحاديثهم. وكانوا يتلقون حتى أصغر الأوامر بنظرات قائمة
ويطيعونها على مضض وبلا مبالاة. ولقد سرت العدوى حتى بين
الرجال المخلصين، إذ لم يعد على متن السفينة رجل يقوم ويصلح من
أمر صاحبه. وأصبح جلياً أن العصيان قريب، ويجوم فوق رؤوسنا
كسحابة رعد.

لم نكن وحدنا عصابة المقصورة من أدركنا الخطر المحقق
أمامنا، بل كان جون الطويل على أشد ما يكون من الجدبة والدأب،
فقد ظلّ ينتقل من مجموعة إلى أخرى، لإسداء النصح والإرشاد،
ولم يكن لرجلٍ أن يكون قدوة حسنة أكثر منه. لقد تفوق بالسماحة
والكياسة، وكان لا يفتر عن مقابلة الجميع بالابتسام. فإذا ما أُصدر
أمر ما، راح جون الطويل على عكازته ومن فوره مردداً: «آي،
آي، سيدي!»، بأكثر نبرة طافحة بالمرح في العالم، وعندما لا يكون
أمامه عمل ليؤديه، كان ينشد أغنية تلو أخرى، وكأنه يريد أن يخفي
سخط البقية.

ومن بين كلّ المظاهر الكثيبة في عصر ذلك اليوم الكئيب، بدا
أنّ أسوأها هو القلق الواضح من جانب جون الطويل. لذا عقدنا
مجلساً في المقصورة.

قال القبطان:

- إذا جازفتُ بإصدار أي أمر آخر، لأحاط بنا بحارة السفينة

كلهم في لحظة، كما ترى. والأمر يا سيدي هو أنهم يجيبون
بفظاظة وشراسة، وإذا رددت عليهم القول، ستتوالى طعنات
الحراب في لمحة، وإن لم أفعل فإن سيلفر سيلحظ وجود
خطب ما، وبذا ستتكشف اللعبة. والآن لم يبق عندنا إلا
رجل واحد لنعتمد عليه.

سأل الملاك:

- ومن يكون هذا الرجل؟

أجاب القبطان:

- إنه سيلفر يا سيدي، فهو متلهف مثلي ومثلك لإخاد فتيل
الفتنة. ولو أتاحت له الفرصة لبادر إلى أن يتحدث مع
البحارة لثنيهم عن هذه المشاحنة، لذا أقترح أن نعطيه هذه
الفرصة، وذلك بأن نسمح للرجال بإمضاء عصر اليوم على
الساحل. فإذا ذهبوا كلهم فسوف نقاتل من السفينة، وإذا لم
يفعلوا فسنلزم المقصورة، والرب سيحمي أهل الحق. أما إذا
ذهب بعضهم، فكن على يقين يا سيدي، أن سيلفر سيعيدهم
إلى السفينة وديعين كحملان.

وهكذا تقرر الأمر، فوزعت الأسلحة المذخرة على الرجال
المخلصين: هانتر، جويس، وريديروث، الذين كانوا من ثقاتنا،
وقد تلقوا الأخبار دون أن يتفاجؤوا، وبروحية أعلى مما كنا نأمل،
ومن ثم صعد القبطان إلى سطح السفينة وخطب في الرجال قائلاً:

- يا رفاقي، لقد مررنا بيوم حار ومجهد، وكلنا الآن منهكون

وفاترو الهمم. لذا، فإن جولة على الساحل ستفيدكم، عندكم قوارب الغيغ التي ما زالت في الماء^(١)، ولكم أن تأخذوها، ولينزل من شاء منكم عصر اليوم. على أيّ قبل نصف ساعة من غروب الشمس سأطلق من مسدسي رصاصة إشارة لترجعوا.

وأحسب أنّ هؤلاء البحارة السذج ظنّوا أنّهم سيكسرون سيقانهم ما أن يطؤوا الأرض من سرعة هرولتهم واحتشادهم إلى الكنز، إذ أنّ عبوسهم انقلب في لحظة إلى بهجة، وهتفوا عالياً حتى دوى الصدى في تلّ بعيد فأجفل الطيور ثانياً واندفعت تحلق صائحة حول المرسى.

وكان القبطان أكثر فطنة من أن يقف في طريقهم، فما كاد ينتهي من خطابه حتى اختفى عن الأنظار في لحظة، تاركاً لسيلفر أمر تنظيم الجمع، وأظن أنه قد أحسن صنيعاً بفعلته تلك، فلو بقي على سطح السفينة، لما عاد بإمكانه أن يتظاهر بعدم إدراكه حقيقة الوضع، فقد كان واضحاً كالشمس أن سيلفر هو القبطان، وتحت إمرته طاقم من البحارة العتاة. أمّا البحارة المخلصون - وسرعان ما سيثبت لي وجود بحارة مخلصين معنا على السفينة - فقد كانوا في غاية الغباء، أو بالأحرى فالحقيقة هي: إنّ كل البحارة كانوا ساخطين متأثرين بزعماء العصاة، ولكن هذا التأثير كان متفاوتاً بين طفيف وشديد، ولما كانوا أحياناً في أصولهم، فلم يكن بالإمكان

(١) Gigs: قارب طويل وخفيف ورشيق.

إغواؤهم أو تضليلهم. وشتان بين الأمرين؛ أن يكون المرء عاطلاً ومتكاسلاً فهذا شيء، وبين أن يستولي على سفينة ويقتل عدداً من الرجال الأبرياء فهذا شيء آخر.

وعلى العموم، فقد تمّ تنظيم العصابة كالتالي: ستة رجال كانوا سيرابطون في السفينة، أمّا البقية، وكانوا ثلاثة عشر رجلاً من ضمنهم سيلفر، فقد بادروا بالنزول.

وهناك قفزت إلى ذهني أولى الأفكار المجنونة التي ساهمت كثيراً في إنقاذنا. فما دام سيلفر كان قد ترك ستة رجال، فمن الواضح أنّ عصبتنا لن يكون بإمكانها أن تقاتل وتستولي على السفينة، ولما كان الباقون هم ستة فحسب، فقد كان جليلاً أنّ عصابة المقصورة ليست في حاجة ملّحة لوجودي. لذا خطر لي في الحال أن أذهب إلى الساحل. وفي لمح البصر كنتُ قد انسلت من السفينة إلى الفراغ الذي بين مقعد المجذّف والمقدمة في أحد القوارب، وفي نفس اللحظة كان قاربنا قد انطلق.

لم يثر وجودي اهتمام أحد إلاّ المجذّف في مقدمة القارب فقال:
- أهذا أنت يا جيم؟ أبقِ على رأسك منخفضاً.

لكن سيلفر الذي كان على القارب الآخر، حدّق عن كذب لكي يتبيّن ما إذا كنتُ أنا على القارب. ومنذ تلك اللحظة بدأ الندم يساورني أسفاً على ما فعلت.

تسابقت القوارب إلى الشاطئ، ولكن القارب الذي كنتُ فيه سبق البقية، إذ كان قد حظي بانطلاقة باكرة، كما كان أقلّها حملاً

وأحكمها إدارة. وهكذا رست مقدمة القارب بين أشجار الساحل،
فتشبَّثتُ بفرع شجرة وتأرجحتُ ثم نزلتُ متوغلاً في أقرب أجمة،
فيما كان سيلفر والبقية خلفنا بهائة ياردة.

وقد سمعته يصيح:

- جيم! جيم!

إلا أني وكما ذهبتُم في افتراضكم، لم أكثرث له، بل هرعتُ
قافزاً، متوارياً، مخترقاً طريقي بين الأجمات، حتى استنزفت ونال
مني التعب، فأحجمت عن أن أستمّر بالركض أكثر.

(١٤)

الضربة الأولى

لقد كنتُ في غاية السرور لأنني تمكّنتُ من الفرار من جون الطويل حتى أنني أخذتُ بالاستمتاع وبدأتُ أرنو بفضول إلى الأرض الغربية التي كنتُ فيها.

كنتُ قد عبرتُ في طريقي مستنقعات مليئة بالصفصاف والبردي وأشجار غريبة من نباتات المستنقعات، حتى وصلتُ إلى حافة أرض مفتوحة، متموجة ورملية، تمتد بنحو ميل، تنتشر عليها بعض أشجار الصنوبر والكثير من الأشجار ملتوية الفروع والجدوع، لا تختلف عن البلوط في نموّها إلا بأوراقها، فهي شاحبة كما أوراق الصفصاف. على الجانب البعيد من الأرض يبرز واحد من التلال وهو ذو قمتين غريبتين المظهر منحدرتين، تشعان بجلاء تحت الشمس.

هنا ولأول مرة، بدأت استشعر لذة الاكتشاف تسري في أوصالي. لم تكن الجزيرة مأهولة، وإذ تركتُ رفاقي البخارة خلفي، فلم يكن أمامي من شيء سوى البهائم والطيور. سرتُ هنا وهناك

من خلل الأشجار، فتارة أجد نباتات مزهرة لا عهد لي بها، وتارة أرى أفاعي، ومرة أطلت أفعى برأسها من حافة صخرة وفتح بوجهي بصوت يشبه هسيس لعبة المرصاع. وكنتُ أجهل وقتها أنّ هذه الأفعى هي عدوّ فتاك، وأن ذلك الهسيس ما كان إلا جلجلتها المعروفة.

ثم وصلت إلى أجمة مديدة من أشجار شبيهة بالسنديان، وعرفت فيما بعد أنها تدعى بالسنديان الحّيّ أو دائم الخضرة، كانت منخفضة تشبه نبات العليق، وكانت أغصانها ملتوية تثير العجب، وأوراقها متراسة ومحتشدة كما لو كانت سقفاً من القش. وهذه الأجمة تمتد من هضبة رملية، وقد أخذت أشجارها تزداد طولاً كلّما تباعدت، حتى وصلت إلى حافة مستنقع عريض مليء بالقصب. وقد كان هذا المستنقع يتبخّر تحت الشمس اللاهبة، ثم لاح ظلّ نلّ السپاي غلاس مرتعشاً خلف ذلك السديم.

وفجأة، حدثت جلبة بين البردي، فإذا ببطة بريّة تطير وهي تصيح، ثم تبعتها بطة أخرى، وسرعان ما حلقت فوق المستنقع بأكمله سحابة كبيرة من الطيور وهي تصرخ وتدور في الهواء. فاستنتجتُ أنّ بعضاً من البحّارة لا ريب قد اقتربوا من حدود المستنقع. ولم يخب ظني، إذ سرعان ما تناهت إلى سمعي أصوات بشرية بعيدة وخفيضة، وقد أخذت الأصوات تزداد وضوحاً وقرباً كلّما أصخت السمع أكثر، فانتابني هلع شديد، دعاني إلى أن أزحف إلى أقرب سديانة جلست القرفصاء تحت ظلّها، ساكناً كفارة ومسترقاً السمع.

ثم سمعتُ صوتاً آخر يجيب الصوت الأول، الذي ميّزت الآن أنه لسيلفر، وكان قد استأنف كلامه فتسيّد الحديث لفترة طويلة، ولم يقاطعه الآخر إلا بين حينٍ وحين. ومن وقع نبراتها في أذنيّ عرفتُ أنّ هنالك شيئاً خطيراً، إذ كانا يتحدثان بجديّة وحِدّة، بيد أنّي لم أتبيّن ولا كلمة من حديثهما.

في النهاية، اتّضح أنّ المتحدّثين قد انقطعا عن الكلام، ولعلّهما كانا قد جلسا، وبدا أنّهما ما عادا يدنوان أكثر، حتى أنّ الطيور أخذت تزداد هدوءاً وعادت لتستقر في أماكنها في المستنقع.

وهنا شعرتُ أنّي كنتُ أهمل واجبي، فما دمتُ بدرجة من الحماقة دعنتي لأن أنزل إلى الشاطئ مع هؤلاء المجرمين، فإن أقل ما يمكنني فعله هو التلصص عليهم في مجلسهم، وهكذا كانت مهمّتي البسيطة والواضحة، هي أن أدنو منهم قدر الإمكان، تحت ستار الأشجار ملتوية الأغصان.

تبيّنتُ بالتحديد اتجاه المتحدّثين، ولم يكن ذلك من خلال صوتيهما فحسب وإنما من خلال سلوك بعض الطيور التي ما زالت تحلّق في حالة تأهب فوق رأسي المتطفّلين.

فزحفتُ على أطراف الأربعة، وتقدّمت بثبات وببطء نحوهما، حتى استطعتُ أخيراً أن أرفع رأسي من خلال فرجة بين أوراق الأشجار، وهناك كان باستطاعتي أن أرى جون سيلفر الطويل وفرداً آخر من الطاقم واقفين وجهاً لوجه يتحدثان في وهدة صغيرة خضراء مغلقة تماماً بالأشجار، بجانب المستنقع.

كانت أشعة الشمس تنصبّ عليها كلياً، فرأيتُ قبعة سيلفر على الأرض إلى جانبه، وكان وجهه الكبير الناعم الأشقر الذي يتوهج من الحرارة، مرفوعاً إلى وجه الرجل الآخر وقد علّته ملامح المناشدة.

كان يقول:

- يا رفيقي أنا أخبرك بهذا لأنّ لك مكانة ثمينة عندي، ثمينة كالذهب، بل وحتى أن قيمة الذهب كالتراب مقابل قيمتك عندي، كن على يقين! وبافتراض أنني كنتُ لا أقيم لك مكانة، أتظنني سأقف في موقفٍ هذا لتحذيرك؟ لقد قُضي الأمر، ولا يمكنك الإتيان على شيء لإصلاحه، وما أنا بمحدّثك إلا لكي تنجو برقبتك، ولو عرف بحديثي هذا أي واحد من أولئك المسعورين، فما تظنه سيكون مصيري يا توم، أخبرني، ما هو مصيري؟

ولاحظتُ أن الرجل الثاني قد امتنع وجهه واحمر، وراحت نبراته ترتعش وتتوتر كحبل مشدود، ثم بادر بالقول وبصوت أجش كصوت الغراب:

- إنك رجل عجوز وشريف يا سيلفر، أو هكذا يُقال عنك، ثم إنك تملك المال، وهو ما لا يملكه البحّارة المساكين، وأنا لا أشكّ بشجاعتك أبداً. ومع هذا فقد سمحتَ لنفسك بأن تنجرّ إلى فوضى أولئك التافهين؟ ما هكذا الظن بك يا صاح! الرب شاهدي، إنّه لأهون عليّ أن أخسر ذراعيّ على

أن أخون واجبي..

ومن ثم أمسكته عن إكمال حديثه جلبة مباغته. هكذا عرفتُ بوجود ببحار مخلص ألا وهو توم، وفي نفس اللحظة جاءني خبر عن رجل آخر مثله. وذلك عندما ارتفع من بعيد صوت يشبه صيحة غضب من جهة المستنقع فجأة، تلتها صيحة أخرى، وأخيراً صرخة فظيعة دوت طويلاً، وقد رددت صداها صخور تلّ السبائي غلاس عشرين مرة، فجفلت الطيور من المستنقع مرة أخرى، واكفهرّ وجه السماء بأسرابها المحلّقة، وقد ملأت في الوقت نفسه بضجيجها الأرجاء. وبعد فترة طويلة من سماعي صرخة الموت التي ما انفكت ترن في رأسي، خيم الصمت وأرسي دعائم مملكته ثانية. ولم يعد ما يعكّر هواة اليوم إلا حفيف أجنحة الطيور الهابطة وهدير الأمواج البعيدة.

كان توم قد وثب من وقع تلك الصيحة كما يشب الجواد من المهماز، إلا إن سيلفر لم يرتد له طرف، بل وقف ساكناً حيث كان، مستنداً بخفة على عكازه، مترصداً رفيقه كالأفعى التي توشك على الانقراض.

قال البحار وهو يمدّ إليه يداً:

- جون!

فصاح به سيلفر وقد قفز متراجعاً لمسافة ياردة، وبدالي كلاعب جبار محترف في خفته ووثباته:

- أبعد يدك!

قال الآخر:

- كما تريد يا جون سيلفر، سأفعل، ولكن إن هي إلا دخيلتك الحبيثة التي تجعلك تخافني. والآن، بحق السماء أخبرني، ما كان ذلك؟

ابتسم سيلفر، متبهاً أكثر من ذي قبل، حتى صارت عيناه مجرد نقطتين في وجهه الكبير، تشعان كشظايا الزجاج، فأجاب:
- ذلك؟ أوه، إنه آلان كما أعتقد.

وهنا انفجر توم غضباً وصاح كبطل حقيقي:

- أهو آلان! إذن لروحه السكينة، أي بخار حقيقي كان! أما أنت يا جون سيلفر، فقد كنت صاحبي أمدأ، لكنك منذ الآن لن تعود كذلك. ولو متُّ ككلب، فلسوف يكون ذلك في سبيل أداء واجبي. لقد قتلت الآن، أليس كذلك؟ فاقطني أيضاً لو كان بيدك، أتحدّك.

وما أن انتهى من قوله، حتى استدار الرجل الشجاع وأعطى ظهره للطباخ، ثم مشى باتجاه الشاطئ. بيد أن القدر لم يكتب له أن يسير بعيداً. فإذا بجون وقد استلّ غصن شجرة وهو يصرخ، وقذف بعكازه من تحت إبطه، ثم رشق قذيفته الغليظة بسرعة في الهواء، فضربت بعنف لا سابق له، توم المسكين في منتصف ظهره وبين كتفيه، فتطوّحت يده في الهواء وأطلق شهقة ثم سقط.

وسواء كان قد أصيب إصابة شديدة أم طفيفة، فلا يمكن للمرء

أن يجزم بذلك، بيد أن البت بالأمر كان كافياً من خلال صوت القرقعة، فقد كُسر ظهره في الحال. ولم يُمهّل حتى يستفيق، إذ أن سيلفر الرشيق كالقرد، حتى بدون ساق أو عكاز، كان رابضاً فوق توم، وقد غرس لمرتين سكينه إلى حدّ مقبضها عميقاً داخل ذلك الجسد الذي سقط بلا دفاع. ولقد سمعته وأنا في مخبئي يلهث مقطوع الأنفاس فيها الآخر يسدّد طعناته.

لم يسبق لي أن عرفت حقيقة الإغماء، ولكن للحظة القصيرة التالية بدا العالم وكأنه يسبح في دوامة ضبابية، فكان سيلفر والطيور وقمة السپاي غلاس تدور وتدور وتنقلب رأساً على عقب أمام عيني، وكما لو كانت تفرع في أذني أجراس عديدة، وتصرخ أصوات بعيدة.

لما عدتُ إلى وعيي كان الوحش القاتل قد استجمع شتات نفسه، فكان عكازه تحت إبطه، وقبعته على رأسه، وقد ارتمى توم أمامه بلا حراك على الأرض المعشوشبة، ولكن القاتل لم يعبا به البتة، فكان يمسح بقبضة من الحشائش نصل سكينه الملطخ بالدم. وخيل إلي أن كل شيء آخر كان على حاله ولم يتغير، فالشمس ما زالت تلهب بقسوة سطح المستنقع المغليّ وتسطع على قمة الجبل الشاهق، حتى أنني أقنعت نفسي بالكاد أن جريمة قتل قد حدثت بالفعل، وأن حياة رجل قد انتهت بوحشية قبل لحظات أمام عيني.

وها هو جون، يمدّ يده إلى جيبه ليخرج صفارة راح ينفخ فيها عدة مرات بأنغام متفاوتة، وقد دوّى صفيها عبر الهواء الساخن.

ولم يكن لي أن أعرف بالطبع الغرض من تلك الإشارة، إلا أنها ما لبثت أن أيقظت مخاوفي، إذ سيأتي المزيد من الرجال، وقد يكتشفون وجودي. لقد قتلوا اثنين من البحارة المخلصين، أسيكون هذا هو دوري بعد نوم وآلان؟

شرعتُ في الحال بتخليص نفسي مما أنا فيه، فزحفتُ عائداً إلى الجزء المفتوح من الغابة، بقدر ما استطعت سرعة وهدوءاً. وإذا بي في خضم ذلك، أسمع نداءات متبادلة بين القرصان العجوز ورفاقه، وكأني بهذه الأصوات المؤذنة بالخطر وقد منحني أجنحة، فما أن خرجتُ من الأجمة، حتى عدوتُ بسرعة لا عهد لي بها من قبلُ في حياتي، ودون أي اعتبار لوجهة فراري، طالما أن هذه الوجهة ستبعدي عن القتلة السفّاحين، وكان ارتعابي كلما ازددتُ ركضاً، يزداد ويتعاضم حتى استحال لنوبة من نوبات الجنون أو السعار.

وكيف لي ألا أُجنّ؟ بل من ذا الذي مرّ بضياح وحيرة أكثر مني؟ وحتى لو أني سأسمع طلقة إشارة العودة إلى السفينة، فكيف لي أن أجرؤ على النزول إلى القوارب بين هؤلاء الأبالسة الذين ما زالوا ملوثين بآثار جرائمهم التي لم يخمد دخانها؟ ألن يدقّ عنقي كطائر الطيطوى أول واحد منهم يراني؟ أولن يكون غيابي بحدّ ذاته دليلاً على خوفي، وبالتالي دليلاً على علمي بفعالتهن؟ هكذا حسبتُ أن الأمر انقضى. وداعاً يا هيسپانيولا، وداعاً أيها الملاك، ويا دكتور ليفزي، ويا قبطان! فليس أمامي سوى الموت جوعاً أو قتلاً على أيدي تلك الشرذمة من المتمردين.

كنتُ طيلة هذا الوقت أركض، وكما قلتُ مسبقاً دون أن أنتبه إلى وجهتي، حتى قاربتُ سفح التلّ الصغير ذي القمّتين، ووصلت إلى جانب من الجزيرة حيث تنمو السنديانات دائمة الخضرة على مسافات متباعدة، وصارت تشبه أشجار الغابات في شكلها وأحجامها. وقد اختلطت معها بعض الصنوبرات المتفرقات. كان طول بعضها يصل إلى خمسين قدماً وأخرى حوالي سبعين قدماً. وكان الهواء هنا أنقى من هواء جهة المستنقع.

وهنا، باغتني خطر جديد سمّرتني في مكاني وجعل قلبي يخفق بشدّة.

رجل الجزيرة

من على جانب التل الصخري الذي كان منحدرأ، انهالت حفنة من الحصى وسقطت بين الأشجار وهي تفرقع وتتقاذز، فتحوّلت عيناى تلقائياً إلى ذلك الاتجاه، ورأيتُ ظلاً يثب بسرعة خلف جذع شجرة صنوبر. ولم أميز ما إذا كان دباً أو قرداً أو رجلاً، لكنّه بدا بهيأة معتمة وشعشاء، ولم أتبيّن أكثر من ذلك. بيد أن هذا الخيال أزعجني وجمّدي في مكاني.

كأنّني الآن وقد تقطّعت بي السبل وحوصرتُ من الجانبين، فورائي كان أولئك القتلة، وأمامي هذا المتربّص المجهول. وبدا لي حينها أنّ الخطر الذي أعرفه أهون من الخطر الذي أجهله، فخطر لي أن أختار أهون الشرّين، حتى نُحِيلَ إليّ أن سيلفر أقلّ فظاعة من مخلوق الغاب هذا، فاستدرتُ على عقبي، وكنتُ أراقب ما خلفي من فوق كتفي محترساً، وأقفلتُ عائداً على أثر خطواتي باتجاه القوارب.

عاد الخيال في الحال، ثم استدار حولي في دائرة واسعة، وبدأ

يقطع طريقي. كنتُ منهكاً من الركض، لكنني أدركتُ أنه من العبث أن أنافس سرعة هذا الخصم، حتى لو كنتُ بنفس القدر من النشاط الذي كنتُ عليه قبل أن أركض. كان هذا المخلوق يتسلل كغزال من جذع شجرة إلى آخر، ورغم أنه كان يعدو على قدميه كإنسان، إلا إنه كان يفرق عن سائر البشر الذين رأيتهم، في فرط تحذب ظهره عندما يعدو. إلا أنني ما عاد عندي شك في كونه إنساناً.

أخذتُ أسترجع ما سمعته عن آكلي لحوم البشر. وكنتُ على قيد شعرة من أن أصرخ طلباً للنجدة. إلا أن حقيقة كونه إنساناً، مهما كان وحشياً، هدأت من روعي. وعاد خوفي من سيلفر يتسلل إلى أوصالي، لذا وقفتُ ساكناً أفكر بطريقة للهروب، وبينما كنتُ كذلك، أومضت ذكرى مسدسي في ذهني. وبمجرد أن أيقنتُ من كوني لستُ أعزلاً أضاءت الشجاعة قلبي، ويممتُ وجهي بعزم صوب رجل الجزيرة هذا، ثم مشيتُ نحوه حثيثاً.

كان في هذه الأثناء مختبئاً خلف جذع شجرة، ولا شك في أنه كان يراقبني عن كثب، إذ وبمجرد ما هممتُ بالحركة نحوه، كان قد ظهر من جديد وخطا نحوي ليلاقيني. لكنّه تردّد فراجع قليلاً، ثم عاد ليتقدّم ثانية. في النهاية، ولفرط دهشتي وحيرتي، رأيتُه وقد جثا على ركبتيه ومدّ كفيه المضمومتين متضرّعاً.

عندها توقفتُ مرة أخرى، وسألته:

- من أنت؟

فأجاب بصوتٍ أجشٍ وغريب، كقفل علاه الصدا:

- أنا بين غان، أنا المسكين بين غان، ولم أتحدّث مع مسيحيّ قطّ
طيلة ثلاث سنوات.

وهنا استطعتُ أن أرى أنّه كان رجلاً أبيض، مثلي، حتى
أنّ ملامحه بدت ودودة، وكانت الشمس قد أحرقت كل ما كان
مكشوفاً من بشرته، وحتى شفّته فقد كانتا سوداوين، وقد بدت
عيناه الصافيتان مفزعتين في هذا الوجه حالك السواد. كان من
بين كل الشحاذين الذين رأيتهم أو تحيّلتهم زعيماً في الرثاثة، فقد
كان يغطي جسده بأسمالٍ من قماش سفينة بالٍ وخرق لملابس
بحرية قديمة، وكان هذا التكوين الاستثنائي من الخرق مربوط
بعضه بالبعض بنظام من الأربطة هو الأكثر تنوعاً وتنافراً؛ فمن
أزرار نحاسية، إلى شيء من اللصق، إلى حلقات مصنوعة من
الخيش المطلي بالقطران، وقد ارتدى حول خصره حزاماً جلدياً
بإبزيم نحاسي، فكان الحزام هو الشيء الوحيد المتناسك في كلّ
ملابسه.

صِحْتُ به:

- ثلاث سنوات! هل تحطّمت سفينتك؟

فأجاب:

- كلا يارفيقي، أنا واحد من المارونيين.

كنت قد سمعتُ بهذه العقوبة من قبل، وأعرف أنّها تمثّل
واحدة من أفظع أنواع العقوبات الشائعة بين القراصنة، وبموجبها

يُترك المتهم على ساحل جزيرة مقفرة ونائية مع حشوة بارود وطلقة واحدة^(١).

أكمل حديثه قائلاً:

- لقد خُلِّفت على هذه الجزيرة منذ ثلاث سنوات، كنتُ أقتات خلالها على لحوم الماعز وعلى العليق والمحار. على المرء أن يتدبّر أمره حيثما يكون، هذا هو مبدئي. ولكن، يا رفيقي، إن قلبي يهفو للطعام المسيحي، أفلا أجد عندك شيئاً من الجبنة الآن؟ ها؟ لكم مرّت عليّ ليالٍ طويلة كنت أحلم فيها بالجبنة، الجبنة المحمصّة غالباً، لكنني ما أن أستيقظ من حلمي حتى أجدني ما زلتُ هنا.

قلتُ له:

- لو قُدِّر لي أن أعود إلى السفينة، فسوف أعطيك مقدار صخرة من الجبنة^(٢).

كان طوال الوقت يستشعر ملمس قماشة سترتي، ويملّس يديّ، وينظر إلى جزمتي، وعموماً فقد كان يُظهر ما بين فترات كلامه، سروراً طفولياً لوجود مخلوق آخر، إلا أن كلماتي الأخيرة أثارت فيه شيئاً من المكر المفرع.

(١) ورد في أحد بنود قوانين القرصنة الذي وقّع عليه طاقم القرصان جون فيليب في القرن الثامن عشر الشرط التالي: «إذا حاول أحد أفراد الطاقم الهرب أو أخفى أسراراً عن بقية الطاقم، فلسوف يحكم بالنفي مزوداً بعلبة بارود وقتينة ماء ومسدس وطلقة».

(٢) Stone: فئة وزن انجليزية تساوي ١٤ رطلاً.

فأعاد عليّ كلماتي:

- أتقول لو قُدِّر لك أن تعود إلى السفينة؟ ومن الذي يمنعك
من العودة؟

أجبتُ:

- ليس أنت بالتأكيد.

صاح:

- وأنت محقّ، فأنا لن أمنعك من العودة. والآن، ما اسمك يا
رفيقي؟

أجبتّه:

- اسمي جيم.

فقال وهو يبدو في غاية السرور:

- جيم، جيم. حسناً يا جيم، لقد عشتُ حياةً خشنة وجلفة
حتى أنها لتشعرك بالحياء لو سمعت بعضاً من تفاصيلها.

ثم عاد وسألني:

- لو نظرتَ إلى هياطي، أستحسب أن لي أمّاً وريرةً رؤوماً؟

أجبتّه:

- كلا، لستُ على يقين من ذلك.

فقال:

- بيد أني كانت عندي أم ورعة تقيّة. كما أني كنتُ صبيّاً متمدناً ورِعاً، وكان بإمكانني أن أتلو تعاليمي الدينية بسرعة لا يعود بإمكانك فيها أن تفرّق بين كلمة وأخرى. وإليك ما حدث؛ لقد بدأ الأمر بلعبة رمي النقود في الحفرة عندما كنت طفلاً! (١) هكذا بدأ الأمر، ثم ذهب أبعد من ذلك، وكانت أمي تنبهي، وتتنبأ بما سيحلّ بي، تلك السيدة التقيّة! وما هو إلا تدبير إلهي هذا الذي وضعني هنا. لقد تأملت كثيراً في عاقبة أمري على هذه الجزيرة الموحشة، وقد ثبت إلى طريق الصلاح والخير. فلن تراني أشرب الروم، إلا قطرة من رشفة سأشربها من أجل الحظ في أول فرصة أحظى بها بالشراب. فقد تعهدت أن أظلّ صالحاً، وأمشي في طريق الصلاح.

ثم تطلّع حوله وأخفض صوته حتى قارب الهمس وقال:

- ثم أنني رجل ثري يا جيم.

وهنا أيقنتُ أن الرجل المسكين لا بدّ وأن يكون قد فقد صوابه في عزلته هذه، ولربّما كان شعوري هذا قد بان على ملامح وجهي، إذ أنّه كرّر ما قاله بانفعال:

- ثريّ! أقول لك إنني ثريّ! ودعني أخبرك شيئاً: سأجعل منك ثريّاً، ولسوف يشعّ نجم سعدك، لأنك أول من عثر عليّ!

(١) لعبة أطفال انجليزية، يرمي الأطفال عملة إلى حفرة وصاحب العملة الأقرب إلى الحفرة أو الذي يصيب الحفرة سيأخذ كل العملات الباقية ويجمعها في الحفرة لتكون له.

وعندها اكفهر وجهه بغته، وشد قبضته على يدي، ورفع سبّابه
أمام عيني مهّداً ومتوعداً.

ثم سأل:

- والآن يا جيم أخبرني بالحقيقة: أتلك سفينة فلينت؟
وهنا حفّت بي السعادة، وبدأتُ أعتقد أنني عثرتُ على حليف،
فأجبتُه من فوري:

- كلا، ليست سفينة فلينت، فقدمت فلينت، ولكنني سأخبرك
وسأصدق الحديث، كما طلبت مني، هنالك ولسوء حظ
بقيتنا، بعض من رجال فلينت على متن السفينة.

شهق وقال:

- أمن بينهم رجل بساقٍ واحدة؟

سألته:

- أتعني سيلفر؟

فقال:

- نعم، سيلفر! هكذا كان يُدعى.

- إنه طبّاخ السفينة وزعيم العصابة.

كان لا يزال قابضاً على يدي من الرسغ، وفي تلك اللحظة
عصرها عصرة شديدة.

فقال:

- إذا كان جون الطويل هو من أرسلك، فإنني هالك لا محالة،
ولكن ماذا تراني فاعل بك؟

كنتُ قد حسمتُ أمرِي في تلك اللحظة، فحكيت له خبر
رحلتنا والمأزق الذي وجدنا أنفسنا فيه، رداً على سؤاله، وقد أنصت
إليّ باهتمام شديد، وعندما انتهيتُ من كلامي، ربت على رأسي.

قال:

- أنت شاب صالح يا جيم. ويبدو أنكم قد وقعتُم في عقدة
محكمة الإيثاق، أليس كذلك؟ حسناً، عليك أن تضع ثقتك
في بين غان، فهو رجلك المنشود. فما ظنك بالملك، أسيكون ذا
طبيعة كريمة في حال تقدّمتُ بالمساعدة، بما أنه واقع في مأزق؟
فأخبرته أنّ الملك هو الأكثر كرمًا من بين الرجال.

أجاب بين غان:

- ولكن ألا تدرك أنّي لا أعتزم أن أكون حارساً على بوابة
كوخ، ولا أريد منه كسوة خدم يلبسنيها، ولا أياً مما شابه
هذا، فهذا ليس ما أبتغيه يا جيم. إنّ ما أقصده هل هو على
استعداد لكي يتنازل إليّ بمبلغ من الكتز، ولنقل مثلاً ألف
پاوند، مضمونة وكأنها شيء من مالي؟

فقلتُ:

- أنا واثق من هذا، فالاتفاق كان أن يتقاسم جميع البحّارة
النقود.

فقال وقد علت عينيه نظرة دهاء:

- أيمنحني عودة إلى الديار؟

فقلتُ بحماس:

- إن الملاك رجل نبيل ولن يمانع ذلك. أضف إلى أننا عندما نتخلص من البحارة المتمردين فسوف نحتاج إلى مساعدتك للإبحار بالسفينة إلى الديار.

قال وقد بدا عليه الارتياح:

- آه، إذن فأنتم سترجعونني إلى دياري.

ثم قال:

- سأخبرك بخبري، سأحكى كل شيء. لقد كنتُ في سفينة فلينت عندما دفن الكنز، وكان معه ستة من البحارة العتاة. وقد ظلوا على الساحل مدة أسبوع فيما بقينا نحن على متن السفينة والراس. ويوم انطلقت الإشارة وإذا بفلينت قادم في قارب صغير لوحده، وقد لفّ رأسه بوشاح أزرق. كانت الشمس ستشرق قريباً، وقد بدا على حيزومه^(١) شحوب الموت. بيد أنه كان ماثلاً أمامنا، أما الستة الباقون فقد قتلهم ودفنهم. ولم يتسنّ لأي منا أن يعرف كيف تمكّن من فعل ذلك، ولكن بأقل تقدير للأحداث فلا بدّ من أنها معركة، وقتل، وموت فجائي، وقد وقف وحده مقابل ستة رجال.

(١) cut-water: مقدمة السفينة، أي وجهها، لذا استعملها هنا بين غان بدلاً من وجه.

كان بيلى بونز هو نائبه، وجون الطويل هو آمر الانضباط، وقد سألاه عن مكان الكنز، فأجابها: «يمكنكما الذهاب إلى الساحل إذا رغبتما، ولو ارتأيتما البقاء هناك فابقيا، أما السفينة فلا بدّ أن تبحر طلباً للمزيد، بحقّ الرعد». هكذا أجابها.

ثم بعد ثلاث سنوات كنتُ على متن سفينة أخرى، ورأينا هذه الجزيرة. فصحتُ: «يا رجال، هناك يقبع كنز فلينت، لننزل إلى اليابسة ونعثر عليه». كان القبطان مستاءً مما حدث ولكن رفاقي البحّارة كانوا عازمين على النزول، فنزلوا. وظلّوا طوال اثني عشر يوماً يتقبّون عن الكنز، وكلّما انقضى يوم كانوا يزيدونني تقريراً بأسوأ الكلمات، حتى حلّ صباح يوم حسن، صعد كلّ البحّارة فيه على متن السفينة، وقالوا لي: «أما أنت يا بينجامين غان، فهاك بندقية ومجرقة ومعولاً، وابق هنا. جدّ نقود فلينت، وخذها كلّها لك».

وهكذا يا جيم، فقد أمضيتُ هنا ثلاث سنوات، ولم أحظ بشيء من الطعام المسيحيّ منذ ذلك اليوم. والآن تطلّع إلي، أأبدو كبحّار؟ كلا، أليس كذلك؟ حتى أنا، لا أرى نفسي كواحد منهم.

وعندها غمز لي وقرصني بقوة. ثم أكمل حديثه:

- عليك أن تعيد كلماتي التي سأقولها لك على مسامع رفيقك الملاك يا جيم، قل له: لقد قضى رجل الجزيرة ثلاث سنوات فيها، بلياليها ونهاراتها، وعاش تحت سماءها رائقة وممطرة، وكان تارة يفكّر بالصلاة، وتارة يفكّر بوالدته العجوز

العزيزة، وهل هي على قيد الحياة؟ وستقول له أيضاً: لكنّه قضي الجزء الأكبر من وقته في البحث عن أمر آخر. هذا كلّ ما عليك أن تقوله له.

ثم قرصني ثانية بنحو حيميّ وودود، وأكمل قائلاً:

- ومن ثم ستقف وتقول: إنّ غان لرجل صالح، ثم إنّه يضع كامل ثقته - وانتهبه إلى هذه الكلمة، كامل الثقة - في الرجال النبلاء وليس في القراصنة، إذ أنّه كان واحداً منهم.

فقلتُ:

- حسناً، لم أفهم ولا كلمة من الذي قلته، ولكن هذا ليس مهماً بأيّة حال، إذ ما يهمّ الآن هو كيف سأعود إلى السفينة؟

فقال:

- آه، هذه معضلة بحق. حسناً، عندك قاربي الذي صنعته بيدي هاتين، لقد خبأته تحت الصخرة البيضاء، وإذا بلغت الأمور حالاً أسوأ، فيمكننا أن نركبه تحت جناح الظلام.

ثم فجأة صاح قائلاً:

- ها! ما هذا؟

إذ كان قد دوّى صوت إطلاقه مدفع، رددت أصداؤه الجزيرة كلّها، رغم أنّ الشمس كانت لا تزال مرتفعة، وأمامها ساعة أو اثنتين لتغرب.

صرخت:

- لقد بدأوا القتال.. اتبعني!

بدأت أركض باتجاه المرسى، ناسياً كل مخاوفي، وإلى جانبي رجل الجزيرة بأسمال جلد الماعز، يركض بسرعة وخفة.

قال:

- يساراً! يساراً! ابق على اليسار يا رفيقي جيم! احتم بظل تلك الأشجار، هنا قتلتُ معزتي الأولى. ولكنّ الماعز لم تعد تنزل إلى هنا، فقد دفعها الخوف من بينجامين غان إلى الصعود إلى أعلى الجبال. وانظر إلى المبقرة!

ولا شكّ أنّه كان يعني مقبرة.

- أترى تلك الروابي؟ لقد اعتدتُ أن آتي إلى هنا للصلاة بين الحين والآخر، عندما أظنّه يوم أحد. وربّما هي ليست بالكنيسة، ولكنه بدا كمعتزلٍ مناسب وجليل. وقد تقول إنّ بين غان كان رجلاً قليل الحيلة، فلا قسيس يصلي معه، وكلّ ما كان عنده هو إنجيله ورايته.

ظّل يثرثر هكذا طوال المدة التي ركضتُ فيها، ولم يكن يجد لحديثه ردّاً، ولا حتى يتوقع أن يحصل على ردّ.

أعقب صوت المدفع، بعد فترة طويلة، وابل من رصاص الأسلحة الخفيفة.

وما هي إلا وقفة قصيرة، حتى لاح لي علم الاتحاد البريطاني يرفرف فوق إحدى الغابات، بحوالي ربع ميل أمامي.

الجزء الرابع

الحنين

(١٦)

الطيب يروي الأحداث: كيف غادرنا السفينة

كانت الساعة تشير إلى الواحدة والنصف - أو بالاصطلاح البحري عند قرع الجرس لثلاث مرّات^(١) - عندما انطلق قاربان من الهيسبانيولا إلى الشاطئ. كنتُ مع القبطان والملاك في المقصورة نتناقش حول أمرنا، قائلين لو أنّنا حصلنا ولو على نسمة هواء، لأسقطنا المتمردين الستّة الذين بقيوا على متن السفينة، ولرفعنا مرساتنا وأبحرنا في عرض البحر. ولكنّ الرياح معدومة، وليزيد من عجزنا عجزاً، فقد جاء هانتر ليخبرنا أنّ جيم هو كينز انسلّ إلى أحد القوارب الراحلة إلى الشاطئ ومضى مع الآخرين.

ولم يخامرنا أيّ شك حيال جيم، ولكننا شعرنا بالقلق على سلامته. إذ أن وجوده مع أولئك الرجال وهم على ذلك المزاج الشرس والحادّ، ستجعل من أمر عودة ذلك الفتى سالماً ضرباً من ضروب الصُدْف. صعدنا إلى سطح السفينة، وكان القطران يفور

(١) على عكس التوقيت المدني فإن ضربات الجرس لا تتناسب مع عدد الساعات. وبدلاً من ذلك، فهناك ثمان ضربات، بضربة لكل نصف ساعة في نوبة الأربع ساعات.

بين شقوق السفينة، وأصابتنى الرائحة الكريهة للمرسى بالغثيان، فلو كان للحمى والذزيتاريا رائحة يشمها امرؤ، فقد كانت في ذلك المرسى اللعين. كان الأوغاد الستة مستلقين تحت شراع المقدمة يتدمرون، ورأينا الزورقين يسارعان إلى الشاطئ وفي كل قارب غيغ رجل، بالقرب من مجرى النهر. أحدهما كان يصفر بلحن نشيد «ليلي بوليرو»^(١).

ولما كان الانتظار مجهداً، فقد تقرر أن نذهب أنا وهانتر إلى الشاطئ بقارب الجولي بوت^(٢) طلباً للمعلومات.

كان أولئك المتمردون يوجهون قاربي الغيغ نحو اليمين، فيما كان قاربي وهانتر يمضي باستقامة إلى الأمام، في اتجاه الحصن الموضح على المخطط. ثم رأينا الرجلين اللذين بقيا لحراسة القارين، وقد بدا عليهما الاضطراب حال ظهورنا، وقد توقف صفيير الليلي بوليرو، وكنت أرى أنها كانا يتناقشان فيما سيفعلانه بشأننا. ولو أتمها كانا قد قررا الذهاب وإطلاع سيلفر بشأننا، فلربما كانت النهاية ستختلف، ولأتمها كانت لهما أوامر تقتضي بأن يمكثا لحراسة قاربي الغيغ، فقد قررا أن يجلسا بهدوء في مكانيهما ويعاودان غناء الليلي بوليرو.

كانت هنالك انعطافة بسيطة في الساحل، قمتُ بتوجيه زورق الجولي بوت بحيث يكون هذا التتوء حائلاً بيننا، لذا لم نعد نبصر قاربي

(١) Lillibullero: أغنية أنشدت لدعم ويليام الثالث أثناء خلع جيمس الثاني في الثورة المجيدة في ١٦٨٨. واشتقت كلمات الأغنية من مناصري ويليام الاسكتلنديين.

(٢) jolly-boat: قارب شراعي صغير وقصير يُحمل عادة على المؤخرة، يستخدم لنقل الأفراد من وإلى السفينة أو في مهمات صغيرة أخرى.

الغيغ حتى قبل أن تنزل على الشاطئ. ثم قفزت إلى اليابسة ودنوت راکضاً بقدر ما أستطيع، وتحت قبعتي مندبل حريري ليمنحني شيئاً من البرودة، وإلى جانبيّ مسدسان مذخّران في حال حدوث أي طارئ.

ولم أكن قد قطعْتُ أكثر من مائة ياردة عندما وصلت إلى الحصن.

وهذا هو وصفه: كان هنالك نبع ماء صافٍ يجري من أعلى ربوة ليست بذاك العلوّ، وكانوا قد وضعوا متراساً من جذوع الأشجار متين البناء يحيط بالنبع على الربوة، وكان هذا المأوى يتّسع لأربعين رجلاً، وفيه ثقوب على جوانبه لمدّ فوهات البنادق منها عند حدوث غارة. وقد أفرغوا حول المأوى ساحة واسعة، كانت مغلقة بسورٍ من الأوتاد الخشبية على ارتفاع ستة أقدام، محكم الأغلاق بلا باب وبلا منفذ، وكان منيعاً فلا يمكن هدمه دون تضييع الكثير من الوقت والجهد. كان واسعاً ومفتوحاً فلا يقي المحاصرين. وأمّا الناس الذين يمترسون داخل المأوى فهم يقفون داخله بهدوء تحت حمايته، ويصطادون من في الخارج كما تُصطاد طيور الحجلان، وكلّ ما هم بحاجة إليه هو حراسة جيدة وطعام وفير، وعندها سيكون بإمكانهم أن يصدّوا من مكانهم فوجاً كاملاً. إلا اللهم إذا ما حدث شيء مفاجئ فأخذوا على حين غرّة.

وكان أكثر ما راق لي في المكان هو النبع، لأنه على الرغم من وجود مكان جيد في مقصورة الهيسبانيولا، ووفرة من الأسلحة

والذخيرة والمؤن والنبيد الممتاز، إلا أننا أغفلنا وجود شيء واحد، ألا وهو الماء. كنتُ أفكّر بهذا الأمر عندما دوّت في أرجاء الجزيرة صرخة رجل يموت. ولم أكن حديث العهد بأمر مثل الموت العنيف، إذ كنتُ في خدمة صاحب السمو الملكي دوق كمبرلاند، في معركة فونتينوي، وأصبتُ في المعركة، لكنني أعتز أن قلبي قفز من الفزع، إذ كان أول خاطر يرد إلى ذهني هو: «لقد مات جيم هوكينز».

أن يكون الرجل جندياً فهو أمر عظيم الشأن، وأن يكون طبيياً، فهذا أعظم. فليس أمامنا من مجال للتباطؤ أو التلكؤ في واجباتنا، لذا قرّرت من فوري أن أعود إلى الشاطئ، ودون أن أضيّع الوقت، قفزت إلى قاربي الصغير.

ولحسن الحظ كان هانتر يحسن التجذيف سريعاً، حتى جعلنا الماء يطير، وسرعان ما كان قارب الجولي بوت يركن إلى جانب السفينة، فركبتها.

وجدتُ الجميع في حالة صدمة، وهذا أمر متوقع في مثل هذا الظرف. فالملاك كان جالساً ووجهه شاحب كورقة بيضاء، والرجل الطيب كان يفكّر بالخطر الذي قادنا إليه! وواحد من البحارة الستة، كان يتعافى.

قال القبطان سموليت وهو يومئ إلى الرجل:

- هذا رجل حديث العهد بهذا العمل، لقد أتى وهو موشك على الإغماء عندما سمع الصرخة يا طيب. دفعة واحدة بعد من الدفّة باتجاهنا، وسينضم إلينا.

أخبرتُ القبطان بخطّتي، واتفقنا سوية على تفاصيل تنفيذها.
وضعنا ريدروث العجوز في الفسحة ما بين المقصورة ومقدمة
السفينة، وأعطيناه ثلاث أو أربع بنديات مذخّرة وجاهزة للحماية.
ثم أحضر هانتر القارب تحت مؤخرة السفينة، ومضينا أنا وجويس
لتحميل القارب بصفائح البارود، والبنادق، وأكياس البسكوت،
وصناديق لحم الخنزير، وبرميلاً من شراب الكونياك، وحقية العقاقير
والأدوات الطبية الثمينة.

في هذه الأثناء، بقي الملاك والقبطان على سطح السفينة، ثم نادى
القبطان سائس الدفة، الذي كان الرجل الأساسي على متن السفينة
حينها.

قال القبطان:

- سيد هاندز، أمامك رجلان يحمل كلّ منهما مسدسين، فإذا
بدرت من أي رجل منكم أنتم الستة، أية إشارة، فإن ذلك
الرجل هالك لا محالة.

فأصابهم الذهول، وبعد أن تشاوروا لفترة، نزلوا واحداً تلو
الآخر من السلم الأمامي، ولا شكّ أنّهم كانوا يفكّرون بمباغتتنا
وحصارنا في الخلف، بيد أنّهم حين رؤوا ريدروث يترصدّهم في
الرواق، تراجعوا من حيث قدموا، ثم أطلّ رأس أحدهم على السطح.

صاح القبطان به:

- إلى الأسفل يا كلب!

فعاد الرأس إلى الأسفل، ولم نسمع أي صوت من هؤلاء البحارة الستة ضعفاء القلوب، لمدة من الوقت.

في هذه الأثناء كنا نرمي الأشياء كيفما أنفق على قارب الجولي بوت الذي حملناه بقدر ما استطعنا، خرجنا أنا وجويس من منفذ مؤخرة السفينة وصعدنا إلى القارب الصغير، وتوجهنا إلى الشاطئ بأقصى سرعة يمكن التجذيف بها.

وقد أثارنا رحلتنا الثانية انتباه الحارسين على الشاطئ، وانقطعت أنشودة ليلي بوليرو ثانية، ولكن قبل أن يختفيا من أنظارنا خلف المنعطف، رأيتُ أحدهما وهو يهرع إلى الشاطئ ويختفي. وقد خامرتني فكرة كنتُ متردداً بشأنها، وهي أن أغير من خطتي وأدمر قاربيهما، لكنني خشيت أن يكون سيلفر والبقية على مقربة، وعندها سيضيع كل شيء في محاولة لإنجاز ما هو أكثر من المطلوب.

وسرعان ما نزلنا في نفس المكان الذي كنا قد نزلنا فيه المرة السابقة، وشرعنا في تموين الحصن، ذهبنا ثلاثتنا في رحلة الدفعة الأولى، وكنا محمّلين جهدنا بالمؤن الثقيلة، فقمنا برميها من فوق السور. ثم تركنا جويس ليحرسها، وقد كان رجلاً واحداً، نعم، إلا أنه كان مسلحاً بنصف دزينة من البنادق، ثم رجعتُ أنا وهانتر إلى قارب الجولي بوت، وحملنا بما نقدر على حمله من بقية المؤونة. وهكذا مضينا في الأمر من دون أن نأخذ استراحة لالتقاط أنفاسنا، حتى أكملنا تفريغ الشحنة بأكملها. وعندما تموضع الخادمان في موضعيهما في الحصن، عدت للتجذيف بكامل قوتي إلى الهيسپانيولا.

على أن المجازفة بإرسال قارب حمولة ثانية قد تبدو مهمة أخطر مما كانت عليه في الواقع، فحتى لو كانوا يفوقوننا عدداً، إلا أننا كنا نفوقهم بالعتاد والسلاح. فلم يكن عند أي واحد من أولئك الرجال على الشاطئ بندقية، وقبل أن يتمكنوا من جعلنا هدفاً لمسدساتهم، منينا أنفسنا بأننا سنكون قادرين على حصاد نصف دزينة منهم على الأقل.

كان الملاك بانتظاري عند نافذة المؤخرة، وقد انزاح عنه شحوبه وبدا أكثر عافية. فأخذ حبل ربط القارب وأحكم وثاقه^(١)، ثم عدنا لتحميل القارب للنجاة بحياتنا، أما الحمولة فقد كانت لحم خنزير، بارود، وبسكوت، مع قطلس وبندقية لكل منا: الملاك، أنا والقبطان وريدروث، ثم ألقينا ببقية الأسلحة والبارود إلى الماء، على عمق قامتين ونصف، حتى رأينا الفولاذ الصقيل يلمع تحت ضوء الشمس، في القاع الرملي النظيف تحتنا.

في هذه الأثناء كان المد قد أخذ بالانحسار، وكانت السفينة تتأرجح وتتمايل حول مرساتها، فسمعنا أصواتاً خافتة من جهة قاربي الغيغ، ورغم أن هذا قد طمأننا على سلامة جويس وهانتر، اللذين كانا في الجهة الشرقية، إلا أنه كان إنذاراً لجماعتنا بالرحيل.

انسحب ريدروث من موضعه في الرواق ونزل إلى القارب، الذي كنا قد جلبناه إلى خلفية السفينة، ليكون في متناول القبطان سموليت.

(١) Painter: الحبل الذي يربط القارب بالسفينة لقطره خلفها.

قال القبطان:

- والآن أيها الرجال، أسمعوني؟

ولم يجبه أحد من الذين كانوا في المقدمة.

- إنني أوجه حديثي إليك يا إبراهيم غراي.

فلم يجبه أحد أيضاً.

فاستأنف القبطان سموليت نداءه وبصوت أعلى:

- أنا مغادر هذه السفينة يا غراي، وأمرك أن تتبّع قبطانك.

أعلم أنّك رجل صالح في سريرتك، ولأذهبنّ بالظن فأقول:

إن لا أحد منكم شرير في طبيعته، كما يظهر. أمامك ثلاثون

ثانية لتنضمّ إلي، وهذه ساعتني في يدي.

ثم كانت هناك وقفة، وساد الصمت هنيهة.

تابع القبطان قائلاً:

- هلّم يا صاحبي الطيب، لا تُطل مكوثك هكذا، كسفينة بلا

أشرعة في مهب ربح^(١)، فأنا أخطر بحياتي وحياة هؤلاء

الرجال الطيبين في كل ثانية أمضيها هنا.

(١) In stays: عبارة تُقال عن سفينة تتجه إلى الريح دون وسيلة لتسييرها، أو أنها فشلت في تغيير اتجاهها بسبب مقاومة الريح للأشرعة، أي فشلت في الانتقال من جانب إلى آخر. وقد استخدم القبطان هذا المجاز لحثّ غراي على تغيير ولائه من سيلفر إلى قبطانه الشرعي.

ثم حدثت جلبة مفاجئة، وصوت ضربات ولكمات، ومن ثم اندفع إبراهيم غراي بجرح سكين في خده، وركض باتجاه القبطان ككلب يمثل لصفير صاحبه.

وقال:

- أنا معك يا سيدي.

وفي اللحظة التالية، نزل هو والقبطان وركبا القارب معنا، وانطلقنا مبتعدين.

لقد تركنا السفينة خلفنا، إلا أننا لم نبلغ الحصن بعد.

(١٧)

الطبيب يكمل رواية الأحداث: رحلة قارب الجولي بوت الأخيرة

كانت الرحلة الخامسة لقارب الجولي بوت مختلفة تماماً عن بقية رحلاته. ففي المقام الأول: كان جوف القارب مكتظاً بشكل خطير، فقد كنا ستة رجال بالغين، ثلاثة منا بطول خمسة أقدام، وهم: تريلاوني، ريدروث، والقبطان. وهذه حمولة أكبر مما يستطيع القارب احتماؤها. بالإضافة إلى حمولة المؤون من البارود ولحم الخنزير وأكياس الخبز، فكانت حافة القارب الخلفية تغطس في الماء. وقد صعد الماء لعدة مرات إلى القارب، وابتلّ بنطالي وذيل معطفي، وكلّ هذا قبل أن نقطع مائة ياردة.

جعلنا القبطان نجلس على حواف القارب، فصار أكثر اتزاناً، بيد أننا ما زلنا مقطوعي الأنفاس من الخوف.

وفي المقام الثاني: كان الجزر يصنع تياراً قوياً من الأمواج المتلاطمة، يجري غرباً إلى الحوض البحري، ثم جنوباً وباتجاه البحر عبر المضيق الذي دخلنا منه صباحاً. وحتى لو كانت الموجات تشكل خطراً على قاربنا المكتظ، فإن الأخطر والأسوأ، هو أننا

قد ننجرف بعيداً عن مسارنا الصحيح، وبعيداً عن مرسانا البري خلف الانعطافة. ولو تركنا للتيار تسيير القارب، فسرعان ما سنجد أنفسنا قرب مرسى قاربي القراصنة، وعندها سيباغتوننا في أية لحظة.

قلتُ للقبطان:

- لا يمكنني إبقاء القارب في مسار الحصن يا سيدي.

لأنني كنتُ أوجه القارب، فيما كان هو وريدروث على المجاذيف، إذ أتهما لم يستنفدا قوتها.

وأكملتُ:

- أن تيار الجزر يعقينا، ويرجعنا إلى الوراء! فهل بإمكانكما التجذيف بقوة أكبر من ذلك؟

فقال القبطان:

- ذلك غير ممكن، سنغرق القارب لو فعلنا. عليك أن تتحمل يا سيدي، شدّ من أزرِك أرجوك، حتى ترى نفسك وقد تغلّبت على التيار.

ولكم حاولت، ولكنني ما انفككت أجد في كلِّ محاولاتي الجزر وهو يجرفنا غرباً، حتى تمكّنت أخيراً من توجيه رأس القارب نحو الشرق، أو في زاوية عمودية تقريباً بالنسبة للطريق الذي علينا المضي فيه.

قلتُ:

- لن نتمكن من الوصول إلى الشاطئ ونحن على هذا الحال.
فأجاب القبطان:

- لو كان هذا هو المسار الوحيد الذي يمكننا أن نتخذه، فليس أمامنا من خيار سوى اتخاذه يا سيدي. علينا نطل سائرين ضد التيار.

وأردف:

- عليك أن تفهم يا سيدي، أننا إذا انحدرنا مع التيار باتجاه الريح إلى مكان نزولنا على الشاطئ، فسيكون من الصعب أن نعرف في أيّ موضع من الشاطئ سينتهي بنا الأمر، أضف إلى أنه قد يأخذنا قريباً من قوارب المتمرّدين، بينما لو بقينا في مسارنا، فإن التيار لا بدّ من أن يضعف، وعندها سيكون بإمكاننا أن نحثّ التجذيف للعودة إلى الشاطئ.

قال غراي الذي كان يجلس في الفراغ بين مقعد المجذف ومقدمة القارب:

- إنّ التيار بدأ يضعف بالفعل، يا سيدي. لذا سيمكننا أن نسيّر القارب أسرع قليلاً.

فقلتُ:

- شكراً لك يا صاحبي.

وخاطبته وكأنها لم يحصل شيء مما كان قد حصل، فقد كنّا عازمين على معاملته كواحد من رجالنا.

وفجأة عاد القبطان إلى الكلام، ورأيتُ أن نبرة كلامه قد تغيّرت قليلاً. فقال:

- المدفع!

وقد تأكّد لي أنّه كان يفكّر باحتمالية أن يقوموا بقصف الحصن، فقلتُ:

- لقد فكّرت في نفس الشيء، على أنّهم لن يتمكنوا أبداً من إحضار المدفع إلى الساحل، ولو أنّهم فعلوا، فلن يتمكنوا من جرجرته عبر الغابات.

فأجاب القبطان:

- ألقِ نظرة إلى الخلف أيها الطبيب!

كنا قد نسينا أمر المدفع تماماً، فإذا بخمسة من الأوغاد هناك، ويا لرعبنا، يعملون على حلّ معطف السفينة، وهو الاسم الذي كانوا يطلقونه على الغطاء المشمّع السميك الذي تبخر به. وليس هذا فحسب، بل ومض في ذهني في الوقت نفسه، أنّنا تركنا قذيفة المدفع والبارود، وأنّ ضربة واحدة ستجعلها في حوزة الأشرار على متن السفينة.

قال غراي بصوت مبحوح:

- لقد كان إزريال مدفعياً عند فلينت.

ورغم المخاطرة، إلا أنّنا وضعنا القارب في اتجاه موضع الرسو. وبهذا الوقت، كنا قد ابتعدنا عن التيار، وقد تمكّنا من الحفاظ على

سرعتنا^(١) بالرغم من معدّل البطء، لكن الضروري لتجديفنا. غير أن أسوأ ما في الأمر هو أننا أدركنا جانب القارب بدلاً من مؤخرته نحو الهيسبانيولا، بسبب المسار الذي نحن فيه، وبذا صرنا هدفاً مكشوفاً وسهل المنال، مثل باب حظيرة مشرع.

وكنْتُ أسمع وأرى الوغد إزريّال هاندز، ذا الوجه المحمّر كلون شراب البراندي، وهو يهيم إطلاقة مدفع على سطح السفينة.

فاستفسر القبطان:

- من منكم أفضل الرماة؟

قلتُ:

- السيد تريلاوني، بلا نظير.

فقال القبطان موجّهاً كلامه إلى الملاك:

- سيد تريلاوني، لو تفضلت، ألا تلتقط لي واحداً منهم، وليكن هاندز، لو كان ذلك ممكناً!

كان تريلاوني هادئاً بأعصاب من حديد، ونظر إلى قذاحة بندقيته.

فصاح القبطان:

- على رسلك مع هذا السلاح ولتأنّ، وإلا ستُغرِقنا، على الجميع الوقوف على الحواف لموازنة القارب عندما يصوّب على هدفه.

(١) steering way: الحصول على سرعة كافية بحيث تتمكن الدفة من تحريك القارب. أو تستجيب إلى القيادة.

رفع الملاك بندقيته، وتوقف التجذيف، ثم تحولنا إلى الجانب الآخر للمحافظة على التوازن، وكان الجميع يعملون بانتظام وحذر، فلم تدخل ولا قطرة ماء إلى القارب.

كانوا في هذه الأثناء قد أداروا المدفع حول محوره، وكان هاندز على فوهة المدفع ويده مدكّة لحشو البارود، وبالنتيجة فإنه كان مكشوفاً للعيان. ومع ذلك فلم يحالفنا الحظ، إذ في اللحظة التي أطلق فيها تريلاوني نار بندقيته، انحنى هاندز، ومرّت الطلقة من فوق رأسه وهي تصفر، حتى أسقطت واحداً من الأربعة الآخرين.

ولم يرجع صدى صرخته رفاقه على السفينة فقط، بل حتى أولئك الذين كانوا على الشاطئ، وبعدد كبير من الأصوات، ولما نظرتُ في اتجاههم رأيتهم وهم يخرجون من بين الأشجار ويندفعون إلى أماكنهم على القوارب.

قلتُ:

- ها هي ذي القوارب الطويلة قادمة يا سيدي!

فصاح القبطان:

- لقد قُضي الأمر، فلا ضير حتى لو أغرقوا قاربنا الآن، لأننا إذا لم نصل إلى الشاطئ على الفور، فنحن هالكون لا محالة.

قلت:

- إنه قارب واحد فقط محمّل بالرجال، ولا ريب أن البقية سيذهبون حول الشاطئ ليقطعوا علينا الطريق.

فأجاب القبطان:

- ستكون أمامهم جولة حامية يا سيدي، فهؤلاء بلا فائدة، جاك آشوريون^(١)، كما تعلم. هم لا يثيرون قلقي، بل قذائف المدفع الكروية، فنحن أمامها أهداف سهلة، كما لو كنا في لعبة بولينغ السجاد^(٢)! إن مدفع سيدي هيسبانيولا، هو وصيفتها التي لا تُخطئ. فعليك أيها الملاك أن تنبّهنا إذا رأيت فتيل المدفع يشتعل، حتى نثبت في مكاننا^(٣).

في هذه الأثناء كنا نحقق تقدماً بوتيرة جيدة بالنسبة لقارب شديد الاكتظاظ، ولم يصعد إلى القارب إلا القليل من الماء. وقد أصبحنا قريبين الآن من الشاطئ، بحوالي ثلاثين أو أربعين دفعة بالمجذاف ثم نصل، وبعدها علينا أن نسحب القارب، لأن الجزر كان قد أسفر عن حزام ضيق من الرمل تحت الأشجار المتشابكة والمتجمعة. ولم يعد هناك خوف من القارب الذي كان يائرننا، إذ كان قد اختفى خلف الانعطافة التي أخفّته عن أبصارنا، أمّا تيار الجزر الذي كانت قد تسبّب في تأخيرنا الشديد، فقد صار الآن حليفنا، وأخذ يؤخر مهاجمينا. لذا كان المصدر الوحيد للخطر هو المدفع.

(١) Jack ashore: يشار إلى البحارة البريطانيين عادة باللقب جاك تار، خاصةً خلال فترة الإمبراطورية البريطانية. جاء مصطلح «جاك آشور» للإشارة إلى البحارة البريطانيين الذين كانوا في إجازة على الشاطئ، وعادة ما يكونون مغمورين. وهنا يعني القبطان إتهم بلا فائدة، فكلمهم مغمورين.

(٢) Carpet bowls: لعبة بولينغ نشأت في جنوب إنجلترا، تُلعب داخل مكان مغلق، كالمنزل، على السجاد.

(٣) لأن المدفع سيهدف أمام القارب. فيطلب منهم القبطان أن يتوقفوا عن التجديف والإبقاء على المجاذيف ساكنة في الماء ليثبت القارب فلا نُصيبه القذيفة.

قال القبطان:

- لو كنتُ أجرؤ لتوقفت وقتلت رجلاً آخر.

ولكن كما يبدو فإنهم لا يكثرثون بأمر أي شيء يمكن أن يؤخر من إطلاقهم لقذيفتهم. حتى أنهم لم يلتفتوا إلى رفيقهم الذي سقط جريحاً، رغم أنه لم يمت، وكنتُ أراه يحاول الزحف بعيداً.

صاح الملاك:

- استعداد!

فجاءت إجابة القبطان بسرعة الصدى:

- اثبت!

فتراجعا هو وريدروث بمشقة وعناد عظيمين، حتى صارت مؤخرة القارب تحت الماء. في نفس اللحظة أطلق المدفع قذيفته. وكان هذا أول ما سمعه جيم، أما صوت بندقية الملاك فلم يصله. عندما عبرت القذيفة، ما من أحد منّا عرف بالضبط ماذا حدث، لكنني أتخيل أنها مرّت من فوق رؤوسنا، إذ أنّ عصفها هو ما ساهم في وقوع كارثتنا.

على أية حال، غرقت مؤخرة القارب، بهدوء وبطء شديدين، بحوالي ثلاثة أقدام تحت الماء، فتركنا أنا والقبطان في مواجهة بعضنا على أقدامنا. أما الثلاثة الباقون فقد غطسوا تماماً تحت الماء، وخرجوا منه منقوعين ويُبققون.

إلى هنا لم يلحق بنا أيّ ضرر بليغ، فلم نفقد أرواحاً، وكان

بإمكاننا أن نخوض إلى الشاطئ بأمان. ولكنّ جميع مؤنّتنا كانت في قاع الماء، ومما زاد الطين بلّةً، أنّه قد بقي سلاحان فقط من أصل خمسة في حالة صالحة للعمل. أمّا أنا فقد دفعتني غريزتي لانتزاع سلاحني من على ركبتي ورفعته فوق رأسي. وأمّا القبطان فقد حمل سلاحه فوق كتفه بواسطة حزام عريض، وكما يفعل رجل حاذق، جعل الزناد إلى الأعلى. أمّا الأسلحة الثلاث المتبقية فقد غاصت تحت الماء مع القارب.

ومما زاد في قلقنا، أنّنا سمعنا أصواتاً تدنو منا من جهة الغابة على الشاطئ، ولم نواجه خطر أن يُقطع سبيلنا إلى الحصن ونحن على هذه الحالة شبه المشلولة والعاجزة فحسب، وإنّما كان يُخشى ما إذا كان هانتر وجويس قد تعرّضا لهجوم من قبل نصف دزينة من الرجال، فهل سيكون عندهما آنذاك من الحنكة وحسن التدبير ما يكفي لمواجهة المهاجمين بحزم. فقد خبرنا هانتر رجلاً ثابتاً عند الشدائد، أمّا جويس فقد كُنّا متردّدين بشأنه، فهو رجل ودود ومهذب، يصلح لأن يكون خادماً ينظف ملابس سيده، ولا يصلح أبداً ليكون رجل حرب.

كانت كلّ تلك الأمور تشغل أذهاننا، عندما خوّضنا إلى الشاطئ بأسرع ما يمكننا، تاركين خلفنا قارب الجولي بوت المسكين ونصف حولتنا من البارود والزاد.

(١٨)

الطيب يستمرّ بسرد الأحداث: نهاية اليوم الأول للقتال

اجتزنا طريقنا بأسرع ما يمكننا عبر حزام الغابة الذي فصلنا عن الحصن، وكنا في كل خطوة نسمع أصوات القراصنة تدنو أكثر. ثم سرعان ما صرنا نسمع وقع أقدامهم وهم يركضون، وصوت تكسر الأغصان فيما كانوا يتقدمون عبر أجمة صغيرة.

ونظراً لجدية الموقف فقد بدأت أرى احتمالية أن نشبك معهم في مناوشة قصيرة؛ احتمالية واقعة، فنظرتُ إلى قدّاحة بندقيتي.
قلتُ:

- أيها القبطان، إن تريلاوني هو أفضل رام، فأعطه بندقيتك، لأن بندقيته ليست صالحة للاستخدام.

فتبادلا الأسلحة، ومكث تريلاوني، الذي كان هادئاً ورابط الجأش منذ بداية الأحداث، لوهلة ليتفحص البندقية. في الوقت نفسه، وحين لاحظتُ أن غراي كان بلا سلاح، أعطيته قطلسي، وقد أثلج صدورنا عندما شاهدناه يبصق في كفه، ويقطب حاجبيه،

ويلوح بنصل القطلس في الهواء. وكان واضحاً من كل قسامت
جسد بحارنا الجديد، أنه كان جديراً بملحه^(١).

وبعد أربعين خطوة وصلنا إلى حافة الغابة ورأينا الحصن مائلاً
أمامنا. فوصلنا منتصف السور من جهته الجنوبية، وفي نفس الوقت
تقريباً، ظهر سبعة متمردين بقيادة جوب أندرسون، سائس الدفة،
وهجموا من الركن الجنوب غربي وهم يصيحون.

لكنهم توقفوا كما لو أنهم مشدوهون، إذ لم أكن أنا والقبطان
وحدنا، بل كان كل من هانتر وجويس بالمرصاد من الحصن، وقبل
أن يستعيدوا رشدهم، باغتناهم، وأطلقنا النار عليهم. وراح وابل
الرصاص من البندقيات الأربع ينطلق عشوائياً، إلا أنه أدى غرضه
المنشود، فقد أردى واحد من الأعداء صريعاً، أما البقية، ودون أي
تردد، فقد ولّوا الأدبار واندفعوا بين الأشجار.

وبعد أن أعدنا تلقيم بنادقنا، مشينا خارج السور لنرى العدو
القتيل، لقد كان هامداً كحجر، إذ أصابت الطلقة قلبه.

وما كادت قلوبنا تنشرح لهذا الظفر، حتى فرقع مسدس من جهة
الأجمة، وصفرت طلقة بالقرب من أذني، فأصابت توم ريدروث
المسكين وخرّ صريعاً على الأرض. حينها قمنا أنا والملاك بردّ النار،
ولأننا لم نكن نرى هدفنا، فربّما راح البارود سدى. ثم أعدنا تلقيم
سلاحينا، والتفتنا إلى توم المسكين.

(١) Worth one's salt: أن يستحق شخص المكافأة والجزاء لجدارته وكفاءته.

كان كل من القبطان وغراي يفحصانه، أما أنا، وبنصف نظرة
فحسب ألقيتها عليه، أدركت أن أمره محتوم.

أعتقد أن استعدادنا لصدّ الهجمة بوابل من الرصاص كانت قد
شتتت شمل المتمردين مرة أخرى، لأننا لم نعانِ من المضايقة عندما
رفعنا بجهد جهيد، حارس الصيد العجوز من فوق السور، فيما كان
يتأوه ويتزف، إلى داخل المأوى الخشبي.

إنّ هذا العجوز المسكين، ومنذ بداية مصاعبنا حتى الآن، لم يفُ
بكلمة، لا دهشة ولا انزعاجاً ولا خوفاً، ولا حتى إذعاناً، عندما
وضعه على فراش موته في المأوى الخشبي. لقد ربض مثل طرواديّ
خلف المرتبة عندما كان في دهليز السفينة، وقد أطاع كل أمرٍ بهدوء
وإصرار وإتقان، ولقد كان يفوق أكبر عصبتنا عمراً بعشرين سنة،
والآن يرقد هذا العجوز العنيد الخدوم محتضراً.

جثا الملاك على ركبته إلى جانبه، وقبّل يده، ثمّ أجهش بالبكاء
كطفل.

سألني:

- هل أنا راحل أيها الطبيب؟

أجبت:

- توم، يا صاحبي، أنت راحل إلى الديار.

فقال:

- كم أتمنى لو أنّي حظيت بفرصة لأطلق عليهم النار أولاً.

قال الملاك:

- أو تغفر لي يا توم؟

فأجابه توم:

- أكون في ذلك سلوكٌ محترمٌ مني نحوك؟ لكن مهما يكون الأمر، فأنا أغفر لك، آمين!

وبعد هنيهة، قال إنه يعتقد أن على شخص ما أن يقرأ عليه صلاة، وأضاف بنبرة معتذرة: «كما تقتضي العادة يا سيدي». ولم يطل الأمر، ودون أن يقول كلمة أخرى، فقد توفي.

قام القبطان في هذه الأثناء، وكنت قد لاحظت أن جيوب صدره والجيوب الأخرى منتفخة؛ بإخراج عدّة أشياء مخبأة: علم بريطاني، كتاب مقدس، لفة من جيل متين، قلم، حبر، سجل السفينة، وأرطال من التبغ. وكان قد عثر في الحظيرة على جذع طويل لشجرة تنوب مقطوع ومشذب، وبمساعدة هانتر أقامه في أحد أركان الماوى حيث تقاطعت الجذوع صانعة زاوية، ثم تسلق السطح ورفع العلم البريطاني.

بدا أن هذا الأمر كان يخفف عنه للغاية. عاد إلى الماوى وانكب على عدّ وفرز المؤن كما لو أن لا وجود لشيء آخر حوله. ولكنه كان خلال ذلك، يراقب توم وهو يسلم الروح، وبمجرد أن انتهى من كل شيء، كان قد تقدّم بعلمٍ آخر غطى به الجسد في وقار.

قال وهو يصافح الملاك:

- هون على نفسك يا سيدي، فقد أحسن هذا الرجل عملاً،
فلا خوف على عاقبة بحار يموت وهو يؤدي واجبه تجاه
قبطانه وسيده. قد لا يكون في هذا الكلام من التعاليم الدينية
والورع من شيء، لكنّها الحقيقة.

ثم أخذني جانباً وقال لي:

- أيها الطبيب ليفزي، كم أسبوعاً تتوقع أنت والملاك سيمر
قبل وصول السفينة التي سترسل في إثرنا؟

فأخبرته أنّها ليست مسألة أسابيع بل أشهر، فإننا إن لم نعد
بحلول نهاية أغسطس، فإن بلاندي سيأتي في إثرنا، ولكن هذا لن
يحصل لا قبل هذا الموعد ولا بعده. وأضفت:

- ولت حسب أنت العواقب.

فأجاب القبطان وهو يحكّ رأسه:

- نعم، بذلك النقص في المؤن، وحتى مع العناية الإلهية، عليّ
أن أقول يا سيدي إننا مقبلون حتماً على كارثة^(١).

سألته:

- ماذا تقصد؟

فأجاب القبطان:

(١) close-hauled: الإبحار بالقرب من الريح بقدر الإمكان، وداخل الريح بالقدر الذي
تسمح به الأشرعة.

- إنه لأمر مؤسف أننا فقدنا حمولتنا الثانية، يا سيدي. هذا ما أقصده. أمّا بالنسبة لمخزوننا من البارود والذخيرة فهو يكفيننا. لكن مؤونة الطعام قليلة جداً يا دكتور ليفزي، بل وشحيحة. ولربّما صرنا الآن أفضل حالاً من دون ذلك الفم الإضافي.

ثم أشار إلى الجسد المسجّى تحت العلم.

في هذه اللحظة، عبرت قذيفة مدفع فوق سقف المأوى الخشبي وأحدثت صفيراً وهديرأ، ثم هوت خلفنا بعيداً في الغابة.

صاح القبطان، وكان حديثه موجهاً إلى القراصنة:

- أوه! هيا، أطلقوا النار ما شتتم! فليس لديكم إلا القليل من البارود يا صبياني!

لكن تسديدتهم في المحاولة الثانية جاءت أفضل وأحكم، فسقطت القذيفة داخل ساحة الحصن، وأثارت سُحباً من الغبار، إلا أنّها لم تسبّب أضراراً أخرى.

قال الملاك:

- أيها القبطان، إنّ المنزل لا يُرى من السفينة، فلا شكّ إذن أنّهم يسدّدون على العلم. أفلا يكون من الحكمة أن ننزله؟

فصاح القبطان:

- أنزل بيرقي! لا يا سيدي، لستُ من يأتي بمثل هذا، أنا لا أستسلم وأنزل هذا العلم، أبداً!

وبمجرد أن قال كلماته، أعتقد أننا وافقناه الرأي جميعنا. إذ لم يكن هذا مجرد إحساس يتصف بالشجاعة والرجولة البحرية والصلاح وحسب، بل كان إضافة إلى ذلك كله، سياسة حكيمة، تُظهر لأعدائنا أننا نحترق مدفعهم ولا نكثرث لقصفهم.

لقد ظلّت مدافعهم ترعد طوال المساء، فكانت القذائف تحلّق ككرة إثر أخرى، فتارة تسقط قبل أن تصلنا أو تفوتنا وتحلق بعيداً، وتارة تسقط في الساحة وتثير الرمال، إذ كان عليهم أن يصوبوا عالياً جداً، فكانت قذائفهم تسقط مميّنة وتدفن نفسها في الرمال الناعمة. ولم يكن هناك من ارتداد للقذائف لنخشاه، رغم أنّ واحدة منها دخلت من سقف المأوى الخشبي وخرجت من الأرضية، لكننا سرعان ما اعتدنا على هذا النوع من الجلبة ولم نكن نراه أكثر من لعبة كريكية.

أدلى القبطان بملاحظة:

- هنالك فائدة من هذا الوضع، هو أن الغابة التي أمامنا لا بدّ وأن تكون خالية منهم. وبما أنه قد مرّ وقت على حدوث الجزر، فهذا يعني أنّ مؤونتنا الغارقة قد انحسر عنها الماء. لذا سيذهب متطوّعون لإحضار لحم الخنزير.

كان غراي وهانتر أول من تقدّما. انسلّا من الحصن وهما مسلّحان. ولكن تبيّن أنّها كانت مهمة بلا طائل. إذ كان المتمردون أكثر جرأة مما تخيلناهم، أو ربّما كانوا واثقين من تصويب إزريال، لأن أربعة أو خمسة منهم كانوا منهمكين في الاستيلاء على مؤونتنا ويخوضون في الماء فيما يحملونها على قارب غيغ كان قريباً منهم،

يسحبونه ويشبتونه بمجذاف أو ما شابه لكي يُبقون عليه ثابتاً ضد التيار. وكان سيلقُر في المؤخرة يقودهم، وقد صار الآن كل رجل منهم مزوداً ببندقية أتوا بها من مستودع ما سرّي خاص بهم.

جلس القبطان إلى سجله البحري الضخم، وكانت هذه بداية الإدراج: القبطان: الكساندر سموليت، طبيب السفينة: دايفيد ليفزي، نجار، رجل بحر: إبراهيم غراي، الملاك: جون تريلاوني، خادما الملاك: جون هانتر وريتشارد جويس، وهما من رجال البرّ. وهؤلاء من بقي مخلصاً لعصبة السفينة. ومعهم مؤونة تكفي لعشرة أيام، ومخزون طعام شحيح، نزلوا هذا اليوم على الشاطئ، ورفعوا العلم البريطاني على الحصن في جزيرة الكنز. توماس ريدروث، خادم الملاك، رجل برّ، أطلق المتوردون عليه النار وأردوه قتيلاً. جيمس هوكينز صبي المقصورات...

وفي نفس الوقت الذي كنتُ أتساءل فيه عن مصير الفتى جيم هوكينز، سمعتُ نداءً من جهة البرّ.

فقال هانتر الذي كان على الحراسة:

- أحدهم ينادي علينا.

وتوالت النداءات:

- أيها الطبيب! أيها القبطان! أيها الملاك! هلو! أهذا أنت يا هانتر؟

ركضتُ إلى الباب فوجدت جيم هوكينز، سليماً معافى، يتسلق

سور الحصن.

(١٩)

جيم هوكينز يستأنف رواية الأحداث: الثكنة في الحصن

ما أن وقعت عينا بين غان على العلم البريطاني، حتى توقف عن المشي، وأمسكني من ذراعي لأقف، ثم جلس وقال:
- ها هم أصدقاؤك بالتأكيد.

فأجبت:

- على الأرجح إتهم المتمردون.

فصاح:

- أتظن في مكان مثل هذا، حيث ما من أحد سيأتي إلا سادة الحظ، أن سيلفر سيرفع الجولي روجر؟^(١) عليك ألا تشكك في هذا. أما هناك فهؤلاء هم أصدقاؤك، وتلك هي ضربات مدفع، وأعتقد أن أصدقاؤك قد نالهم الكثير منها، ها هم الآن في الحصن القديم الذي بناه فلينت قبل سنوات وسنوات. آه،

(١) Jolly Roger: علم القراصنة الأسود، وتتميزه رسمة بالأبيض لجمجمة وعظمين متقاطعين.

نعم لقد كان فلينت رجلاً ذا دماغ وفطنة، ولولا أنه يحتسي
الروم فما من أنداد له. وهو لم يخش أحداً إلا سيلفر، فقد كان
سيلفر رجلاً استثنائياً.

قلتُ:

- حسناً، قد يكون الأمر كما قلت، وهذا سبب إضافي لكي
أسرع وأنضم إلى أصدقائي.

فأجاب بين:

- كلا يا رفيق، ليس أنت، أنت فتى صالح، أو قد أكون مخطئاً
بشأنك، ولكنك ولد، صراحة. أمّا بين غان فهو ذبابة^(١)،
ولن يأخذني الروم إلى هناك، إلى حيث ستذهب، كلا، لن
يفعل الروم بي ذلك، حتى أرى سيدك الملاك النبيل، وأخذ
منه كلمة شرف. ولا أحسبك ستنسى كلماتي: «إن بين غان
يضع كامل ثقته»، هذا ما ستقوله «كامل ثقته»، ومن ثم
ستقرصه هكذا.

ثم قرصني للمرة الثالثة، وعليه نفس ملامح الدهاء التي
أظهرها في المرتين السابقتين.

- وعندما يُطلب بين غان، فأنت تعرف أين تجده، في نفس المكان
الذي وجدته في اليوم يا جيم. أمّا الشخص الذي سيأتي

(١) ذبابة، كلمة عامية تعني لص، ويعني بين غان أنه يقظ، وحاد، وسريع.

فعلية أن يحمل بيده شيئاً أبيض، وعليه الحضور بمفرده،
وأيضاً، ستقول: «إنّ لبن غان أسبابه الخاصة».

فقلت:

- حسناً، أظنني فهمت. أنت عندك ما تقترحه، وترغب في
رؤية الملاك أو الطبيب، وستكون حيث وجدتك اليوم،
أهذا كل شيء؟

أضاف:

- ومتى؟ إذا سألتني متى الموعد، حسناً، فذلك سيكون في
الظهيرة، عندما يقرع الجرس ستّ دقائق^(١).

قلتُ:

- حسناً، والآن أيمكنني الذهاب؟

فسأل بقلق:

- أنت لن تنسى كلماتي «كامل الثقة» و«الأسباب خاصة به»،
هذا ما ستقوله. أسبابه الخاصة هذا هو الشيء الأساسي، أي
أنّ الأمر بين رجلين.

ثم أضاف وهو لا يزال ممسكاً بي:

- حسناً إذن، أعتقد أنه يمكنك الذهاب. ويا جيم، إذا رأيت
سيلفر، فلا أحسبك ستدلّه على بين غان، أليس كذلك؟

(١) في الثالثة ظهراً حسب التوقيت البحري.

حتى الخيول البرية لن تسحب السر منك، صحيح؟ ستقول
لا. ولو تعسكر القراصنة على الشاطئ، فستكون هناك
أرامل في الصباح^(١).

وهنا قاطعته ضربة مدفع مدوية، فأنت القذيفة لتمزق الأشجار
ووقعت في الرمال على بعد مائة ياردة من المكان الذي كنا نقف فيه
نتحدث. في اللحظة التالية انطلق كلانا؛ كل واحد منا في اتجاه.

ظلت الجزيرة تهتز طوال ساعة كاملة بضربات المدفع المتكررة،
وكانت القذائف تسقط ممزقة الأشجار وصانعة دويّاً شديداً في
الغابة. وبقيت أتقل من مخبأ إلى آخر، وكانت هذه القذائف المرعبة
تلاحقني أينما ذهبت، أو هكذا خيل إلي. وقبيل انتهاء القصف
المدفعي، ومع أنني كنت لا أزال أخشى أن أجازف في الذهاب باتجاه
الحصن، حيث غالباً ما كانت تسقط القذائف؛ بدأت، وبطريقة ما،
أستجمع شجاعتي، وبعد انعطافة طويلة إلى الشرق، زحفت بين
الأشجار التي في جانب الساحل.

كانت الشمس قد غربت للتو، وكان نسيم البحر يخشخش
ويقرقع في الغابات، ويغضن وجه الماء الرمادي في المرسى. وكان
المدد قد انحسر بعيداً كاشفاً عن لسان رملي، وقد تغير الهواء الذي
كان حاراً في النهار، فتغلغل برودته خلال معظفي حتى أصابتنني
بالقشعريرة.

(١) Widderes بكلام القراصنة هي أرامل widows. وفي فصل لاحق سيتبين أن بين غان
قام بغارة على القراصنة وهم ثملين في الليل وحطم رأس أحدهم.

كانت الهيسپانيولا ما تزال قابعة في المكان الذي رست فيه، ولكن ها هو ذا، وبكل تأكيد، الجوي روجر: علم القراصنة، يرفرف عالياً فوق قممها^(١). وبينما كنتُ أراقبها فإذا بوميضٍ أحمرٍ آخر، وصوت إطلاقه مدفعٍ أخرى تردّد صداها مجلجلاً، ثم صفّرت قذيفةً أخرى في الهواء، وكانت هذه نهاية القصف المدفعي.

مكثت لفترة أراقب الجلبة والهباج عقب الهجوم المدفعي، فرأيتُ رجالاً يحطمون بواسطة الفؤوس، شيئاً ما كان على الشاطئ بالقرب من الحصن، وقد اكتشفت فيما بعد أن ذلك الشيء هو قارب الجوي بوت المسكين. ورأيت عن بعد ناراً عظيمة تشتعل بالقرب من مصب النهر بين الأشجار، وبين ذلك المكان والسفينة كان هنالك قارب غيغ ظلّ يروح ويحيى، أمّا الرجال الذين رأيتهم قبل ذلك متجهّمين، فقد كانوا يصرخون على المجاذيف كالأطفال. وكانت هنالك نبرة في أصواتهم تشي بأنهم ثملون بالروم.

أخيراً، فكّرت أن أعود إلى الحصن. كنتُ في أسفل اللسان الرملي الذي كان يغلق المرسى من جهة الشرق ويتصل بجزيرة الهيكل العظمي من جزئها المغمور إلى النصف بالماء، والآن عندما وقفت على قدمي متصبّأً، رأيتُ صخرة معزولة، عالية، وبيضاء اللون، على مسافة بعيدة أسفل اللسان الرملي وترتفع عالياً فوق الأجمات. وقد خطر لي أنّها ربّما كانت الصخرة البيضاء التي تحدث

(١) Jolly Roger: علم القراصنة عادةً بالأسود وكان علم انغلاند مرسوماً عليه جمجمة وعظمين متصاليين. وكلمة roger مفردة عامية تعني السارق أو الخارج عن القانون.

عنها بين غان، والتي يقبع قاربه تحتها، ولربما سيأتي يوم أحتاج فيه هذا القارب، وسأعرف أين أجده.

ثم أنني أخذت أسير على حافة الغابة حتى وصلت إلى خلفية الحصن، أو الجانب الساحلي منه، وسرعان ما وجدت نفسي بين أصدقائي المخلصين.

وما أن حدثتهم بقصتي كاملة، حتى رحّت أنظر حولي، فانتبهتُ إلى أنّ سقف وجدران وأرضية المأوى الخشبي مصنوعة كلّها من جذوع الصنوبر متباينة الأشكال والأحجام. وكانت أرضية المأوى تعلو في عدة مواضع عن السطح الرملي بمقدار قدم أو قدم ونصف القدم. كانت على الباب شرفة، وتحت هذه الشرفة كان هنالك نبع صغير يصب في حوض صناعي غريب الهيئة نوعاً ما، فهو ليس سوى غلاية سفينة، حديدية كبيرة، وقد تحطم قاعها، وغطست في الرمال، ويتعبير القبطان: «حتى مستوى الطفو»^(١).

ولم يبق الكثير عدا هيكل المأوى الخشبي، ولكن في أحد الأركان كان هنالك لوح حجري مطروح أرضاً، لكي يكون مدفأة، ولم يكن الموقد سوى سلّة حديدية تحتوي النار.

كانت الأشجار التي استعملت في بناء المأوى قد قُطعت من منحدرات الربوة ومن ساحة الحصن. وأمكنا أن نرى من خلال الجذوع الباقية، أيّ بستان جميل وكثيف هذا الذي جرى تدميره.

(١) Bearings: الجزء الأوسع من السفينة تحت السطح أو أسفلها حيث يتصل السطح بالهيكل. ويعني هنا أن الغلاية مغمورة بمعظمها تحت الرمال.

وقد انهالت التربة أو انجرفت بعد إزالة الأشجار، إلا ما كان بقرب مجرى الجدول من الغلاية، فكان ثمّة بساط كثيف أخضر وسط الرمال، من الطحالب والسرخسيات وشجيرات صغيرة زاحفة. وحول الحصن وقريباً منه جداً، وقد قالوا إنها أقرب إلى أن تكون حاجزاً دفاعياً؛ كانت الغابة مزدهرة وكثيفة وعالية، وكلّها من أشجار التّوب على جانب اليابسة، أمّا باتجاه البحر فقد كان ثمّة خليط من أشجار السنديان دائمة الخضرة.

كان نسيم المساء البارد، الذي تحدثت عنه، يصفر من كل صدع في المبنى الغليظ، وكان ينثر الأرضية بوابل مستمر من الرمال الناعمة. فكان الرمل في عيوننا، وفي أسناننا، وفي عشاتنا، وكان هناك رمل يتراقص مع ماء النبع في قاع الغلاية، كما لو كانت عصيدة تغلي. وأمّا مدختنا فكانت عبارة عن فتحة مربعة في السقف، ولم يجد إلا جزء قليل من الدخان طريقه إلى الخارج، أما الباقي فكان يحوم حولنا في داخل المأوى، فكنا نسعل ويسيل الماء من عيوننا كالمواسير. أضف إلى ذلك، أن غراي، الذي كان هو الرجل الجديد، قد لفّ وجهه بضمادة، إذ كان قد أصيب بجرح أثناء انفصاله عن المتمردين، وهناك أيضاً، توم ريدروث المسكين، الذي لم يُدفن بعد، كان مسجّى تحت العلم البريطاني، ممدداً إلى جانب الجدار، يابساً ومتصلباً.

ولو أنّنا تركنا للجلوس عاطلين، لسقطنا جميعنا في الكآبة، لكن القبطان سموليت لم يكن ليدع ذلك يحدث. إذ استدعى كلّ بحارته

ليقفوا أمامه، وقسمنا إلى مجموعتين مناوبتين، فكان الطيب وغراي وأنا في مناوبة، والملاك وهانتر وجويس في المناوبة الأخرى. وعلى الرغم من أننا كنا جميعاً منهكين، إلا أنه أرسل اثنين منا للاحتطاب، واثنين آخرين ليحفروا قبراً لريدروث، وقد تم تعيين الطيب طبّاحاً، وأنا خفيراً على الباب، أمّا القبطان نفسه، فكان منهمكاً من مهمة إلى أخرى، يرفع من معنوياتنا، ويمدّ يد المساعدة حيثما تكون مطلوبة.

وبين وقت وآخر كان الطيب يأتي إلى الباب ليحصل على قليل من الهواء، وليريح عينيه من الدخان الذي كان يكاد يجعلها تجحضان من رأسه، وقد كان كلّما أتى، عنده ما يقوله إليّ.

قال مرة:

- إنّ سموليت ذاك، هو رجل أفضل مني، وعندما أقول شيئاً كهذا، فذلك يعني الكثير يا جيم.

وعندما جاء في مرة أخرى كان صامتاً لفترة، ثم مال برأسه على جانب، ونظر إليّ فسألني:

- بين غان، أهو إنسان عاقل؟

فقلتُ:

- لا أعلم يا سيدي، لستُ واثقاً من سلامة عقله.

فأردف الطيب:

- إذا كان هنالك شكّ في الأمر، فهو ليس عاقلاً. إن الرجل الذي يقضي ثلاث سنوات في قضم أظافره على جزيرة معزولة، لا

تتوقع منه أن يكون عاقلاً مثلك ومثلي يا جيم. فهذا ليس من طبيعة البشر. أقلتَ إنه يحلمُ بالجبنة؟

أجبتُه:

- نعم يا سيدي، الجبنة.

قال:

- حسناً يا جيم، أنظر إلى فوائد كون المرء انتقائياً في طعامه. لقد رأيتَ علبة سعوطي من قبل، أليس كذلك؟ ولكنك لم ترني أتشنقه أبداً، إنَّ سبب ذلك هو أنني أحمل في علبتي تلك، قطعة من جبنة البارميزان، وهي جبنة تُصنع في إيطاليا، وهي مغذية جداً. حسناً، هذه الجبنة ستصبح من نصيب بين غان!

قمنا قبل أن نتناول العشاء بدفن العجوز توم في الرمال، ووقفنا حوله لفترة حاسري الرؤوس في النسيم البارد. وقد جمعنا كمية كبيرة من الحطب، ولكنها لم تكن كذلك في نظر القبطان، فقد هزَّ رأسه معترضاً وقال: «علينا أن نعاود الكرة غداً بنشاط أكبر». ثم بعد أن أكلنا عشاءنا من لحم الخنزير، وشرب كل واحد منا كأساً قوية من غروغ البراندي، اجتمع القادة الثلاثة في ركن لمناقشة أمرنا.

وقد بدا أنهم في حيرة من أمرهم في ما يجب عليهم فعله، فالمؤون كانت شحيحة جداً، وقد يدفعنا الجوع إلى الاستسلام قبل أن تصل النجدة. ولكن تقرر أن أفضل خيار لدينا، هو أن نواجه القراصنة ونفتك بهم، حتى لا يعود أمامهم إلا خياران، أن يُنزلوا علمهم،

أو أن يفروا بالهيسبانيولا. فقد انخفض عددهم من تسعة عشر إلى خمسة عشر، وجرح اثنان منهم، أحدهما كانت إصابته بليغة، هذا إن لم يكن قدمات، وهو الرجل الذي تلقى الطلق الناري قرب المدفع. لذا علينا أن ننتهز كل فرصة تسنح، لنبقى محافظين على أرواحنا، وبأقصى درجات الحذر. أضف إلى كل ذلك، أنه كان هناك حليفان قديران وهما: الروم والمناخ.

أما عن الأول، فمع أننا كنا على بعد نصف ميل عن معسكرهم، إلا أننا كنا نسمعهم يعربدون ثملين ويغنون حتى وقت متأخر من الليل. وأما عن الثاني، فقد راهن الطبيب بباروكته على أن مكوثهم حيث هم بالقرب من المستنقع سيدفع بنصف عددهم إلى المرض، وأنهم سينتهون على ظهورهم قبل نهاية الأسبوع، خاصة وأنهم لا يملكون أي دواء أو علاج.

وأضف:

- لذا في النهاية، إن لم يقتلونا أولاً، فسيسعدهم أن يظفروا بالسفينة. فهم ليسوا بحاجة إلا لمركبٍ وسيعودون إلى القرصنة مجدداً، هكذا أفترض أن مجرى الأمور سيسير.

قال القبطان سموليت:

- هذه أول سفينة أخسرها.

وكما تتخيلون، كنتُ منهكاً تماماً، لذا عندما رقدتُ لأنام، وبعد أن تقلبتُ كثيراً، همدتُ كجذع خشبي.

كان البقية قد استيقظوا من نومهم منذ فترة طويلة، وتناولوا
فطورهم، وزادوا من كومة الحطب بحوالي النصف.

هناك أيقظتني جلبة وأصوات.

فقد سمعتُ أحدهم يقول:

- إنها راية الهدنة!

وأعقبته مباشرة صيحة على إثر مفاجأة:

- إنه سيلفر بنفسه!

وعند هذه الكلمة، قفزت من فراشي، وفركتُ عينيّ، ثم

ركضتُ إلى ثغرة في الحائط.

(٢٠)

بعثة سيلقر

لم يطل الأمر وإذا برجلين يشخصان خارج الحصن، أحدهما كان يلوّح بقماش أبيض، والآخر لم يكن إلا سيلقر بدمه ولحمه، يقف بهدوء قرب صاحبه.

كان الوقت لا يزال مبكراً، وأعتقد أنّ ذلك الصباح كان أبرد ما مرّ عليّ، فقد كان البرد ينفذ في العظم حتى النخاع. كانت السماء فوقنا مشرقةً وصافية بلا غيوم، وقد تلالأت قمم الأشجار تحت الشمس بلون وردّيّ، إلا المكان الذي وقف فيه سيلقر مع ملازمه، فقد كان محجوباً تحت جناح الظلام، وكانا يخوضان إلى الركب بالضباب الأبيض المنخفض الذي كان قد زحف خلال الليل من المستنقع، كما لو أنّ البرد والضباب اجتمعا لرواية قصة الجزيرة التعيسة، إذ كان جلياً أنّها بقعة رطبة، محمومة، وغير صحية.

قال القبطان:

- ابقوا في الداخل يا رجال، أراهن من عشرة إلى واحد أنّ هذه خدعة.

ثم هتف إلى القراصنة:

- من أنتما؟ قفا في مكانكما أو نطلق النار!

صاح سيلفر:

- راية هدنة!

كان القبطان واقفاً في الشرفة، مُبقياً بحذر نفسه بعيداً عن مرمى طلقة غدر، إذا ما كان في نية أحدهم ذلك. ثم استدار وقال لنا:

- على جماعة المناويين مع الطيب أن يلزموا نقط المراقبة، أيها الطيب لو سمحت، خذ أنت نقطة المراقبة في الجانب الشمالي. وأنت يا جيم إلى الشرق، وغراي إلى الغرب، وأما مجموعة المناويين الثانية^(١)، فخذوا بنادقكم واحشوها. وكونوا على يقظة وحذر يا رجال.

ثم التفت ثانية إلى المتمردين، وصاح:

- وماذا تريد براية هدتك؟

جاءت الإجابة هذه المرة من الرجل الآخر، فصاح:

- إن القبطان سيلفر قد أتى للتفاوض، يا سيدي.

صاح القبطان:

- القبطان سيلفر! لا أعرفه، ومن يكون هذا؟

(١) watch below: مجموعة البحارة الذين في يكونون فترة استراحتهم.

ثم سمعناه يحدث نفسه ويقول: «أصار قبطاناً؟ ويحي، أية ترقية هذه!».

أجاب جون الطويل عن نفسه:

- إنه أنا يا سيدي. لقد اختارني هؤلاء الفتية المساكين لأكون قبطاناً، بعد انشقاقك عنا، يا سيدي..

وكان قد ركز بشكل خاص على كلمة «انشقاق» وهو يقولها.

- .. نحن على استعداد للخضوع لشروطكم إذا ما تفاوضنا، ولن تكون هناك أية عظام مخفية في الأمر^(١)، وكل ما أطلبه منك يا قبطان سموليت هو كلمتك، بأن تدعني أخرج من هذا الحصن سليماً ومعافى، وتمهلني دقيقة حتى أبتعد قبل إطلاق النار.

قال القبطان سموليت:

- ليست لدي أدنى رغبة في الحديث معك يا هذا. ولكنك إذا رغبت بالحديث معي، فيمكنك القدوم وهذا كل شيء. أما إذا كانت هنالك أية بادرة للخيانة، فستكون من جانبك أنت، وعندها، فليكن الرب بعونك.

(١) no Bones about It: أي أن يقال كل شيء بوضوح، بحيث لا يدع مجالاً للشك أو الاعتراض. هذا التعبير انتشر في إنجلترا في القرن الخامس عشر، فلو أراد شخص ما إبداء اعتراضه أو عدم رضاه من شيء ما، فيقول إنه وجد عظماً فيه، في إشارة إلى اكتشاف وجود العظام في الحساء وهو اكتشاف لا يسرّ أحداً.

فصاح سيلفر وقد بدا مسروراً:

- وهذا كافٍ، إن كلمة واحدة منك كافية، فأنا ولا ريب،
يمكنني أن أُميّز الرجل الشريف عندما أراه.

كنا نرى الرجل الذي كان يحمل راية الهدنة وهو يحاول أن
يُثني سيلفر عن عزمه. ولم يكن ذلك مُستغرباً، نظراً لإجابة القبطان
المتعالية والصارمة. إلا أن سيلفر ضحك عليه بصوت عالٍ وصفعه
على قفاه كما لو أن فكرة الحذر بحدّ ذاتها كانت سخيفة في نظره. ثم
تقدّم إلى الحصن، وألقى عكّازه من خلف السور، وتسلّق بساق
واحدة برشاقة ومهارة عاليتين، ونجح في اجتياز السور والهبوط
بأمان إلى الجانب الآخر.

وسأعترف أنني كنتُ منغمساً للغاية بما كان يجري حتى ما عاد
لوجودي كخفير أية فائدة. فقد تركتُ الثغرة على الجهة الشرقية
وتسللت خلف القبطان، الذي كان جالساً على العتبة ومرفقاه على
ركبتيه ورأسه بين كفيّيه، فيما كانت عيناه تحدّقان في الماء المتدفق من
الغلاية الحديدية إلى الرمل. وكان يصفر لحن أغنية: «تعالوا يا فتیان
ويا فتیات...»^(١).

وقد عانى سيلفر كثيراً حتى يصعد إلى الربوة. فقد كان هو
وعكّازه عاجزين كسفينة بلا أشرعة في مهب ريح، بسبب من
انحدار المرتفع، وجذوع الأشجار السميكة، والرمال الناعمة. إلا

(١) get leave of your dads, Come, Lasses and Lads : إحدى أغاني الأطفال الشعبية.

أنّه تحمّل المشقة والعناء بصمتٍ كرجل حقيقي. وفي النهاية وصل إلى القبطان ووقف أمامه، وحيّاه بأجمل التحايا. لقد كان مزداناً بأفضل ما عنده: معطف أزرق سميك وواسع بأزرار نحاسية، يمتدّ إلى ركبتيه، وقبعة أنيقة برباط على مؤخرة رأسه.

رفع القبطان رأسه وقال:

- ها قد وصلت يا صاحبي. يستحسن أن تجلس.

فتذمّر جون الطويل قائلاً:

- ألن تسمح لي بالدخول يا قبطان؟ إن هذا الصباح بارد بما يكفي لكي يجلس المرء في العراء على الرمال، يقيناً، يا سيدي.

قال القبطان:

- ولماذا يا سيلفر؟ لو أنك رضيت بالبقاء شريفاً، لربما كنت الآن جالساً في مطبخك، ولكن هذا من صنعة يديك. إن أمامك خيارين، إما أن تكون طبّاحاً على سفيتي، وعندئذ ستعامل على نحو حسن، أو أنك يا قبطان سيلفر، تكون متمرداً عادياً وقرصاناً، وعندئذ ستُشنق!

فأجاب طبّاح السفينة:

- حسناً، حسناً يا قبطان!

ثم جلس على الرمل كما أمر وقال:

- ولكن عليك أن تمدّ يدك إليّ لأنّض ثانية. يبدو أنّ لديك مكاناً جميلاً ولطيفاً هنا. ها، وهذا جيّم! صباح الخير يا جيّم.

وأيتها الطيب، أنا في خدمتك. ها، يبدو أنكم مجتمعون كعائلة سعيدة، كما يقال.

قال القبطان:

- إذا كان لديك ما تؤدّ قوله، فيا صاحبي، من الأفضل لك أن تبدأ الكلام.

فأجاب سيلفر:

- أنت على حق يا قبطان سموليت، فالواجب واجب بلا شك. حسناً، انظر، أنا لا أنكر أن البارحة كانت حيلة جيدة من قبلكم، كما لن أنكر أن بعضكم بارع في التصويب. ولكن بعض رجالي تأثر واضطرب خوفاً، ويمكن أنهم كانوا جميعهم كذلك، ويمكن أيضاً أن أكون مثلهم، ولربما كان ذلك ما حثني على القدوم إلى هنا للتفاوض. ولكن، فلتضع في حسابك يا قبطان، لن يتكرر ما حدث مرة ثانية، قسماً بالرعد! سيكون علينا أن نزيد من نوبات حراستنا، وأن نخفف درجة أو اثنتين من شرب الروم^(١). وقد يخيل لك أننا كنا كلنا من شدة الشمالة كشرع في مهب الريح، إلا أنني كنتُ صاحياً، ولكن كنتُ منهكاً ككلب من شدة التعب، ولو أنني استيقظت أبكر ولو بثانية واحدة، لكنتُ نلتُ

(١) ease off: التخفيف من شدّ الحبال على الأشرعة لكي تقلل السفينة من توجهها بفعل الريح. وهنا استعملت بمعنى التخفيف من الشرب.

منكم وقتها، بالتأكيد. أمّا هو فلم يكن ميتاً عندما وصلت إليه، كلا لم يكن.

قال القبطان، بأقصى ما يكون من برودة الأعصاب:

- حسناً؟

كلّ ما قاله سيلفر كان لغزاً بالنسبة إليه، ولكنكم ما كنتم لتحزروا هذا من نبرة صوته. أمّا أنا، فراودني شكّ عندما عادت إلى ذهني كلمات بين غان الأخيرة. وبدأت أعتقد أنه زار القراصنة فيما كانوا جميعهم ممدّدين سكارى حول النار، ثم انشرح صدري عندما فكّرت أنّه لم يبق أماننا من الأعداء سوى أربعة عشر رجلاً لتتخلص منهم.

قال سيلفر:

- الأمر كالتالي: نحن نريد الكنز، ولسوف نحصل عليه، فهذا هو مطلبنا! وأعتقد أنّ كلّ ما تريدونه هو النجاة بحياتكم، وهذا الأمر بيدكم. ولا شكّ أن الخريطة عندكم أليس كذلك؟

فأجاب القبطان:

- محتمل.

أردف جون الطويل:

- أوه، حسناً، أعرف أنها عندكم. فلا حاجة بك لأن تكون صارماً وتحدث بصوت أجش معي، فلن تجني أية فائدة

من أمر كهذا. إن ما أعنيه هو أننا نريد خريطتكم. أما عني
فأنا لم أقصد التسبب بأي أذى.

قاطعہ القبطان قائلًا:

- هذا لن يجدي نفعاً معي يا صاحبي. فنحن نعلم ماذا كنت
تقصد تماماً، ولا نهتم، وكما ترى فإنه ليس بيدك فعل شيء.
ثم نظر القبطان من حوله بكل هدوء وشرع في حشو غليونه.
فاندلع سيلفر قائلًا بغضب:

- لو كان أيب غراي...^(١).

فصاح القبطان سموليت:

- قف عند حدك! غراي لم يخبرني بأي شيء، كما أنني لم أسأله
عن أي شيء، ولأزدك علماً، فأنا أتمنى لو احترقت أنت وهو
وكل هذه الجزيرة، واختفيتم من وجه الماء. وهذا هو ظني
بالأمر كله، يا صاحبي.

بدا أن فورة الغضب الصغيرة هذه قد كبحت من زمام
سيلفر، الذي كان قبل قليل شرساً ولاذعاً، وبدا الآن أنه قد
ارتدع وخمد.

استجمع صوابه وقال:

- يكفي هذا. فأنا لن أضع حداً لما يعتبره رجل، أو لا يعتبره،

(١) Abe Gray: أيب اسم مصغر لإبراهام Abraham.

عين الصواب، مثل هذه القضية. وبما أنني أراك الآن تستل
غليونك يا قبطان، فإني سأخذ حريتي وأجاريك.

ثم ملأ غليونه وأشعله، وجلس الرجلان بصمت يدخان
لفترة طويلة، تارة ينظر أحدهما في وجه الآخر ثم إلى تبغ غليونه،
وتارة ينحنيان أماماً ليصقا. وكانت رؤيتهما في هذا المشهد مبعثاً
للبهجة مثله مثل اللعب.

استأنف سيلفر:

- والآن، إليك الأمر، أعطنا الخريطة إلى الكنز، وتوقف عن
إطلاق النار على البحارة المساكين، وعن تحطيم رؤوسهم
وهم نيام. إذا فعلت هذا فلسوف نمحك خيارين: إما أن
ترافقونا على السفينة، بعد أن نكون قد شحنا الكنز، وأعطيك
ميثاق دايفي^(١) وكلمة شرف بأنني سوف أوصلكم بأمان
إلى ساحل ما. أو إذا لم يرق لك هذا الاقتراح، ولو رأيت
أن رجالي عنيفون وأتهم ميالون للانتقام بسبب معاملتك
الخسنة السابقة لهم، فيمكنكم إذن المكوث هنا، وستقاسم
مؤوتنا معكم، حصة بحصة، وأعطيك عهداً وميثاقاً، بأنني
حالما أبصر أول سفينة مبحرة سأبعثها لكم لتأخذكم. والآن
بين يديك عرضي هذا، واعتبره كلاماً جدياً، ولن تحصل
على عرض أفضل منه.

(١) my davy التي أوردناها من قبل وتعني الإفادة تحت القسم، وهنا يستخدم سيلفر
كلمة my affy-davy وهي ذاتها.

ثم رفع صوته موجهاً الحديث لبقيتنا وقال:

- والآن، أنت وكلّ البحّارة الذين معك في هذا المأوى، أتمنى أن تسمعوا حديثي، فما يُقال لشخص، يسري على الجميع.

وعند ذلك نهض القبطان سموليت من مقعده، ونفض رماذ غليونه في راحة كفه اليسرى ثم سأل سيلقر:

- هل انتهيت من كلامك؟

فأجاب جون:

- حتى آخر كلمة، وأقسم لك بالرعد، أنّك لو رفضت هذا العرض فسيكون آخر ما تراه مني هو طلقات البنادق!

فقال القبطان:

- جيد جداً، والآن ستسمعي. إذا سلّمتم أنفسكم كلّكم واحداً تلو الآخر، نازعي السلاح، فلسوف أغلّكم بالأصفاد وأخذكم إلى الديار لتحاكموا محاكمة عادلة في إنجلترا. وإذا لم تفعلوا، فإن اسمي هو ألكساندر سموليت، وأنا أرفع راية ملكي، ولسوف ألاحقكم إلى أن أجعل مقرّم في قاع ديشي جونز^(١). لا يمكنكم العثور على الكنز، ولا يمكنكم الإبحار بالسفينة، فليس من بينكم من هو أهلٌ للإبحار بالسفينة. كما

(١) Davy Jones: في الفولكلور البحري، هو روح البحر أو البحر مجسداً أو الشيطان القابع في البحر الذي يرأس كل الأرواح الشريرة في الأعماق، ويتجسد بأشكال مختلفة جاثماً، على الجبال أو الصواري في الليالي العاصفة، وعلى السفن المحطمة وغيرها من الكوارث التي تتعرض لها حياة البحّارة.

أنه لا يمكنكم قتالنا، حتى أن غراي تمكّن وحيداً من الإفلات من خمسة منكم. إن سفينتك مكبلت في الحديد^(١)، بلا فائدة، يا قائد سيلفر، وسرعان ما سترى نفسك في ساحل بلا ربح^(٢). وأنا أقف هنا لأحدثك بما ستكون عليه آخر كلماتي الطيبة التي أوجهها إليك، لأنني، وقسماً بالسموات، سأضع رصاصة في ظهرك في المرة التالية التي أراك فيها. هيا يا غلام، امض من هنا، وعجل في الرحيل.

كان وجه سيلفر مشهداً يستحق الرؤية، فقد جحظت عيناه من رأسه لشدة غضبه، ثم أطفأ غليونه وصاح:

- مدّ لي يدك لأنهض!

أجاب القبطان:

- لن أفعل.

فزجر سيلفر:

- من منكم سيعينني على القيام؟

ولم يتقدّم أي رجل منا. فدمدم بأقذع الشتائم وصبّ جام لعناته، ثم زحف على الرمال حتى وصل إلى الشرفة فتشبث بها حتى تمكن من رفع نفسه ثانية على عكازه. ثم بصق في الينبوع وصاح:

(١) in irons: هي ذات معنى In stays التي أوردناها من قبل. أي أن السفينة عالقة في الريح فلا يمكن أن تتحرك إلى المسار المطلوب.

(٢) lee shore: هو ساحل بلا ربح، ويعني القبطان أن سيلفر وفرصته في وضع سيء وليس عندهم من وسيلة للخروج منه.

- خذوا، هذا ظني بكم. وقبل أن تنقضي ساعة سأحرق حصنكم هذا كبرميل روم. فاضحكوا، بحق الرعد، اضحكوا ما شئتم! ولكن قبل أن تنقضي ساعة من الآن، لسوف تضحكون وأنتم على الجانب الآخر من الحياة. وسوف يكون سعيد الحظ هذا الذي سيموت.

وفيا كان يذهب متعثراً، ويحتر الرمال متخبطاً، أطلق لعنة وشتيمة فظيعة، ثم أنه بعد أن فشل في عبور السور لأربع أو خمس مرات، أعانه صاحبه الذي كان يحمل راية الهدنة، واختفيا في لحظة بين الأشجار.

(٢١)

الهجوم

كان القبطان يراقب سيلفر عن كثب، وحالما اختفى سيلفر عاد القبطان إلى داخل المأوى، فوجد أن لا أحد منا كان في موضعه ما عدا غراي، وكانت هذه المرة الأولى التي نراه غاضباً فيها.

فهدر وزجر منادياً:

- إلى مواضعكم!

ثم انقلبنا إلى مواضعنا، فقال:

- غراي، سأدون اسمك في سجل السفينة، مشيداً بأدائك، لأنك قمت بواجبك كبَحَّار حقيقي ولم تتزحزح، أما أنت يا سيد تريلاوني فأنا متفاجئ من سلوكك يا سيدي. وأما أنت يا طيب فقد ظننتك ارتديت معطف الملك! فإذا كان ذلك هو السلوك الذي خدمت فيه في معركة فونتينوي، فمن الأجدى أن تمكث في مهجعك، يا سيدي.

عادت مجموعة الطبيب إلى مواضعها على الثغرات، أما البقية

فكانوا منشغلين في تعبئة بنادقهم الاحتياطية، وكان الجميع محمري الوجوه، كما يمكنكم أن تخمنوا، فالبراغيث في آذانهم كما يقول المثل^(١).

تطلع القبطان حوله لبرهة في صمت، ثم قال:

- يا رفاقي، لقد هاجمت سيلفر، وكنت قد جعلت هجمتي شرسة وحامية عن قصد. وقبل أن تنقضي ساعة، كما قال، فهم ولا ريب مهاجمونا. ولا داعي من أن أذكركم بأنهم يفوقونا عدداً، على أننا متفوقون عليهم في كوننا سنقاتلهم تحت حماية الحصن، ومنذ دقيقة خَلتُ كنتُ سأقول إننا قاتلناهم بحزم وانضباط. وليس عندي أدنى شك في أننا سنهزمهم لو اخترتم ذلك.

ثم ذهب في جولة تفقدية وكان كل شيء آمناً، كما قال.

لكل من جهتي المأوى الشرقية والغربية كانت هنالك ثغرة بندقية واحدة، وفي الجهة الجنوبية حيث كانت الشرفة، هنالك ثغرتان، وفي الجهة الشمالية هنالك خمس ثغرات. وقد كان عندنا نحن السبعة رجال عشرون بندقية، وتم تجميع الحطب في أربع أكوام، كالتاولات إذا أردتم تسميتها بذلك، طاولة في منتصف كل جهة، وعلى كل واحدة من هذه الطاومات هنالك بعض الذخيرة،

(١) a flea in his ear: مثل يقال عن الشخص الذي يُبَخ للثو. فالشخص الذي في إذنه برغوث يشعر بالانزعاج والضيق، تماماً كالشخص الذي يُبَخ للثو، فتطن كلمات التائب في أذنه.

وأربع بندقيات محشوة وجاهزة تحت يد المدافعين. وفي الوسط، كانت سيوف القتالس مطروحة ومصفوفة بانتظام.

قال القبطان:

- أحمدوا النار، فالبرودة انقشعت، ويجب ألا يكون هناك دخان يُغشي أعيننا.

فحمل السيد تريلاوني بنفسه سلّة النار الحديدية إلى الخارج وطمسها في الرمال حتى اختنق الجمر.

تابع القبطان:

- هوكينز لم يتناول فطوره بعد. هيا يا هوكينز هيء فطورك وتعال إلى موضعك لتتناوله. وأسرع يا فتى، فإنك ستحتاجه. ويا هانتر، قدّم جولة من شراب البراندي للجميع.

وفي هذه الأثناء، كان القبطان قد رسم في ذهنه خطة الدفاع كاملة. فاستأنف قائلاً:

- أيها الطبيب أنت ستكون عند الباب، فارقب منه ولا تكشف نفسك، وابق في الداخل، وأطلق نارك من الشرفة. وأنت يا هانتر فلتلزم الجهة الشرقية هناك. وجويس يا صاحبي، قف في الجهة الغربية. أما أنت يا سيد تريلاوني فإنك أفضل رام، لذا فلتكونا أنت وغراي على الجانب الشمالي الطويل، ذي الخمس ثغرات، فهناك مكمّن الخطر، فلو تمكنوا من هذا المكان وأطلقوا النار علينا من ثغراتنا، فسوف تنتهي الأمور

على نحو سيء. أما أنا وأنت يا هوكينز، فكلانا لا يعول عليه في إطلاق النار والتصويب، لذا، سنقف بالقرب مستعدين لإعادة تلقيم البنادق ومدّ يد المساعدة حيثما تكون الحاجة.

كانت البرودة قد انقشعت كما تنبأ القبطان. وما كادت الشمس تتسلق فوق حزام الأشجار حولنا، حتى سطعت بكل وهجها وحرارتها فجففت البخار وشربته كلّ جرعة واحدة. وسرعان ما استعرت حرارة الرمال، وسال الراتنج من على جذوع الأشجار في المأوى الخشبي. فنحنينا المعاطف والسترات جانباً، وفتحنا قمصاننا من حول الأعناق وشمّرنا أكمامها إلى الأكتاف. ثم وقفنا هناك، كلّ على موضعه، وكأنا محمومين من الحرارة والقلق.

ثم انقضت ساعة.

قال القبطان:

- اللعنة عليهم! إن هذا الانتظار ممل كالركود في الماء^(١).
فلتصقروا غراي للريح.

في تلك اللحظة تماماً، أتت أولى علامات الهجوم.

فقال جويس:

- من فضلك يا سيدي، أعلي أن أطلق النار إذا ما رأيت أي

شخص؟

(١) Doldrums: مناطق استوائية محيطية معروفة بأنها في حالة هدوء وسكون ممت. فالسفينة الشراعية المبحرة في هذه المنطقة يمكن أن تركز إلى أجل غير مسمى فيها بسبب انعدام الرياح.

صاح به القبطان:

- طبعاً، ولقد أخبرتك بذلك من قبل!

فأجاب جويس بنفس النبرة المهذبة الهادئة التي يتصف بها:

- شكرًا لك يا سيدي.

ولم يتبع ذلك شيء لفترة، ولكن الملاحظة وضعتنا كلنا في حالة من الحذر، بأذان منتصبه وعيون متيقظة. فكان حَمَلَة البنادق على استعداد وأسلحتهم في أيديهم، وكان القبطان واقفاً في وسط الحصن بقم مزوم ووجه عبوس.

وما هي إلا ثوان قليلة، حتى استل جويس بندقيته وأطلق النار فجأة. وما كادت جلجلة إطلاقته تضمحل حتى تبعها مباشرة وابل من الرصاص المبعثر، وقد تكررت الإطلاقات النارية من الخارج مراراً على كل جهة من السور، طلقة إثر طلقة، كما لو كانت سرباً متتالياً من الأوز. وقد أصابت المأوى الخشبي عدة إطلاقات، ولكن لم تنفذ إليه ولا واحدة منها، ولما تلاشى الدخان وانقشع عن الفضاء، حتى ساد الهدوء في الحصن، والغابات من حوله عادت خالية من كل أثر لأي أحد، كما كانت سابقاً، فلم يتحرك غصن شجرة ولم يلمع بصيص من ماسورة بندقية ليفضح وجود أعدائنا.

سأل القبطان:

- هل أصبت هدفك؟

فأجابه جويس:

- لا يا سيدي، لا أعتقد أنني فعلت ذلك يا سيدي.

فدمدم القبطان:

- إن ثاني أفضل شيء لفعله هو أن تقول الحقيقة. هيا يا هوكينز
قم بتلقيم بندقيته. كم رجلاً كانوا من جهتك يا طبيب؟

فقال الطبيب ليفزي:

- أنا أعرف بالضبط العدد، فقد أطلقت ثلاثة عيارات من
هذه الجهة، وقد رأيت الومضات الثلاث، اثنتان منها كانتا
متقاربتين، وواحدة بعيدة من الجهة الغربية.

فكرر القبطان:

- ثلاثة!

ثم توجه بالسؤال إلى الملاك:

- وكم رجلاً كانوا من جهتك يا سيد تريلاوني؟

بيد أن الإجابة على هذا السؤال لم تكن سهلة. فقد أطلقت من
الجهة الشمالية سبعة عيارات بحسب تعداد الملاك، وثمانية أو تسعة
بحسب تعداد غراي. ومن الجهة الشرقية والجهة الغربية، لم يُطلق
إلا عيار واحد. لهذا فقد صار واضحاً أن الهجوم سيُستأنف ويتطور
من الجهة الشمالية، وأما الجهات الثلاث الباقية فستكون عبارة عن
مناوشات ونيران عدائية لغرض مضايقتنا. ولكن القبطان لم يغيّر
شيئاً من ترتيباته، فقد كانت حجته في ذلك، أنه لو نجح أيّ من
هؤلاء المتمردين في اختراق السور، فلسوف يستولون على أية ثغرة

يجدونها غير محمية، وسوف يصيدوننا ونحن محاصرون داخل حصننا كالجرذان.

ولم يتركوا أماننا متسعاً من الوقت للتفكير، ففجأة وبصرخة حرب عالية (هوزا!)^(١) وإذا بغمامة من القراصنة تنقض من الغابات على الجانب الشمالي، واندفعوا مباشرة إلى السور. وفي الوقت نفسه، عاد وابل النار من جهة الغابة، فأز عيار ناري عبر مدخل المأوى وأطاح ببندقية الطبيب فحطمها إلى قطع.

ثم تهافت المتمردون على السياج كالقردة. فأطلق الملاك وغراي النار مرات ومرات، حتى سقط ثلاثة منهم، واحد منهم إلى داخل السور، والآخرون إلى الخارج، وكان الخوف واضحاً على واحد منهم أكثر من الأذى، إذ أنه هرع بعجالة واختفى بين الأشجار في لحظة.

اثنان منهم التهما التراب^(٢)، وهرب آخر، واخترق أربعة منهم دفاعاتنا، وكنا نرى من المأوى أن هناك سبعة أو ثمانية منهم في الغابة، وكان واضحاً أن كل منهم قد تزود بعدد من البنادق، وهم مستمررون بإطلاق النار بكثافة وعشوائية على المأوى الخشبي، ولكن دون أن يُفلحوا بإصابته.

أما الأربعة الذين عبروا السياج فقد تقدموا مباشرة إلى المأوى الخشبي، وكانوا يصرخون وهم يركضون، وكان الرجال الذين بين

(١) Huzzah: أو تُكتب أحياناً hazzah. وهي المرادف المعاصر لكلمة hurrah، أو hooray. وقد تُقابلها في العربية كلمة: مرحى.

(٢) bite the dust: يسقط جسده على الأرض فيضرب الأرض بشدة، أي يموت.

الأشجار يجيئونهم بالصراخ لتشجيعهم. وقد أطلقنا عدة عيارات نارية عليهم، بيد أن رماتنا كانوا على عجلة، لذا لم تُصب ولا واحد منهم. وفي لحظة، كان القراصنة الأربعة قد اجتاحوا الربوة وصاروا أمامنا.

أطلّ رأس جوب آندرسون، سائس الدفة، من الثغرة الوسطى. وزمجر بصوت كالرعد:

- صوبوا عليهم، يا رجال، على الجميع.

وفي نفس اللحظة قبض واحد من القراصنة على ماسورة بندقية هانتر، واختطفها من بين يديه، ثم انتزعها من خلال الثغرة، وهوى عليه بضربة واحدة مباغته، فطُرح المسكين أرضاً فاقداً للوعي هامداً. في غضون ذلك، راح ثالث القراصنة، وكان سليماً بلا إصابة، يركض حول المأوى، وظهر بغتة على المدخل، وباغت الطيب بضربة من قطلسه.

وهكذا تبدّل وضعنا إلى العكس كلياً، فمنذ لحظة كنا نحن تحت حماية الحصن ونطلق النار على عدو مكشوف، وإذا بنا الآن وقد صرنا مكشوفين ولا يمكننا أن نرد ولا على ضربة منهم.

أصبح المأوى الخشبي ممتلئاً بالدخان الذي كنا مدينين له بسلامتنا نسبياً. فكانت هناك أصوات صرخات وحالة ارتباك، وومضات عيارات نارية، وأصوات إطلاقات مسدسات، وصوت أنين عالٍ رنّ في أذنيّ.

صاح القبطان:

- إلى الخارج يا رفاق، إلى الخارج، وقتلوهم في العراء! تناولوا
القطالس!

فتلقت على عجل قتلساً من كومة السيوف، وقام شخص
آخر في الوقت نفسه بتلقف قتلسٍ آخر، فأصابني بجرح في أصابعي
بالكاد شعرت به. هرعت بعدها من الباب إلى الساحة المكشوفة بنور
الشمس. وكان أحدهم قريباً خلفي، ولم أتبينه. وإلى الأمام مني كان
الطبيب يلاحق الرجل الذي هاجمه وصولاً إلى أسفل الربوة. وحالما
وقع عليه بصري، رأيت أنه قد هزم غريمه وأوقعه على الأرض ممدداً
على ظهره وقد سُجَّ وجهه بجرح كبير.

صاح القبطان:

- انتشروا حول المأوى يا رفاق! انتشروا حول المأوى.

وفي خضم هذا الهرج والمرج، أدركت التغيير في نبرة صوته.

فأطعت أوامره بلا تردد، واستدرت إلى الجهة الشرقية رافعاً
قطلسي وأنا أعدو حول ركن المأوى. وفي اللحظة التالية وجدت
نفسي وجهاً لوجه مع أندرسون. فزجر عالياً، ثم رفع سيفه فوق
رأسه ملتماً في ضوء الشمس، فلم يكن أمامي متسع من الوقت
لأخاف، لذا عندما كانت ضربته ما تزال معلقة في الهواء وشيكة
على الوقوع، قفزت في لحظة عين إلى الجهة الأخرى، فزلت قدمي في
الرمال الناعمة، وتدحرجت على رأسي إلى أسفل المنحدر.

عندما اندفعتُ من الباب لأقوم بهجومي القتالي الأول، رأيتُ
التمردين وقد تسلقوا السياج للقضاء علينا. وكان أحدهم بقلنسوة
حمراء ويكزّ بأسنانه على قطلسه، وقد تسلق إلى الحافة وألقى بإحدى
ساقيه إلى جانبنا. ولم يمر وقت طويل حتى وجدتُ لقدمي موضعاً
مرة أخرى، ونهضت فرأيت أنّ كل واحد لا يزال على موضعه، فكان
ذلك الرجل ذو القلنسوة الحمراء لا يزال في منتصف طريقه، فيما
أخذ آخر يطلّ برأسه من فوق السور. مع ذلك، وخلال برهة الزمن
القصيرة هذه، كانت المعركة قد انتهت وكان النصر من نصيبنا.

إنّ الرجل الذي كان خلفي ولم أتبينه حينها كان هو غراي،
وقد انقض على سائس الدفة بضربة قاصمة قبل أن يكون لديه
وقت كافٍ للإثابة من الضربة التي همّ عليّ بها وضيّعها. وكان قد
أصيب آخر أثناء تبادل النار من ثغرة، وهو الآن مطروحاً يئنّ من
الآمه، فيما مسدسه في يده ما زال يدخن من آخر إطلاقه. والشخص
الثالث كان ذاك الذي رأيت الطبيب قد أجهز عليه بضربة. ومن
بين الأربعة الذين عبروا السور كان واحد فقط قد أفلت منا، بعد
أن تخلى عن سيفه في ساحة المعركة، والآن يتسلق مرة أخرى وعلى
وجهه شحوب الموت وهو يلوذ بالفرار.

صاح الطبيب:

- أطلقوا النار! أطلقوا النار من المأوى! وأنتم يا من في الخارج

عودوا للاحتباء في مواضعكم يا رفاق!

لكن لم يلتفت أحد إلى كلماته، ولم يُطلق أي عيار ناري، وكان

آخر مهاجم قد تمكن من الإفلات والاختفاء مع الباقين في الغابات. وفي غضون ثلاث ثوان، لم يبق أي واحد من جماعة المهاجمين باستثناء الخمسة الذين سقطوا أثناء القتال، أربعة في داخل السور والخامس خارجه.

جريتُ أنا والطبيب وغراي بأقصى ما يمكننا لنلوذ في الحصن، إذ من المؤكد أنّ الناجين من المهاجمين سرعان ما سيعودون إلى حيث تركوا بنادقهم، وفي أية لحظة قد يُستأنف إطلاق النار.

وعندما انقشع الدخان من المأوى، رأينا الثمن الذي دفعناه مقابل هذا النصر. فقد كان هانتر مطروحاً إلى جانب ثغرتة، مشدوهاً، وجويس هامداً، بعد أن كان قد أُصيب بعيار ناري في رأسه، وفي المنتصف تماماً كان الملاك يساند القبطان، وكلٌّ منهما شاحب الوجه كصاحبه.

قال السيد تريلاوني:

- لقد أُصيب القبطان.

سأل القبطان سموليت:

- هل قرّوا جميعاً؟

فأجاب الطبيب:

- كلّ من كان منهم قادراً على الركض قد قرّ، ولكن كن على يقين، أنّ هنالك خمسة منهم لن يركضوا من بعد اليوم أبداً.

فصاح القبطان:

- أخمسة ها! هيا، هذا خبر سار! فإن مات خمسة منهم مقابل ثلاثة منا، فهذا يجعلنا أربعة رجال مقابل تسعة منهم. إنَّ حظوظنا الآن أفضل من الحال الذي كنا قد بدأنا فيه القتال، ساعة كنا سبعة رجال مقابل تسعة عشر رجلاً، أو لقد كان هذا اعتقادنا، فما أشدّه من أمر ذلك لنحمل وطأته^(١).

(١) سرعان ما قتل عدد المتمردين إلى ثمانية رجال، لأن الرجل الذي كان في السفينة وأطلق السيد تريلاوني عليه النار، مات في الليلة نفسها، على إثر إصابته. ولكن بالطبع لم نكن لنعلم بذلك إلا بعد حين.

الجزء الخامس

مغامرتي البحرية

كيف بدأت مغامرتي البحرية

بعد أن حصل ما حصل، لم يعاود المتوردون الكثرة، ولم يُطلق أيّ عيار ناري من جهة الغابات، وبتعبير القبطان: «لقد نالوا حصّتهم لهذا اليوم»^(١). كان المكان كلّهُ لنا، وحين ساد الهدوء تيسرت لنا العناية بالجرحى وتناول طعام العشاء. لذا قمنا أنا والملاك بطبخ الطعام في الخارج رغم الخطر المائل، إلا أنّنا لم نتمكّن من إجادة ما كنا نفعله، بسبب من فظاعة أنين المصابين الذين كان يعالجهم الطبيب، وارتفاع صرخاتهم التي وصلتنا حتى ونحن في الخارج.

ومن بين الرجال الثمانية الذين سقطوا في المعركة كان ثلاثة فحسب لا يزالون، وبالكاد، على قيد الحياة: فقد كان أحدهم هو الرجل التابع لجماعة القراصنة، والذي أُصيب عند الشجرة، ثمّ هانتر، فالقبطان سموليت، ومن بين هؤلاء الثلاثة، كان القرصان وهانتر

(١) «got their rations for that day»: تعني العبارة: لقد حصلوا على حصّتهم اليومية من الطعام، وهي حصة الطعام المخصصة لكل فرد في الجيش، ويعني القبطان أنّ القراصنة حصلوا على ما يستحقونه من الخسائر حدّ الاكتفاء.

في حكم الموتى، وبالفعل، فقد مات المتمرد تحت مبعض الطبيب الجراحي، أما هانتر فلم يستعد وعيه رغم كل محاولات لمعالجته، وقد ظل مطروحاً طوال اليوم، يعالج سكرات الموت، وهو يتنفس بصوت عالٍ مثلما كان عليه حال ذلك القرصان العجوز في النزل عندما أصيب بالنوبة القلبية التي أزهقته، إلا أن هانتر كان قد سُحقت أضلعه بالضربة، وتهشمت جمجمته عندما هوى على الأرض، وفي ساعة ما من الليلة التالية، ودون إشارة أو صوت، أسلم روحه إلى بارئها.

أما القبطان، فرغم أن جراحه كانت مؤلمة وبلغية، إلا أنها لم تكن خطيرة، إذ لم يُصب أيّ من أعضائه إصابة مهلكة. فقد كسرت إطلاقاً أندرسون ترقوته - إذ كان جوب أندرسون هو الذي أطلق النار أولاً - فوصل العيار الناري إلى الرئة، ولكنه لم يحدث ضرراً كبيراً، أما العيار الثاني فقد مزق ونزع بعض عضلات ساقه. وقد قال الطبيب إن شفاؤه مؤكد، ولكن في الوقت الحالي، عليه أن لا يمشي ولا يحرك ذراعه ولا حتى يتحدث إذا ما كان ذلك في مقدوره، حتى تمضي أسابيع.

أما جرحي العرضي على مفاصل أصابع يدي فلم يكن أكثر من لدغة بعوضة، لذا اكتفى الطبيب بلفها بضادة، ثم شدّ أذنيّ مازحاً أن إصابتي خطيرة.

بعد الغداء جلس الطبيب والملاك إلى جانب القبطان، وأمضوا فترة في التشاور، وبعد أن أفرغوا مكنونات صدورهم، كان الوقت

قد جاوز الظهيرة، فاعتمر الطيب قبعته، وأخذ مسدسه وربط على وسطه حزام قطلسه، ووضع المخطّط في جيبه والبندقية على كتفه، ثم عبر السور من الجانب الشمالي ومضى بخفّة بين الأشجار.

كنّا أنا وغراي جالسَيْن في الطرف البعيد من الحصن، لكي نكون بعيدين عن حديث ضباطنا، ولما أخذ غراي غلبونه من فمه، كاد أن ينسى إعادته ثانية، إذ كان مصدوماً كما لو أن صاعقة ضربته، بسبب ما كان يفعله الطيب.

قال:

- لماذا يفعل الطيب هذا بحق ديفي جونز، أهو مجنون؟

فقلت:

- ولم لا، أعتقد أنه آخر شخص في هذا الطاقم يصلح لمهمة كهذه.

فقال غراي:

- حسناً يا رفيقي. سواء عندي أكان مجنوناً أم لم يكن. ولكن إن لم يكن، فتذكّر كلماتي، فأنا المجنون.

فأجبت:

- أعتقد أن لدى الطيب فكرة ما في رأسه، ولو صحّ ظني، فإنه ذاهب ليرى بين غان.

وقد تبين لاحقاً، أنني كنتُ محقاً في ظني. في الوقت ذاته، كان

المأوى خانقاً من الحرارة وكانت الرمال في الساحة تلتهب في شمس الظهيرة، لذا بدأت فكرة ما تختمر في رأسي، ولم تكن هذه الفكرة صائبة وحقيقية بأية حال من الأحوال، فقد تملكني الحسد من كون الطبيب يسير في الظلال المنعشة الباردة لأشجار الغابة والطيور فوقه ورائحة الصنوبر الزكية تعبق من حوله، بينما كنتُ أنا جالساً أتلظى من الحرارة وملابسي تلتصق بالراتنج الساخن الذائب، والدماء في كل مكان والجثث ملقاة من حولي، فاشمأزت نفسي من المكان الذي كنت فيه حتى تحوّل اشمئزازي إلى خوف.

وطوال الوقت الذي أمضيته وأنا اغسل المأوى ومن ثم اغسل أواني الغداء وسواها، كان شعوري بالاشمئزاز والحسد يزداد أكثر فأكثر، حتى أخيراً، عندما كنتُ قريباً من كيس الخبز وبعيداً عن أي أحد ليلاحظني؛ اتخذت أولى خطوات فراري الطائش، حين حشوت جيوب معظفي بالبسكوت.

لقد كنتُ أحمق، ولكم كل الحقّ إذا ما شتّم تسميتي بذلك، إذ أنني كنتُ مُقبلاً على تصرفٍ طائش وجريء، ولكنني كنتُ عازماً على تنفيذه مع اتخاذ جميع تدابير الحيلة والحذر التي بوسعي اتخاذها. فإذا ما حدث أي طارئ، فإن هذا البسكوت سيسدّ جوعي حتى اليوم التالي على الأقل.

أمّا التدبير الثاني الذي اتخذته، فهو أنني تحزمت بزوج من المسدسات، وبما أنني كنتُ أملك عبوة بارود وعبارات نارية، لذا صرت أشعر بأني معزز جيداً بالسلاح.

أما عن مخطط الهروب الذي رسمته في رأسي، فلم يكن سيئاً بحد ذاته. فقد نويت أن أذهب إلى اللسان الرملي الذي كان يفصل المرسى من جهة الشرق عن البحر، ومن ثم أعرس على الصخرة البيضاء التي كنتُ قد رأيتها الليلة الماضية، لأتحقق ما إذا كان بين غان قد خبأ قاربه هناك، وكنت حينها، وما زلت، أظنه أمراً يستحق المحاولة. بيد أنني كنتُ متأكداً من أنني لن يُسمح لي بمغادرة الحصن، لذا كانت خطتي الوحيدة هي أن أتخذ لنفسني إجازة فرنسية^(١) وأتسلل خارجاً عندما تغفل عني العيون، وهذه الطريقة السيئة للمغادرة جعلت من كل ما نويت فعله يبدو كخطأ فادح. ولكنني كنتُ صبيهاً غرماً، يتخذ قراراً ويعزم على تنفيذه.

ثم ترتبت الظروف بحيث هيات لي الفرصة المناسبة، فقد كان الملاك وغراي مشغولين في مساعدة القبطان على تبديل ضماداته، وكان الساحل خالياً أمامي، فعبرت من فوق السور وبسرعة إلى الأشجار الكثيفة، وقبل أن يلحظ غيابي، كنتُ خارجاً وبعيداً عن صيحات صحبي إذا ما نادوا عليّ.

كان هذا تصرفي الأحق الثاني، والذي بدا أكثر طيشاً ورعونة من الأول، إذ أنني تركت خلفي رجلين سليمين فقط لحراسة المأوى، ولكن غرضي من الهروب هذه المرة كان مثل غرضي في المرة الأولى، ألا وهو إنقاذ أصدقائي.

(١) French leave: هو رحيل غير مصرح به، مغادرة غير مأذونة، تسلل غير ملحوظ.

اتخذت طريقاً إلى الساحل الشرقي للجزيرة، لأنني كنت قاصداً
النزول إلى جانب البحر من جهة اللسان الرملي لكي أتفادي أية
فرصة تجعلهم يكتشفون وجودي من جهة المرسى. كان الوقت
متأخراً من العصر، إلا أن الجو كان لا يزال دافئاً والشمس كانت
عالية. وفيما كنت أشقّ طريقي بحذر خلال الأشجار الطوال، كنت
أسمع من مكان بعيد أمامي، ليس صوت الأمواج الهادرة فقط، بل
أيضاً صوت حفيف أوراق الأشجار وتضارب واشتباك أغصانها،
فتبيّن لي من ذلك، أنّ نسيم البحر كان أشدّ من المعتاد. وسرعان
ما وصلتني تيارات من الهواء البارد والجاف. وبعد عدة خطوات
وصلت إلى الحدود المكشوفة للغابة، ورأيت البحر يمتدّ إلى الأفق
أزرق وهاجاً، والأمواج تتلاطم وتقذف بزبدها على طول الشاطئ.

لم يسبق لي مرة أن رأيت البحر هادئاً حول جزيرة الكنز. فقد
تكون الشمس ساطعة في كبد السماء، وقد لا تكون ثمّة نسمة من
الهواء، وقد يكون وجه الماء مستوياً، صقيلاً وأزرق، ومع ذلك ما
فتت هذه الموجات العظيمة تتدحرج على طول الساحل الخارجي،
ترغي وتزبد ليل نهار، وأكاد أجزم أن ما من بقعة على هذه الجزيرة
يمكن للمرء أن يقف فيها بحيث لا يصله صوت هدير الأمواج.

أخذت أمشي إلى جانب الأمواج وأنا في غاية المتعة، حتى
أيقنت أنني توغلت جنوباً بما فيه الكفاية، فتسترت تحت غطاء أجمة
كثيفة، ثم تسللت بحذر إلى حافة اللسان الرملي.

كان البحر خلفي، والمرسى أمامي. ونسيم البحر كان قد انتهى

كما لو أنه عَجَل في نهايته بسبب عنف اندفاعه، ثم أعقبته تيارات خفيفة من الهواء متغايرة في قوتها تهبّ من الجنوب والجنوب الشرقي، حاملة معها كتلاً من الضباب الكثيف، وكان المرسى في الجهة التي تحجبها عن الريح جزيرة الهيكل العظمي؛ لا يزال ساكناً وكثيباً كما كان عندما دخلناه أول مرة. أمّا الهيسبانيولا فقد كانت راقدة على وجه الماء الساكن كالمرآة، وقد انعكست صورة لها طبق الأصل من قمة صاريها إلى حافة الماء عليها، وكانت راية الجولي روجر ترفرف أعلى قمته.

كان هناك قارب غيغ في أحد جانبيها، وكان سيلفر في مؤخرة السفينة، ولطالما كان في مقدوري تمييزه بوضوح، بينما كان هنالك رجلان آخران يتكئان على حافة المؤخرة، أحدهما كان الوغد نفسه ذا القلنسوة الحمراء، والذي رأيته قبل ساعات يمدّ ساقه من فوق سور الحصن. ومن الواضح أنهم كانوا يتحادثون ويضحكون، بيد أنني لم أتيّن كلمة واحدة من حديثهم، إذ كنتُ على مبعده ميل عنهم. وفجأة سمعت صوتاً مروّعاً وشيطانياً كان قد أجفاني جداً حال سماعه، ثم تذكرت أنه صوت القبطان فلينت، وكنت قد ميّزت هذا الطائر من ريشه المشرق اللامع عندما كان يهم بالوقوف على معصم سيده.

بعدها بفترة وجيزة، انطلق قارب الجولي بوت إلى الساحل، بينما ذهب الرجل ذو القلنسوة الحمراء مع رفيقه إلى الأسفل، حيث مقصورة السلام في السفينة.

وفي نفس الوقت تقريباً، كانت الشمس قد غابت خلف تلّ السپاي غلاس، وفيما كان الضباب يتجمع بسرعة، اكتنف المكان ظلام شديد. لذا وجدت أن ما ينبغي عليّ فعله هو أن لا أضيع وقتاً إذا أردت أن أجد القارب في هذه الليلة.

كانت الصخرة البيضاء ظاهرة للعيان من فوق الأحراش، إلا أنها كانت على بعد ثمانية أميال من اللسان الرمي، لذا استغرقت وقتاً طويلاً لأتسلق وصولاً إليها، وكنت في أغلب الوقت أزحف على أطراف الأربعة بين الأجمات. كان الوقت قد قارب الليل عندما وضعت يدي على جوانبها الخشنة. كانت هناك هوة صغيرة أسفلها تماماً يعلوها عشب أخضر، ويُخفيها عن الأنظار ما نبت حول المكان من حشائش وشجيرات كثيفة من تلك التي تنبت تحت أشجار الغابات، ولا يزيد طولها عن مستوى الركبة، وقد كانت في منتصف هذه الوهدة خيمة من جلد الماعز، كتلك التي اعتاد العجر أن يحملوها معهم في إنجلترا.

نزلت إلى الهوة ورفعت طرفاً من الخيمة، فإذا بقارب بين غان المصنوع يدوياً، وإذا ما صحّت على شيء صفة مصنوع يدوياً فقد كان القارب إيّاه، فهو عبارة عن إطار حلقي من الخشب القاسي غير المشذب، شدّ عليه غطاء من جلد الماعز، بحيث أن الجهة المشعرة من الجلد كانت إلى الداخل. لقد كان ذلك الشيء بالغ الصغر، حتى بالنسبة لي، ولا أتخيل أنه يمكن أن يطفو حاملاً رجلاً بالغاً. كان فيه مقعد واطئ جداً لجلوس المجذّف، ولم يكن سوى لوح عرضي ممتد من مقدمة القارب، وفيه مجذاف ثنائي لتسييره.

لم يسبق لي من قبل أن رأيت قارباً من نوع الكوراكل^(١) كالذي صنعه البريطانيون القدامى، لكنني رأيتُ واحداً من ذلك الحين، ولا يمكن أن أصف لكم قارب بين غان سوى أنه كان شبيهاً بتلك القوارب البدائية، ولكنه أسوأ صنعاً من بين كل أنواع قوارب الكوراكل التي صنعتها يد إنسان. إلا أنه مع ذلك، كان يتصف بالميزتين الأساسيتين لهذا النوع من القوارب، وهما؛ خفته الشديدة، وإمكانية حمله.

وبما أنني عثرت على القارب الآن، فقد يخيل لكم أنني نلت كفايتي من الغياب عن الحصن مرة، إلا أنّ فكرة أخرى راودتني وصرت مولعاً بها، حتى أنني صمّمت على تنفيذها على الرغم مما افترضته من معارضة القبطان سموليت نفسه. وكانت فكرتي هي أن أتسلل تحت جناح الظلام، وأقطع حبل مرساة الهيسبانيولا، وأتركها تنجرف حيثما طاب لها. فقد كنتُ على يقين من أنّ التمردين بعد هزيمتهم في هذا الصباح، لم يكن ليسرّ قلوبهم شيء أكثر من رفع المرساة والإبحار في عرض البحر، وارتأيتُ أنه سيكون من الأفضل إعاقتهم عن فعل ذلك. لذا فعندما رأيتهم وقد تركوا حراسهم بلا قارب، ظننت أن تنفيذ خطتي لن ينطوي على مخاطر كبيرة.

قبعْتُ في الأسفل أترقب اشتداد الظلام، وأكلت وجبة طيبة من البسكوت. لقد كانت تلك الليلة هي الليلة الموعودة من بين عشرة

(١) Coracle: قارب صغير مدور خفيف الوزن يصنع من جلود الحيوانات والخصوص. كان يستخدم في ويلز، وإيرلندا، وسكوتلندا.

آلاف ليلة لتحقيق غايتي، فقد تهيأت لي الفرصة، وها هو الضباب
وقد خيم حتى عنان السماء.

وما كاد آخر شعاع من ضوء النهار يتلاشى ويختفي، حتى غرقت
جزيرة الكنز في عتمة مطلقة. وأخيراً، حملت قارب الكوراكل على
كتفي ثم تسلقت طريقي متعثراً للخروج من الفجوة التي تناولت
طعامي فيها، وعندها لم أجد في المرسى سوى نقطتين كانتا لا تزالان
مرثيتين.

إحدهما كانت النار الكبيرة المشتعلة على الساحل قرب المستنقع،
والتي تحلّق حولها القراصنة المهزومون، يسكرون ويعربدون.

أما النقطة الأخرى فلم تكن سوى بصيص من نور في قلب
العتمة يدلّ على مكان رسو السفينة التي أدارت اتجاهها تيارات
المدّ، وصارت مؤخرتها الآن في اتجاهي، وكان الضوء الوحيد على
متنها، هو ضوء المقصورة، ولم يكن ذلك الذي رأيته سوى انعكاس
الأشعة القوية التي تدفقت من نافذة المؤخرة في الضباب.

كان الجزر قد انحسر منذ فترة، لذا توجب عليّ أن أخوض عبر
حزام طويل من الأوحال، وقد كانت قدمي تغطّان مراراً إلى ما فوق
الكاحل، إلى أن تمكنت من الوصول إلى حافة المياه المتراجعة، وبعد
قليل من التخويض الذي تطلب بعض القوة والبراعة، وضعت
قارب الكوراكل على سطح الماء، ونصّل قاعه إلى الأسفل.

(٢٣)

بين المذ والجزر

كان قارب الكوراكل آمناً بالنسبة لشخص في طولي ووزني، كما كان خفيفاً في العوم ورشيقاً في الحركة، ولكن مع ذلك كانت عندي أسباب كثيرة تدفعني لأن أتركه، إذ كان قارباً عسير القيادة، غير متوازن، خشن الصنع. ومهما كانت محاولاتك حثيثة في تسييره، فإنك ستجده ينحرف ويجنح مع الريح، وكانت المناورة الوحيدة التي يتقنها، هي اللف والدوران حول نفسه مراراً وتكراراً، وحتى بين غان نفسه فقد سبق وأن قال عنه: «إنه القارب الأكثر عناداً، وهو لا يسلم القيادة حتى تتعرف على طريقته وتألّفها».

وبالطبع، فلم أكن شخصياً أعرف طريقته ولم ألّفها، لذا فقد كان يدور بي في كل اتجاه ما عدا الاتجاه الذي كنت أقصده، وفي معظم الوقت كان القارب يتحرك بالعرض، وأنا على يقين من أنني لم أكن لأصل السفينة مطلقاً لولا تيارات الجزر. إذ ومن حسن الحظ أنني مهما جذفت كان التيار يحملني معه إلى حيث كانت الهيسبانيولا راسية في الممر المائي السالك، ولا يمكن أن أفوتها.

في البداية، لاحظت لي الهيسبانيولا كجسم مبهم أكثر عتمة من الظلمة نفسها، ثم أخذ مرآى صواريتها يتضح، وتبيّنتُ هيكلها، وبها أنّ التيار أخذ يزداد سرعة كلما ازدادت قرباً منها، لذا وجدت نفسي في اللحظة التالية إلى جانب حبل المرساة فتشبثت به.

كان حبل المرساة مشدوداً كوتر القوس، لأن السفينة كانت تجذبه عندما تتأرجح مع التيار الشديد. وكان لتلاطم الأمواج حول هيكل السفينة في الظلام، صوت كخزير جدول ماء صغير ينحدر من جبل. وما هي إلا ضربة واحدة من سيفي حتى أرسل معها الهيسبانيولا لتنحو بهم مع التيار.

إلى هنا، كان كلّ شيء على ما يرام، لكن تبادر إلى ذهني أنّ حبل المرساة المشدود إذا ما قطع فجأة، فسيكون بنفس خطورة جواد يرفس. وإذا ما بلغتُ من الحماسة درجة أن أقطع الحبل عن المرساة، فإن هناك عشرة احتمالات مقابل واحد، أنني وقاربي الكوراكل سنقلب في الماء.

وهنا أمسكتُ عمّا كنتُ أنوي فعله، ولو لم يحالفني الحظ مرة أخرى، لوجب عليّ أن أتخلى عن مخططي كلياً. فإنّ تيارات من الهواء الخفيف بدأت تهب من الجنوب والجنوب الشرقي، لكنها غيرت مسارها بعد الغروب وتحولت إلى الجنوب الغربي. وفيما كنتُ أتفكّر في أمري، هبّت على الهيسبانيولا رياحٌ أرغمتها على ركوب التيار، ويا لفرحتي الكبيرة عندما وجدت أن حبل المرساة كان يرتخي في قبضتي، حتى أن يدي التي كانت تمسك بالحبل غطّت تحت الماء للحظة.

عندئذ، عزمت على تنفيذ خطتي، فأخرجت سكينتي، وفتحتها بأسناني، وقطعت ظفائر الحبل الواحدة تلو الأخرى، حتى صارت السفينة مربوطة بصفيرتين فقط. ثم مكثت هادئاً لهنيهة، أنتظر ارتحاء الحبل ثانية بهبوب الريح لكي أقطع آخر الصفيرتين.

وكنت طوال هذا الوقت أسمع أصواتاً عالية تأتي من المقصورة، لكن عقلي والحق يقال، كان منشغلاً بأفكار أخرى حتى أنني لم أكن اسمع ما يدور حولي. والآن، عندما لم يعد أمامي ما أفعله، بدأت أصيخ السمع وانتبه.

ميّزت أحد الصوتين، وكان صوت سائس الدفة، إزريال هاندز، الذي كان مدفِعياً عند فلينت في الأيام الخوالي. أما الصوت الثاني، فبالطبع، كان لصاحبي ذي القلنسوة الحمراء. وبدا واضحاً أن الرجلين كانا ثملين للغاية، ورغم ذلك فإنهما ما زالا مستمرّان في الشرب، وحتى في الوقت الذي لبثت فيه مصغياً، فتح أحدهما نافذة المقصورة، وهو يعربد ويصيح بشهالة، ثم ألقى شيئاً ما منها، وخمّنت أن ما ألقاه كان زجاجة شراب فارغة. ولكنهما لم يكونا ثملين فقط، بل من الواضح أنهما كانا يستشيطان غضباً. إذ هطلت الشتائم واللعنات كوابلٍ من البرّد، وبين الحين والآخر كان يجتدم الجدل حتى ليخيّل لي أنه سيتهي بالعراك. ولكن كل مرة يبلغ الجدل فيها ذروته، كان يخفّ ثم تخفت الأصوات لفترة، حتى تأتي أزمة أخرى تجددّه، وبدورها تنتهي بلا نتيجة.

وكنت أرى خلال أشجار الساحل، وهج نار المعسكر الكبيرة

على الشاطئ وهي تشتعل وتتأجج. وكان أحدهم يترنم بأغنية
بحارين قديمة ورتيبة وكثيبة، وفي نهاية كل مقطع كان يمدد ويرقق
صوته، وبدا أن الأغنية لن تنتهي حتى ينتهي صبر المغني. وقد كنت
قد سمعت هذه الأغنية أكثر من مرة على متن السفينة أثناء رحلتنا،
وأتذكر منها هذه الكلمات:

رجل واحد عاد حياً

من خمسة وسبعين أبحروا عليها.

وأعتقد أنها كانت أنشودة حزينة تلائم رفاقاً مروا بخسائر
فادحة كتلك التي لاقاها هؤلاء القوم هذا الصباح. ولكن بما
شهدته منهم، أن هؤلاء القراصنة كانوا قساة وغلاظ قلوب مثلهم
مثل البحر الذي أبحروا فيه.

هبّت الريح أخيراً، فمالت السفينة وتوغلت في الظلام أكثر،
وشعرت بحبل المرساة يرتخي أكثر، وبقليل من الجهد والقوة قطعت
الضفيرة الأخيرة.

لم يكن للريح تأثير شديد على قاربي الكوراكل، وكدت أن
أنجرف مباشرة نحو مقدمة الهيسبانيولا. وفي الوقت نفسه بدأت
السفينة بالميلان والدوران ببطء حول نفسها، لتنتهي عكس التيار.

كنت شديد الحرص والاجتهاد حدّ المبالغة، إذ كنتُ أتوقع
أن ينقلب بي القارب في أية لحظة، ولما أدركت أنني عاجز عن دفع
قاربي الكوراكل إلى الأمام بعيداً، فقد صرت أدفعه نحو مؤخرة
السفينة. وبعد عناء وجهد صرت في أمان من جارقي الخطرة، وفيما

كنت أجذف لمرة أخيرة، عثرت يداي صدفة على جبل رفيع كان متديلاً من فوق حاجز السفينة من المؤخرة، فقبضت عليه حالاً.

ولا يمكنني أن أفسر السبب الذي دفعني لهذا الفعل. فقد كان ذلك في بادئ الأمر مجرد دافع غريزي، ولكنني ما أن وجدت الجبل بين يدي حتى تمكّن مني الفضول، وصممت على أن ألقى ولو بنظرة واحدة من نافذة المقصورة.

تسلّقت الجبل بسرعة، وعندما قدّرت أنني صرت على ارتفاع كافٍ، ورغم الخطر الذي كان يهددني؛ فقد جازفت ورفعت نفسي إلى نصف قامتي، وهكذا تمكّنت من رؤية السطح وجزء من داخل المقصورة.

كانت السفينة ورفيقها القارب الصغير ينزلقان خلال هذا الوقت برشاقة وسرعة فوق الماء، في الواقع كنا قد ابتعدنا لمسافة^(١) عن نار المعسكر. كانت السفينة تتحدث بصوت عالٍ، بلغة البحّارة، إذ كانت تنزلق على موجات لا تعدّ ولا تحصى، وهي تصنع رذاذاً صاخباً ومستمراً. ولم أكن أدرك لماذا لم يتتبه الحارسان إلى كلّ ما كان يجري من حولهما، إلا عندما رفعت نظري من فوق حافة النافذة. ولم تكن إلا نظرة واحدة تجرأت على استراقها خلال هذا القارب المتقلقل، لكنها كانت كافية لأفهم السبب، إذ رأيت هاندز ورفيقه مشتبكين في صراع مميت، وكل واحد منهما ممسك بخناق الآخر.

(١) fetch up: قطع المسافة الواجبة لكي تصل السفينة إلى البحر المفتوح.

عدتُ إلى مقعد التجذيف في قاربي الكوراكل مرة ثانية، وما كان ذلك لعجالة مني، بل لأني كدت أن أقع من متن السفينة إلى البحر. وللحظة، لم يكن بإمكانني رؤية شيء باستثناء هذين الوجهين الشرسين الممتقعين بلون قرمزي وهما يتمايلان تحت ضوء السراج المدخن، ثم أغلقت عينيّ لأجعلهما تالفان الظلمة مرة أخرى.

وأخيراً وصلت الأغنية التي لا نهاية لها إلى نهايتها، واشترك من تبقى في المجموعة التي أخذ عددها يتناقص، والمتحلقة حول نار المعسكر، في غناء المقطع الذي لطالما سمعته مراراً وتكراراً:

«خمسة عشر رجلاً على صندوق الرجل الميت

يوو هوو وزجاجة روم

نشرب وسيتولّى الشيطان الباقي

يوو هوو وزجاجة روم!».

كنتُ مشغولاً في التفكير بالشراب والشيطان اللذين اتفقا على العمل في نفس اللحظة في مقصورة الهيسبانيولا، عندما تفاجأت بقارب الكوراكل وقد مال بغتة^(١). وفي نفس اللحظة أخذ يتهادى جيئةً وذهاباً مع تيار الماء وغير من اتجاهه، ثم أخذت سرعته تزداد بشكل غريب في الوقت ذاته.

فتحتُ عينيّ من فوري، فوجدتُ أن المكان حولي كان كلّه أمواجاً صغيرة، تمشط البحر وتصدر صوتاً جاداً مقشعراً، وتعكس

(١) Yaw: الحركة بعيداً عن المسار المطلوب بسبب تيار الرياح أو تيار الماء، أي عندما يتحرك القارب بنفس اتجاه الرياح والماء وبعيداً عن المسار المطلوب.

شيتاً من الوهج الفوسفوري. أما الهيسبانيولا التي كنت أسير على إثرها في الماء على بعد عدة ياردات منها، فما زالت تتمايل، وبدا أنها تعاني وتتعثّر في مسيرها، وقد رأيتُ صواربها وهي تترامى وتتقلب في عتمة الليل، لا بل أيقنت عندما نظرتُ مطولاً، أنها كانت تتحرك باتجاه الجنوب.

ثم ألقيت نظرة من فوق كتفي، وعندها قفز قلبي من ضلوعي، فقد رأيت خلفي مباشرة، وهج نار المعسكر. إذ كان التيار قد انقلب إلى زاوية مستقيمة، وصار يسوق مع السفينة الطويلة وقارب الكوراكل الصغير المتراقص، وقد صار أسرع، وراح يهدر ويدمدم أعلى من أي وقت مضى، ثم مضى يدور ويغزل في المضيق المؤدي إلى عرض البحر.

وفجأة انحرفت السفينة التي أمامي بعنف، قدّرت أنها قد استدارت عشرين درجة، وفي نفس اللحظة تقريباً تعاقبت صيحتان واحدة تلو الأخرى من على متن السفينة، وسمعت وقع أقدام تفرع على مقصورة السلام، فأدركت أن الرجلين الثملين قد توقفاً أخيراً عن شجارهما، وانتبها إلى حجم الكارثة التي داهمتها.

استلقيت ممدداً في قاع ذلك القارب البائس وأودعتُ أمر روحي إلى بارئها. إذ عرفتُ يقيناً أننا منتهون في نهاية هذا المضيق إلى حاجز من سلسلة من الصخور العنيفة التي تتكسر عندها الأمواج الهائجة، وعندها سيوضع حدٌ سريعٍ لمتاعبي. وعلى الرغم من أنني كنت أحتمل فكرة الموت، إلا أنني لم أحتمل رؤية نهايتي وهي تدنو مني.

لذا، لم يكن من بدّ في أن أضطجع لساعات، والأمواج ترتطم بي
جيئة وذهاباً، فأتلبلل بالرذاذ المتطاير بين الحين والآخر، ولم يفارقني
أن أترقب الموت أبداً في أي لحظة تغمرني فيها الموجة التالية.
اعتراني التعب تدريجياً، وحجب فكري ستار من الخمول وفقدان
الوعي والذهول الآني، حتى في وأنا في خضم هذا الرعب، ثمّ ساد
سلطان النوم أخيراً، ووقدتُ في قاع قاربي الكوراكل الذي تتلاطمه
الأمواج، وحلمت بدياري وبنزل الأدميرال بينبو القديم.

الكوراكل في عرض البحر

كان النهار في رابعته عندما استيقظتُ من النوم ووجدت نفسي اتقاذف مع قاربي إلى الطرف الجنوب غربي من جزيرة الكنز. كانت الشمس قد ارتفعت، لكنها ما زالت محتبئة خلف تلّ السبهي غلاس العظيم، الذي كان يبدو من هذا الجانب وكأنه جرف هائل ينحدر إلى البحر.

كان رأس الهولبولين وتلة صاري المؤخرة بالقرب مني، وكانت التلة عارية ومظلمة، أمّا الرأس فكان محاطاً بجروف على ارتفاع أربعين أو خمسين قدماً، وتحتة تكتظ كتل هائلة من الصخور المهشمة المتساقطة. وكانت المسافة بيني وأنا في البحر وبين الجزيرة تبلغ حوالي ربع الميل، لذا كانت الفكرة الأولى التي تبادرت إلى ذهني هي أن أجذّف حتى أصل إلى اليابسة.

إلا أنني سرعان ما تخلّيت عن هذه الفكرة، فقد كانت الأمواج المتلاطمة تتكسر وتجارّ عالياً على حاجز من هذه الصخور المتساقطة المستنّة، فكان الماء يرتد عنيفاً وصاحباً ويطلق رذاذاً كثيفاً متطايراً،

وكانت الأمواج لا تفتأ تتكسر وتتلاطم، موجة في إثر موجة، ورأيت أنني لو جازفت بالاقتراب فسوف اتهمشم حتى الموت على الساحل ذي الصخور الناتئة، أو أستنزف قوتي بلا طائل في تسلق الصخور خنفسائية الشكل.

وليس ذلك فحسب، بل رأيت كائنات ضخمة ملساء كأنها حلازين بأحجام عجيبة، كانت ترحف على الصخور المستوية أو تدع نفسها تسقط في البحر محدثة دويماً عالياً، وكل أربعين أو ستين واحدة منها متجمعة مع بعضها ترأر، وتردد الصخور صدى زئيرها.

ثم علمت فيما بعد أنّ هذه الحيوانات كانت أسود بحر، وهي كائنات أليفة تماماً، لكن منظرها الفظيع، بالإضافة إلى وعورة الشاطئ واشتداد تلاطم الأمواج، كان أكثر من كافٍ لإثارة اشمئزازي من ذلك الساحل. وقد شعرت أنني أفضل الموت جوعاً في عرض البحر على أن أواجه مثل هذه المخاطر.

في الوقت نفسه تبدّت أمامي فرصة أفضل بحسب تقديري. فقد كانت الأرض شمال رأس الهولبولين تمتدّ طويلاً حتى تصل البحر، وتُحَلَّف عندما ينحسر الجزر لساناً طويلاً من الرمال الصفراء. إلى الشمال من هذا اللسان، هنالك لسان آخر يدعى بخليج الغابات^(١)، كما هو معلّم ومذكور على الخريطة، وهو مخفي بين أشجار الصنوبر الطويلة، وينحدر حتى حافة البحر.

(١) Cape: لسان من الأرض داخل البحر.

ثم تذكّرت ما قاله سيلفر عن التيار الذي يتّجه شمالاً على طول الساحل الغربي من جزيرة الكنز، وبالنظر إلى موقعي فقد كنت تحت تأثير هذا التيار بالفعل، لذا فضّلت أن أترك رأس الهولبولين خلفي وأدّخر جهدي في محاولة للرسو على ساحل خليج الغابات الذي كان يبدو لي أكثر هدوءاً وأماناً.

كانت هناك موجة ضخمة وسلسلة على وجه البحر، فالريح تهب باعتدال وهدوء من الجنوب، ولم يكن هنالك من تعارض بينها وبين والتيار، فبات العباب يرتفع ويسقط دون أن ينكسر أو يتلاطم.

ولو كان الأمر عكس ما كان عليه، لكنت في عداد الهالكين منذ زمن بعيد، لكن وقد جرى الأمر على ذلك الحال، فقد أخذ قاربي يبحر بهدوء وسلاسة وأمان بشكل يثير الدهشة. وطوال الوقت الذي استلقيت فيه في قاع القارب مُبقياً عيني فوق حافته، كنت غالباً ما أرى القمة الزرقاء لموجة كبيرة تعلو فوق رأسي، ومع ذلك فقد كان قاربي الكوراكل متوازناً ولا يتمايل ولا يتقاذف إلا قليلاً، وكأني به يرقص على نوابض، ثم يهدأ ويستقر على الجهة الأخرى من الموجة بخفّة الطائر.

بعد قليل بدأت أتشجّع، وارتأيت أن أختبر مهارتي فأحاول التجذيف. إلا أنني وجدت أن أدنى تغيير في توزيع الوزن على القارب سينتج عنه اضطراب عنيف في سلوكه. لذا، ما كدت أتحرك حتى تخلّى القارب عن حرّكته الراقصة السلسلة واندفع مباشرة إلى

الماء بانحدار شديد جعلني أصاب بالدوار، ثم ضرب مقدمته بعمق داخل الموجة القادمة، مخلقاً بذلك نافورة من الرذاذ المتطاير.

تبللْتُ وارتعبتُ، ثم تراجعْتُ في الحال إلى موضعي السابق، وعندما بدأ قارب الكوراكل يستعيد توازنه وجعل يقودني بيسر وهدوء بين الأمواج كما كان من قبل. كان واضحاً أنّ هذا القارب لا يريد لأحد أن يتدخل في أمره. بعد هذا، وقد صرت لا أجد لي أي طريقة للتأثير على مجراه ولا أملك القدرة على توجيهه، تساءلتُ أيّ أمل قد بقي لي للوصول إلى اليابسة؟

بدأ الرعب يدب في أوصالي، ولكنني بقيت خلال كل ذلك محافظاً على تركيزي، فقد حرصتُ أولاً على أن أتحرّك بعناية شديدة، ثم شرعت بنزح الماء عن قارب الكوراكل بقبعتي البحرية، وبعد ذلك رفعت نظري فوق حافة القارب، لأدرس الموقف وأتدبّر كيف كان القارب ينزلق بهذا اليسر فوق تلكم الموجات المتدحرجة.

اكتشفتُ أنّ كل موجة كانت تبدو من جانب البر أو من على سطح السفينة مثل جبل كبير لامع، إلا أنها من جانب البحر كانت تشبه أي سلسلة تلال على اليابسة، ففيها قمم وأماكن منبسطة ووديان. لذا كان قارب الكوراكل يقود نفسه من جانب إلى آخر ويشق طريقه بحذر إذا صحَّ التعبير، خلال تلك المناطق المنخفضة، وكان يتجنّب المنحدرات الحادة وقمم الموجات.

قلتُ لنفسي: «حسناً، من الواضح أنني يجب أن أبقى ممدداً حيث أنا، وأن لا أخلّ بتوازن القارب، بيد أنه من الواضح أيضاً

أنني يجب أن أضع مجذافي على أحد جانبي القارب، ثم أعطيه دفعة بسيطة أو دفعتين بين حين وآخر في المناطق اليسيرة الهادئة، لكي أبقيه باتجاه اليابسة». ولم أضيع وقتاً، فسرعان ما عدت للاستلقاء على مرفقي في وضعية صعبة مرهقة، وبين الحين والآخر أعطي القارب دفعة خفيفة أو دفعتين لكي أضع مقدمته باتجاه اليابسة.

وعلى الرغم من مشقة هذا العمل وبطئه، إلا أنني ظفرت بثمرة جهدي، إذ وجدت نفسي أدنو أكثر فأكثر إلى خليج الغابات، على أنني أدركت أنني سأفوته، فقد كنت على بعد عدة ياردات من جهة الشرق. غير أنني كنت قريباً منه بالتأكيد، واستطعت رؤية قمم الأشجار الباردة الخضراء وهي تتمايل مع النسيم. وتيقنت من أنني سأتمكن من المرور خلال الصخور الشاطئية دون أن أخفق.

كان النهار في منتصفه فاشتد بي العطش. وقد اجتمع وهج الشمس من فوق، وأشعتها المنعكسة ألف مرة على الأمواج من تحتي، مع مياه البحر التي كانت قد بللّنتني وجفّت تاركة ملحها يكسو شفتي. اجتمع كل ذلك عليّ حتى صار حلقي يحرقني ورأسي يؤلمني. وكان منظر الأشجار القريبة في متناول اليد مني يجعلني مهووساً بالتوق واللهفة إليها، ولكن التيار حملني بعيداً عنها، وما أن انفتح البحر أمامي حتى رأيت مشهداً غير طبيعة فكري.

فقد رأيت أمامي على بعد نصف ميل، سفينة الهيسبانيولا وهي تمخر عباب البحر. وقد تأكّد لي أنني مُدرِكٌ لا محالة، ولكنني كنت مبتسماً من حاجتي الشديدة للماء، حتى شقّ عليّ أن أجزم ما إذا كان

ينبغي عليّ الابتهاج أو الأسف من هذه الفكرة. وقبل أن أصل إلى نتيجة، استحوذت مفاجأة على تفكيري حتى ما عاد بإمكانني فعل شيء سوى التحديق والعجب.

كانت الهيسبانيولا تبحر تحت شراعها الرئيسيّ واثنين من الأشرعة الأمامية الصغيرة، وقد التمع القماش الأبيض الجميل تحت الشمس كالثلج أو الفضة. عندما وقعت عيناها عليها، كانت كلّ أشرعتها مفتوحة ومنفوخة بالريح، وهي تسير في اتجاه الشمال الغربي. افترضت أن الرجال على متنها كانوا يستديرون حول الجزيرة ليعيدوها إلى مرساها. لكنّها الآن أخذت تدنو أكثر فأكثر نحو الغرب، لذا افترضت أنهم قد لمحوني وسوف يطاردونني. لكنها في النهاية دخلت في عين الريح، وتراجعت قليلاً ثم توقفت بلا حول ولا قوة في مكانها فيما أشرعتها ترفرف.

قلتُ في نفسي: «يا للبحّارين الأخرقّين! لا ريب أنها ما زالا ثملين مثل بومين!»، وفكّرت أنّه كان يمكن للقبطان سموليت أن يجعل من هذين القرصانين بحّارين منضبطين.

في هذه الأثناء، كانت السفينة قد مالت تدريجياً حتى ركدت، ثم ملأت الريح أشرعتها ثانية، وراحت تتبع مساراً آخر، فأبحرت برشاقة لدقيقة أو اثنتين، ثم عادت للركود ثانية في عين الريح. وقد تكرر هذا الأمر مراراً، فكانت تسير إلى الأمام وإلى الخلف، ثم تصعد وتنزل، ثم تروح في كل اتجاه، شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، وفي كل مرة تنقض فيها الهيسبانيولا على البحر باندفاع كان أمرها ينتهي كما

بدأ، بأشعة تحفّق بكسل وهمود وهي راكدة. وهكذا اتضح لي أنه لم يكن ثمة من أحد يقودها، ولو كان ذلك صحيحاً، فيا ترى إلى أين ذهب هذان الرجلان؟ إمّا أنّهما يكونان غارقين في ثمّاتهما، أو أنّهما قد تركا السفينة. لذا فكّرت أنني لو تمكنت من الصعود إليها فلربّما كان باستطاعتي إعادتها إلى قبطانها الحقيقي.

كان التيار يحمل قاربي الكوراكل والسفينة بمعدّل متساو نحو الجنوب. وكانت السفينة تبخر بجموح ودون انتظام، وإثر كل مرة كانت تركد طويلاً في الريح، لذا لم تكتسب أية مسافة، هذا لو لم تكن تفقد تقدّمها بالأصل. ولو أنني تجرأت على التجذيف لتمكنت من اللحاق بها. كانت الخطة تعتمل في رأسي وفيها شيء من أجواء المغامرة التي أهتمني على تنفيذها. وكان ممّا يضاعف من شجاعتي هي فكرة وجود براميل مياه الشرب إلى جانب حجرة السلام الأمامية.

وما أن نهضت حتّى رحّبت بي في الحال سحابة رذاذ أخرى، لكنني هذه المرة تمسكت بهدي، وقمت بكل ما أوتيت من قوة وحذر، بالتجذيف نحو الهيسپانيولا الجامحة. كنت في كلّ مرة أغرفُ مقداراً كبيراً من الماء كان يثقل قاربي، ممّا يُضطرني لأن أتوقّف لنزحه وقلبي يخفق كجناح طير، ولكنني بالتدرّج خبرت طريقة هذا القارب، وصرت قادراً على قيادته وتسيّره بين الأمواج، إلا أنه بين الحين والآخر كان تلطم مقدمته موجة تقذف بزبدها على وجهي.

أخذت الآن أتقدم بسرعة نحو السفينة، وكان بإمكانني رؤية النحاس يلتمع تحت الشمس على ذراع الدفة وهي تحبب بقوة. إلى حد الآن لم يكن هنالك أي أثر لأي أحد على متن السفينة، لذا لم يكن بوسعي إلا التفكير بأن السفينة لا ريب، قد هُجرت. وإذا لم يكن الظن كذلك، فإن الرجلين لا شك، ينامان الآن في الأسفل من شدة السكر، حيث سيمكثني أن أغلق عليهما باب المخرج، ولربما سيكون عندها بإمكانني أن أفعل بالسفينة ما شئت.

استمرت السفينة لبعض الوقت بفعل أسوأ ما يمكنها أن تفعله بالنسبة لي؛ وهو الركود. فقد كانت تتجه نحو الجنوب، وهي تتمايل وتتعرج في مسيرها بالتأكيد. وكانت كلما انحدرت عن الريح تعود أشرعتها لتمتلئ بالهواء، ثم تأخذها نحو الريح مباشرة. وقد قلت إن هذا أسوأ ما يمكنها أن تفعله بي، إذ أنها بدت عاجزة وهي على هذا الوضع بينما كانت أشرعتها تتصدع مثل مدفع، والبكرات تتدحرج وتتخبط ببعضها البعض على السطح، وما زالت الهيسبانيولا تفلت مني، ليس فقط بسبب سرعة جريان التيار، بل بكل ما عندها من انحراف بسبب الريح، والذي كان بطبيعة الحال انحرافاً كبيراً.

لكنني أخيراً نلتُ غايتي. فقد خفّت الريح لبضع ثوان، وبات التيار يدير الهيسبانيولا تدريجياً حتى التفت تماماً حول محورها، فتمكّنتُ من مؤخرتها، وكانت نافذة المقصورة لا تزال مشرعة، وما زال القنديل على المنضدة في المقصورة مشتعلاً حتى في وضوح النهار. وكان الشراع الرئيسي متديلاً كما لو كان راية، ولولا وجود التيار لكانت هادمة عن الحركة كلياً.

كنت للفترة الماضية أخسر، ولكنني الآن وقد ضاعفت جهودي،
تمكنت مرة أخرى من اللحاق بالسفينة.

كنت على بعد مائة ياردة عندما عادت الريح للهبوب ثانية.
وملأت الأشرعة من جهة اليسار، ثم صارت تنحني وتنزلق بروية
على سطح الماء كما لو أنها طائر سنونو.

وكان الإحباط دافعي الأول، ولكنني بعد حين غمرني السعادة،
إذ أنها استدارت، حتى اقتربت مني، وظلت تستدير وتقرب، حتى
اجتازت نصف المسافة التي تفصل بيننا، ثم ثلثها، ثم ثلاثة أرباعها.
وكنْتُ أرى الأمواج البيض تغور تحت مقدمها. وإذا بها أمامي بقامتها
الشاهقة وأنا في موضعي المنخفض في قارب الكوراكل.

بدأتُ أستوعب أنه بالكاد أمامي وقتٌ للتفكير، وآخر للتنفيذ
وإنقاذ نفسي. كنت على قمة إحدى الموجات عندما أتت السفينة على
ظهر الموجة التالية. كانت العارضة الأمامية^(١) فوق رأسي، فقامت
من فوري على قدمي، ووثبت ورفست قارب الكوراكل تحت الماء،
وبيد واحدة تشبّثت بذراع الشراع الأمامي الصغير، فيما كانت
إحدى قدمي مغروزة بين جبل التثبيت الخلفي^(٢)، وجبل الصاري
الأمامي^(٣). وبينما كنتُ معلقاً ولاهثاً، سمعت صدمة خفيفة أدركت

(١) Bowsprit: صاري يبرز من مقدمة قوس السفينة، وتُرْبَط به الحبال التي تثبت الشراع
الأمامي.

(٢) backstay a stay: جبل ثقيل يستخدم للتثبيت والدعم، يمتد من قمة الصاري إلى
جانب أو مؤخرة السفينة.

(٣) Brace: جزء من الحبال تحت العارضة الأمامية، يعمل على تثبيت وإسناد الشراع الأمامي.

عندها أن السفينة قد ضربت قارب الكوراكل وحطمته. ها أنا ذا
على الهيسبانيولا.

إنزال راية الجولي روجر

ما كدتُ أستقرّ في موضعي على ذراع الشراع الأمامي حتى رفرف الشراع وامتلاً بالهواء منقلباً على جهته الثانية ومُحدثاً صوتاً عالياً كما لو كان دويّ مدفع. فأخذ هيكل السفينة يهتز من النصل الرئيسي حتى القمة، وفي اللحظة التالية امتلأت الأشرعة الأخرى، وعاد الشراع الأمامي إلى خموله. وقد أوشك هذا الأمر أن يقذف بي إلى البحر، لذا لم أضع وقتاً، وأخذت أزحف على طول ذراع الصاري الأمامي، حتى سقطت رأساً على عقب على سطح السفينة.

كنت على الجانب البعيد عن الرياح في المقدمة، وكان الشراع الرئيسي ما زال ممتلئاً بالريح، وبالتالي فقد أخفى عني جزءاً من السطح الخلفي للسفينة. إلاّ أنه لم يكن هناك من أحد على مرأى مني. ورأيت الألواح الخشبية لبدن السفينة وأرضيتها لم تمسح ولم تنظف منذ بدأ العصيان. وكانت تحمل طبعات أقدام كثيرة. وهناك زجاجة خمر مكسورة من العنق، ظلت تتدحرج جيئةً وذهاباً بين فتحات التصريف وكأنها كلئن حيّ.

وفجأة وقعت الهيسبانيولا في عين الريح، ففرقت الأشرعة الأمامية الصغيرة خلفي، وصارت الدفة تتلاطم، ودخل هيكل السفينة بأكمله في حالة من الهياج والاضطراب والاهتزاز، وفي اللحظة نفسها تآرجح رافد الشراع الرئيسي فوق السطح، وراحت الأشرعة في البكرات تثنّ وتصرّ وتحقق، حتى أظهرت لي سطح السفينة الخلفي.

وهنا، لاح لي الحارسان، كان ذو القلنسوة الحمراء ممدداً على ظهره، ويابساً كوتدر حوية، فيما ذراعه ممدودتان كما لو أنه مصلوب، وقد فتح فمه حتى بانت أسنانه، أما إزريال هاندز فكان متكئاً على حاجز السفينة، وذقنه على صدره، وذراعه ممدودتان إلى جانبيه على السطح، وقد شحب وجهه الذي كانت الشمس قد سفعته حتى صار لونه يشبه شحم الشمعة.

ظلت السفينة لفترة تميد وثب كما لو أتها جواد جامح، وكانت أشرعتها المثلثة بالريح تتبع هذا المسار تارة وذلك المسار تارة أخرى، وكان ذراع العارض الأمامي يتأرجح جيئة وذهاباً حتى راح الصاري يثنّ ويقرّع تحت قوّة الشدّ والضغط. وبين الحين والآخر، كانت تأتي غمامة من الرذاذ فترش جوانب السفينة من فوق الحواجز، وأحياناً تلطم جانب السفينة أمواجٍ عنيفة، وبدا كما لو أن الطقس المتقلب الشديد صار أكثر وطأة على هذه السفينة المتينة مما كان على قارب الكوراكل يدوي الصنع غير المتوازن، الذي صار الآن في قاع البحر.

وفي كل مرة تقفز السفينة كان ذو القلنسوة الحمراء ينزلق ويتدحرج رواحاً ومجيباً، ولكن ما كان أكثر ترويعاً في منظره، هو أن وضعية جسده وتكشירתه المفتوحة لم تتأثرا بهذه الحركة الهائجة. أما إزريال هاندز فكان بدوره وفي كل مرة تقفز السفينة، يغوص وينكمش أكثر في جسده، ثم يستقرّ على السطح، فيما رجلاه تنفتحان وتتباعدان أكثر، وينزلق كلّ جسده نحو المؤخرة، حتى اختفى وجهه شيئاً فشيئاً عن ناظري، وفي النهاية لم يعد بإمكانني أن أرى منه أي شيء عدا أذنه وعقصة شعثناء من شاربه.

كنتُ قد لاحظت في هذه الأثناء أن ألواح الخشب حولهما كانت تملؤها بقع من الدماء الدكناء، فصرت على يقين من أنّهما كانا قد قتلا بعضهما البعض في نوبة غضب وهما ثملان.

وفيا كنت مستغرقاً في التفكير وأتطلع حولي متسائلاً عمّا حدث، والسفينة راكدة في لحظة سكون؛ رأيتُ إزريال هاندز وقد انقلب قليلاً، ثم تلوّى إلى وضعه الأول الذي رأيته فيه وهو يثنّ أئيناً منخفضاً. وقد رقّ قلبي عندما سمعت أئينه الذي يدلّ على الألم والضعف والاحتضار، وخاصة عندما رأيته فاغراً فاه بهذا الشكل. لكنني سرعان ما تذكّرت الحديث الذي سمعته عندما كنت في برميل التفاح، فذهبت من قلبي كل شفقة تجاهه.

تمشيتُ إلى الصاري الرئيسي، وتوجهت إليه، ثم قلت له ساخراً:

- هيا يا سيد هاندز، قم!

فرفع عينيه بثاقل وجهه، لكنه كان في حالة سيئة لم يقدر معها

أن يعبر عن مفاجأته بوجودي. ولم يتمكن من أن يتلفظ سوى بكلمة واحدة:

- براندي!

فكرت أن ليس هنالك من وقت لتضييعه، فتحاشيت العارضة الخشبية التي كانت تتمايل مرّة أخرى على السطح، وهرعت من السلم عبر المهاجع ثم إلى المقصورة.

ولا يمكنكم تخيّل الفوضى التي رأيت عليها المكان. فقد كانت قد حُطّمت كل الصناديق والجوارير والخزائن المقفولة بحثاً عن الخريطة. وكانت الأرضية مغطاة بطبقة من الأوحال، حيث كان هؤلاء الأوغاد يجلسون ويشربون ويعربدون ويتداولون في أمورهم بعد عودتهم من المستنقعات التي كانوا يخوضون فيها حول معسكرهم. كما تلوثت الحواجز والجدران المصقولة ذات الحواشي المذهبة التي كانت بيضاً، بطبقات أياديهم القذرة. بينما العشرات من القناني الفارغة ملقاة هنا وهناك تفرع ببعضها البعض في أركان المقصورة مع حركة السفينة. وكان واحدٌ من كتب الطبيب الطبية مفتوحاً على الطاولة، وقد نُزعت نصف أوراقه، وأفترضُ أن ذلك كان من أجل إشعال غلايينهم. وفي وسط كلّ هذه الفوضى كان القنديل يتوهج بضوء مدخّن غامض ومبهم وذو لون بنيّ قاتم كالحاء شجرة. ثم ذهب إلى القبو، وكانت كلّ البراميل قد اختفت، فيما كان هنالك عدد عجيب من القناني الفارغة والمرمية على الأرض. ولا ريب أنهم ومنذ بداية التمرد لم يفق أيُّ منهم من ثمّالته.

رحت أبحث في المكان عن الطعام، فلم أجد إلا قنينة بقي فيها القليل من البراندي، فأخذتها لهاندز، وأخرجت شيئاً من البسكوت لنفسي، وبعضاً من الفواكه المجففة، وكمية من الزبيب، وقطعة من الجبنة. ثم جمعت كل هذه الأشياء وصعدت بها إلى السطح، وخبأت حصتي خلف الدفة وبعيداً عن متناول سائس الدفة، ثم مضيت نحو براميل المياه فرويت عطشي، ثم بعد أن أتممت كل ذلك وليس قبلاً، أعطيت هاندز البراندي.

ولا شك من أنه قد عبّ نصف لتر منه قبل أن يرفع القنينة عن فمه. ثم قال لي:

- بحق الرعد، أعطني بعضاً مما عندك.

إذ كنت قد جلست في زاوية وأخذت أتناول طعامي. فسألته:

- هل إصابتك خطيرة؟

ثم صار ينخر كخنزير، بل ينبح.

فقال:

- لو كان ذلك الطبيب معنا، لكنك سأتعافى في غضون نوبتين، ولكنني سيء الحظ، كما ترى، وهذا هو شأني وعلتي.

ثم أضاف وهو يشير إلى الرجل ذي القلنسوة الحمراء:

- أما ذلك الوغد، فإنه ميت. لم يكن بحاراً حقيقياً. لكن من

أين أتيت أنت؟

فقلتُ:

- لقد جئت لأستعيد السفينة يا سيد هاندز، فاعتبرني من الآن
قبطانك حتى إشعار آخر.

نظر إليّ شزراً، ولكنه لم يقل شيئاً. وقد عاد إلى وجنتيه شيئاً
من اللون، رغم أنه كان لا يزال يبدو معتلاً، وظلّ ينزلق مع حركة
السفينة ويعدّل من جلوسه.

ثم أردفت:

- على فكرة، لا يمكنني أن أبقى على هذه الراية مرفوعة. لذا
يا سيد هاندز، اسمح لي بأن أقوم بإنزالها، فحتى عدم وجود
راية هو أفضل من وجود هذه.

ومرة أخرى تفاديت ذراع الصاري، وأنزلت رايتهم السوداء
الملعونة فألقيتها في عرض البحر.

ثم هتفتُ وأنا ألوح بقبعتي:

- فليحفظ الله الملك. هذه هي نهاية القبطان سيلفر!

رمقني هانز مطولاً بنظرة خبيثة، وكان ما زال فاغراً فاه طوال
الوقت. ثم قال أخيراً:

- أعتقد يا قبطان هو كينز، أنك تريد أن ترسو على الشاطئ.
فهلاً نتحدث.

قلتُ:

- لم لا. على الرحب يا سيد هاندز. قل ما عندك.

واستأنفت تناول طعامي بشهية مفتوحة.

فأوما برأسه في وهن وضعف إلى الجثة وقال:

- إن هذا الرجل، واسمه أوبراين، هو إيرلندي دنيء. كنا أنا وهو قد رفعنا أشرعة السفينة وفي نيتنا أن نعيدها. والآن هو ميت، هامد وراكد كالماء الآسن في قعر السفينة. وأنا أنظر ولكني لا أرى من الذي سيقود السفينة. ودون أن أرشدك لن تكون قادراً على قيادتها، على حدّ علمي. أمّا لو أعطيتني ماء وطعاماً، ووشاحاً قديماً أو منديلاً لأضمد جرحي، عندها سأقول لك كيف تبخر بالسفينة. وفي هذا إنصاف لكلينا، كما أعتقد.

فقلت:

- سأخبرك بشيء واحد، أنا لن أعيد السفينة إلى مرسى القبطان كيد، فأنا أنوي إيصالها إلى الخليج الشمالي الصغير، وأرسو بها هناك بهدوء.

فصاح قائلاً:

- نعم! يقيناً أنك فاعل هذا، أنا لستُ ببخّار مبتدئ ووغد، ويمكنني أن أفهم، فقد حاولتُ وخسرت، والآن أنت تملك زمام أمري. وإذا أردت الذهاب للخليج الشمالي، فليس لي خيار، ولكنني سأساعدك للإبحار بالسفينة إلى رصيف الإعدام^(١)، وإني بحق الرعد لفاعل ذلك.

(١) Execution Dock: منصة لشنق القراصنة تقع على نهر التايمز في منطقة Wapping.

لقد بدالي الأمر منطقياً، لذا أبرمنا اتفاقنا في الحال. وفي غضون ثلاث دقائق كانت الهيسبانيولا تبخر بسهولة ويسر أمام الريح على امتداد ساحل جزيرة الكتز، والأمل يحدونا بأن نصل بها الى الجهة الشمال قبل الظهيرة، ونشق طريقنا إلى الخليج الشمالي قبل أن ترتفع المياه، حيث سيمكننا أن نرسو بها بأمان، ثم ننتظر انحسار الماء لكي نزل إلى اليابسة.

ثم أنني ربطت ذراع الدفة ونزلت إلى صندوقي الخاص، حيث كنت أحتفظ بمنديل حريري كان لأمي. ثم قُمت بمساعدة هاندز في ربط المنديل حول الطعنة العميقة النازفة التي تلقاها في فخذه، وبعد أن أكل قليلاً، واحتسى رشفة أو اثنتين من البراندي، بدأ يستعيد عافيته وينظر أمامه، ثم جلس معتدلاً، وصار يتحدث بصوت أعلى وأوضح، وبدا كرجل آخر من كل النواحي.

هبّ نسيم الريح في صالحنا بشكل يثير الدهشة، وطفونا على الماء برشاقة كما لو كانت السفينة طيراً. ثم لاح لنا ساحل الجزيرة، وكان المنظر يتغير كل دقيقة. وسرعان ما اجتزنا الأراضي المرتفعة وسرنا إلى جانب أرض منخفضة رملية تتخللها هنا وهناك بضع صنوبرات قزمية، ثم اجتزنا هذه الأرض أيضاً، ودرنا حول ركن التل الصخري الذي يقع في نهاية الجزيرة من جهة الشمال.

وكم كنت مبتهجاً بمنصبي الجديد في القيادة، ومسروراً بالطقس

وكانت جنث القراصنة تُترك حتى يأخذها المد. أما أولئك القراصنة المشهورون المجرمون فكانت جنثهم تُحْتَبَط بالفطران. وتعلّق بالسلاسل على مصب نهر التايمز.

المشرق الصافي وبتلك المناظر المختلفة للساحل. خاصة وقد صار
عندي ماء شرب وفير وأشياء شهية لأكلها، أما ضميري الذي آتبنى
سابقاً على غيابي من الحصن وتخلّفي عن صحبي، فقد صار مطمئناً
ومرتاحاً بفضل النصر الباهر الذي حققته. ولم يبق عندي ما أريد
تحقيقه ولا ينقصني من رغباتي شيء، لولا نظرات سائس الدفة التي
كانت تبغني حينما سرت على السطح، وتلك الابتسامة الغريبة التي
كانت تظهر بين الحين والآخر على وجهه. لقد كانت ابتسامة تحمل
مزيجاً من الألم والضعف والكهولة المنهكة، ولكن مع تلك الابتسامة
كانت هناك لمحة من السخرية وظلال من الخداع والمكر في تعابيره
فيما كان يمعن ويمعن ويمعن النظر إليّ وأنا منهمك في عملي.

(٢٦)

إزريال هاندز

الرياح التي جرت كما اشتهدت سفينتنا صارت الآن تهب نحو الغرب. كان بإمكاننا أن نبحر بسهولة من ركن الجزيرة الشمال شرقي إلى مصب الخليج الشمالي، إلا أنّ وقتاً طويلاً ضاع منا، إذ أننا فقدنا القدرة على الرسو، ولم نجرؤ على الإبحار بالسفينة قرب الشاطئ حتى يرتفع المد^(١). وقد أرشدني سائس الدفة إلى الطريقة التي أرسو بها بالسفينة، وبعد عدة محاولات، نجحت أخيراً، ثم جلسنا صامتين نتناول وجبة طعام أخرى.

مضى وقت طويل حتى قال أخيراً، وقد علت ملامحه تلك الابتسامة المريرة نفسها:

- أيها القبطان، أعتقد أنّ عليك أن ترمي بجثة رفيقي القديم أوبراين إلى البحر. ليس ذلك قانوناً يجب عليّ اتباعه، كما أنّي

(١) لأن جيم كان قد قطع المرسة، لذا كان عليهم أن يرسوا بالسفينة على الشاطئ، أي أن يثبتوها على الأرض لإبقائها في محلّها، ولكنهم لن يستطيعوا القيام بذلك حتى يرتفع المد لكي يتمكنوا من توجيهها قريباً من اليابسة فلا يعيدها الجزر إلى البحر ثانية.

لن أتحمّل مسؤولية جثته. وأعتقد أنّك توافقني الرأي على أن منظره ليس جميلاً، وأنه ليس بزينة في المكان لكي نبقّيه هكذا، أليس كذلك؟

فقلتُ:

- لستُ قوياً بما يكفي لمثل هذه المهمة، أضف إلى أنّي لا أحبذ أن أقوم بها، وبالنسبة لي فليبق في مكانه، فما شأنى به. غمز بطرفه وأردف قائلاً:

- هذه السفينة مشؤومة، هذه الهيسبانيولا يا جيم. لقد قُتل على متنها عدد لا بأس به من الرجال الغلاظ. وقد شهدنا أنا وأنت مذ أبحرنا بها من بريستول عدداً من البحارة المساكين وقد مضوا إلى حتوفهم. لم أصادف من قبل حظاً قبيحاً كهذا الذي رافقتنا. فهذا أمامك أوبراين قد مات. حسناً، بما أنّي امرؤٌ أميٌّ ولست متعلماً، وبما أنّك فتى متعلّم ويمكنك أن تضع الأمور في نصابها، فهل تعتقد أنّ الميت يبقى ميتاً إلى الأبد أم أنه سيعود للحياة؟

فأجبتُه:

- قد تقتل الجسد، يا سيد هاندز لكنك لن تقدر على قتل الروح، ويجب على من هو مثلك أن يعرف هذا. فأوبراين ذاك، أصبح الآن في عالم آخر، وربّما هو يرانا.

فقال:

- آه! يا للخسارة، يبدو كما لو أن قتل الناس هو مضيعة للوقت طالما أنهم سيعودون. ولكن عموماً، مما خبرت ورأيت، فإن الأرواح لا يعول عليها في شيء ولا أحسب لها حساباً، لذا سأجازف مع الأرواح فما عساها أن تفعل بي يا جيم. والآن بما أنك تحدثت معي بحرية، فسأخذ الأمر كبادرة عطف منك، لو أنك نزلت إلى تلك المقصورة وأتيتني، ببعض.. ببعض من ذلك الشراب، أوه، فلترتعد أخشابى لو أنني تلفظت باسمه، حسناً، فليكن ذلك، ليتك تأتيني بقنينة من النبيذ، إذ يبدو أن هذا البراندي شديد التأثير على رأسي يا جيم!

بدا لي تردّد وارتباك سائس الدفة أمراً غير طبيعي، أما عن حجته في تفضيل النبيذ على البراندي، فلم أصدقها إطلاقاً. فهذه القصة بدت وكأنها ذريعة، إذ من الواضح أنه أراد مني أن أغادر السطح، ولكنني لم أتصوّر السبب من وراء ذلك. فهو لم يضع عينيه بعيني قط، فقد ظلنا شاردين طوال الوقت، فمرة ينتقل ببصره إلى الأعلى والأسفل، ومرة إلى الأمام والخلف، وتارة إلى السماء وتارة إلى جثة أوبراين. وكان طوال الوقت يبتسم ويخرج لسانه بشكل يشي بالذنب والإحراج، وأي طفل يمكنه أن يلاحظ أنه يبيت النية على الخداع. بيد أنني كنت حاضر البديهة سريع الإجابة ومتيقظاً، إذ كنت أعرف أين تكمن ميزتي مع رجل بهذا الغباء، ولذا كان بإمكانه بسهولة أن أخفي ريبتي وشكوكي به حتى النهاية.

فقلتُ له:

- أبعض من النيذ؟ حسناً، هذا أفضل لك، أتریده أبيض أم احمر؟

أجابني:

- كلاهما سواء بالنسبة لي يا رفيقي، ما دام أنه خمر وستأيني بكمية وفيرة منه، فما الفرق؟

فأجبت:

- حسناً سأتيك بالنيذ يا سيد هاندز، ولكن عليّ أن أبحث عنه جاهداً حتى أعثر عليه.

قلت هذا ثم توجهت إلى حجرة السلام^(١) مهرولاً ومتعمداً أن أفرع بخطواتي الأرضية وأفتعل ضوضاء عالية، ثم نرعت حدائي وتسللت بهدوء وخفة وسرعة من الردهة، وصعدت سلم المقدمة وأطلت برأسي منه. كنت موقناً أنه لن يتوقع رؤيتي هناك، لكنني مع ذلك اتخذت كل احتياطات لازم، ولم يطل ظني حتى تأكدت صحة شكوكي.

فقد رأيتته وهو يهيم بالنهوض على ذراعيه وركبتيه، مع أن ساقه كانت تؤله بشدة عندما كان يتحرك كما هو واضح، لأنني سمعته يكتم أنينه وهو يجرجر نفسه بسرعة على سطح السفينة. وفي ظرف نصف دقيقة كان قد وصل إلى فتحة تصريف الماء ثم التقط من بين الحبال سكيناً طويلة أو بالأحرى خنجراً، وكان ملطخاً بالدماء إلى

(١) Companion: الإطار والنوافذ والمناور التي تغطي المسافة إلى المقصورة في مؤخرة السفينة. وفيها السلام التي تؤدي إلى المقصورة.

مقبضه، نظر إليه لوهلة، ولوّح به، ثم بدا وكأنه يجرب أن يغرسه تحت فكّه السفلي، وبعدها مرّره على يده ليختبر حدّته، وبسرعة أخفاه تحت رداثه، ثم عجل بالعودة إلى وضعه القديم متكئاً على حاجز السفينة.

كان هذا كلّ ما أرغب في معرفته: إزريال بإمكانه التحرك، وهو الآن مسلّح، ولو أنّه وجدني حجر عشرة وفي نيته التخلص مني فمن الواضح أنني سأكون القاتل التالي. ولم أكن لأعرف ما هو فاعل بعد أن يتخلص مني، سواء أن يستدير حول الجزيرة من الخليج الشمالي إلى المعسكر عبر المستنقعات، أو أن يطلق قذيفة من توم الطويل^(١)، واثقاً من أن رفاقه سيأتون لنجدته، وهذا بالطبع ما لن أقوله عن رفاقي البعيدين.

إلا أنني شعرت أن بإمكانني أن أثق به إلى حد ما، بسبب من أن مصلحتي ومصلحته تصبان في اتجاه واحد، وهو إرساء السفينة، فقد كانت رغبةً لكليتنا أن نصل بها بسلام إلى مكان أمين، وعندما يحين الوقت، فسوف نتمكن من إخراجها بسهولة ويسر وبأقل درجة من الخطورة، وأيقنت أن حياتي لن تكون مهددة حتى يتم هذا الأمر.

وفيمّا كنتُ أقلّب المسألة في ذهني، كان جسدي قد أخذ دوره في الحركة هو الآخر، إذ انسلتُ إلى المقصورة، وارتديت حذائي،

(١) Long Tom: مدفع السفينة.

وأخذت أول قنينة من النبيذ وقعت في يدي، ثم عدت إلى السطح والقنينة في يدي كعذر كافٍ على وجودي.

وجدتُ هاندز كما تركته، مستلقياً ومنكمشاً على نفسه، وقد أسدل جفنيه، كما لو أنه أضعف من أن يحتمل الضوء. ثم رفع نظره إليّ عندما اقتربت منه، وأخذ القنينة فكسر عنقها بمهارة خبير فعل ذلك مراراً، واحتسى جرعة كبيرة، بعد أن هتف بنخبه الأثير: «نخب الحظ!»، ثم استلقى ساكناً لوهلة، استلّ بعدها ضفيرة من التبغ، وترجّاني أن أقطع له منها مضغعة.

قال:

- هل لك أن تقطع لي منه مضغعة، فليست لدي سكين، وليست فيّ قوة كما كنت. آه يا جيم، يا جيم! أظن أنني أفلتت حبالى^(١)، فاقطع لي مضغعة كما لو أنها الأخيرة يا رفيقي، لأنني راحل وبلا شك إلى مثواي الأخير.

فقلتُ:

- حسناً سأفعل ما تريده وأقطع لك مضغعة تبغ، ولكنني لو كنتُ مكانك وكان الموت مدركي، لمضيت إلى خالقي مصلياً وتائباً كمؤمن مسيحي حقيقي.

قال:

- ولماذا؟ لماذا أفعل هذا؟

(١) missed stays: يعني اقترب حتفه.

فصحتُ به:

- أتقول لماذا؟ أو لم تكن تسألني قبل قليل عن الموتى. لقد خنت الأمانة وعشت في الخطيئة والأكاذيب والدماء، وها هو ذا أمامك رجل ملقى عند قدميك وقد قتلته، وما زلت تسألني لماذا؟ فلتسأل الله أن يرحمك يا سيد هاندز. هذا هو السبب.

كان في حديثي شيءٌ من العصبية والانفعال، إذ كنت أفكر بالخنجر الملوث بالدماء الذي أخفاه في جيب معطفه، وقد صمّم أن ينهي به حياتي. أمّا هو فقد شرب جرعة كبيرة من النبيذ، وتحدث بوقار لا عهد له به.

قال:

- لقد جبتُ البحار لثلاثين عاماً، شهدت فيها الصالح والطالح، الخير والشر، الطقس الصحو والفظيع، وشهدت المؤن تنفد، والسكاكين تُستل، وكلّ شيء. والآن دعني أخبرك بما خلصت إليه، لم أرَ فائدة تُجنى من الطيبة والخير حتى الآن. والفائز من يكون هو البادئ، فالموتى لا خوف منهم أن يعضّوا، وهذه هي نظرتي في الحياة، ولتكن مشيئته، آمين.

ثم أضاف وقد تغيّرت نبرته فجأة:

- والآن أصغ إليّ، فلتكفّ عن هذه الحماقات، فالمدّ في صالحنا، وعليك أن تتبّع أوامري يا قبطان هو كينز، لكي نبحر وننتهي من هذا الأمر.

عموماً، كان أمامنا بالكاد ميلان لنجتازهما، ولكن الملاحظة كانت دقيقة وحساسة، إذ لم يكن المدخل إلى المرسى الشمالي ضيقاً وضحلاً فحسب، بل كان يتعرج شرقاً وغرباً، لذا كان يجب التعامل مع السفينة بروية لكي تدخل. وأعتقد أنني كنتُ معاوناً جيداً ونيهاً، ومتأكداً من أن هاندز هو سائس ممتاز وحاذق، لأننا بقينا نمضي ونرواغ هنا وهناك، نسير بمحاذاة الضفاف، وكلنا ثقة وبراعة وإتقان، في مشهد يسرّ الرائي.

وما كدنا نجتاز القمم والرؤوس الصخرية حتى انطبقت اليابسة وأغلقت الطريق علينا. فقد كانت الأراضي المحيطة بالخليج الشمالي مؤلفة من غابات كثيفة تشبه تلك التي في المرسى الجنوبي، ولكن الطريق إليها كان أطول وأضيق، وأشبه ما يكون في حقيقته كمصب نهري. وأمامنا مباشرة في النهاية الجنوبية رأينا حطام سفينة في نهاية مراحل خرابها، ويظهر أنها كانت يوماً ما سفينة عظيمة ذات ثلاث صواري، ولكنها تُركت عرضة لعوامل الجو القاسية لزمّن طويل، حتى نبتت الحشائش عليها وحاكت السراخس البحرية حولها شبكات كبيرة معلقة، وافتُرش سطحها بشجيرات ساحلية أنبتت عليها جذورها، ثم أنّ هذه الشجيرات قد أزهرت حتى امتدت كبساط كثيف من الأزهار، لقد كان مشهداً حزيناً ولكنّه دليل أظهر لنا أن المرسى في حالة من السكون الطويل.

قال هاندز:

- والآن انظر! هنالك بقعة من الأرض وديعة وهادئة من أجل

أن نرسو بالسفينة عليها، وهي أرض رملية منبسطة، ليس فيها ولا حتى أثر لهبوب نسيم خفيف^(١)، الأشجار تحيط بها، والأزهار تتفتح عليها كما لو كانت حديقة على تلك السفينة القديمة.

فسألته:

- وكيف سنخرجها من هذا المكان بعد أن نرسو؟

فأجاب:

- ليس ذلك صعباً، عليك أن تأخذ جبلاً إلى الساحل من جانب الماء المنخفض، وتلقه حول واحدة من تلك الصنوبرات الكبيرة، ثم تعيده وتلقه حول الرحوية، وتنتظر المدّ. وعندما يرتفع الماء، سيقوم كلانا بجرّ الجبل، فتتحرك بوداعة ويسر. والآن يا فتى قف هناك وتيمّأ. فنحن قريبان من تلك البقعة.

ثم راح يصدر أوامره التي أطعتها دون أن أنبس بكلمة:

- أدرها إلى الميمنة قليلاً، اعتدل، إلى الميمنة أكثر. والآن إلى الميسرة قليلاً، اعتدل، اعتدل!

ثم إذا به يصيح بغتة:

- الآن يا فتى أدر الدفة باتجاه الريح!

أدرت الدفة بقوة، فاستدارت الهيسبانيولا بسرعة، حتى تقدمت بكل هيكلها إلى الساحل ذي الأشجار الصغيرة.

(١) Catspaw: أثر على سطح الماء بسبب هبوب نسيم خفيف.

ولقد شغلتنى حماسة وإثارة هذه المناورات الأخيرة حتى
أنستنى حذرى من سائس الدفة، الذى كنت قد أبقيت نفسى متيقظاً
منه حتى هذه اللحظة، إلا أننى كنت فى غاية اللهفة والترقب لأرى
السفينة ترسو، فنسيت الخطر الذى يحوم فوق رأسى، ومددت
عنقى من فوق حواجز الميمنة على السفينة أراقب الموجات تنتشر
وتتناثر على مقدمة السفينة. كنت سأطرح ميتاً غيلة، لولا أن هاجساً
انتابنى جعلنى أنظر إلى الخلف، وربما لم يكن ذلك هاجساً فحسب،
بل كأننى سمعت صوت قرقعة أو كأننى لمحت بطرف عينى ظلاً
يتحرك، وقد تكون ردة فعلى مجرد غريزة يقظة تشبه ما للقطط،
لكنى ما أن أدرت رأسى وإذا بهاندز متقدماً بنصف المسافة التى بينه
وبينى وخنجره فى يمينه.

وعندما التقت عيوننا أطلق كلانا صيحة، أما صيحتى فقد
كانت صرخة رعب، وأما صيحته فقد كانت هدير غضب وشراسة
وخوار مثل ثور هائج. فى اللحظة نفسها التى انقضّ فيها على،
قفزت أنا جانباً، وفيما فعلت ذلك، كنت قد أفلتت مقبض الدفة،
فانفلتت منى وانطلقت بسرعة، وأظن أن ذلك هو ما أنقذ حياتى،
إذ أنها أصابت هاندز فى صدره فأوقفته عند حدّه تماماً، بل أوقعته
هامداً بلا حراك.

وقبل أن يفىق من ضربته كنت قد فررت بأمان من الركن حيث
كان يحاصرني، وصار أمامى السطح كله لأراوغه فيه. توقفت أمام
الصارى الرئيسى وسحبت مسدسى من جيبي ثم صوّبت عليه
بإحكام حين كان قد اعتدل وانقض مرة أخرى نحوى، عندها

ضغطت على الزناد. وعلى الرغم من أنه سقط، إلا أنني لم أرَ وميضاً ولم أسمع فرقة نار، والسبب هو أن ماء البحر كان قد أتلف فتيل مسدسي، فلغنت نفسي على إهمالي، لماذا لم أذخر وأهين سلاحي من قبل؟ فعندها لن أكون في الموقف الذي أنا فيه الآن، مثل خروف فارّ أمام جزاره.

كانت سرعته في الحركة رغم إصابته تثير الدهشة، وكان شعره الرمادي الأشعث يتناثر حول وجهه الممتقع احمراراً كلون العلم البريطاني، لفرط سرعته في مطاردتي وشراسته وغضبه. ولم يكن أمامي وقت لأحاول مع مسدسي الثاني، بل لم يكن ثمة من داع لتجربته أصلاً، إذ كنت متأكداً من أنه هو الآخر كان بلا فائدة. فرأيت أن أمامي شيئاً واحداً لأفعله، وهو أن لا أراجع أمامه، وإلا فإنه سوف يحاصرني في المقدمة، كما فعل قبل قليل وحاصرني في المؤخرة. وحالما يمسك بي فإنه سيدخل في جسدي تسع بوصاتٍ أو عشراً من نصل خنجره الملطخ بالدم، وهذا سيكون آخر ما أراه في هذا الجانب من الحياة. فوضعت راحتي على الصاري الرئيسي الذي كان بحجم هائل وانتظرت بأعصاب مشدودة.

فلما رأني قاصداً مراوغته توقف بدوره هو أيضاً، ثم مرّت لحظة أو اثنتين كان كلّمنا أقدم على هجوم مباغت قمّتُ أنا باستجابة مناورة. كان الأمر مثل لعبة طالما لعبتها في ديارى بين صخور خليج البلاك هيل، بيد أنني ولا ريب لم ألعبها وقلبي يخفق فزعاً مثل هذه المرة، كما تتخيلون. ولكنها كما قلت كانت مجرد لعبة فتية ظننتني قد أصمد فيها أمام بحّار كهل بإصابة في فخذه كهذا الرجل. لذا

ازدادت شجاعتي، وتلاحقت الأفكار في ذهني في ما يمكن أن تكون عليه نتيجة هذه اللعبة، ورغم أنني رأيت أنّ بإمكانني أن أراوغ وأطيل الأمر، لكنني لم أر أمامي أي أمل بالخلاص.

وبينما استمرت الأمور على هذا المنوال لفترة، وإذا بالهيسبانيولا تضرب اليابسة فجأة وتتعرج على الأرض الرملية، ثم مالت بزاوية خمس وأربعين درجة حتى صعد الماء من فتحات التصريف وصارت هنالك بركة بسعة برميل، بين السطح وحاجز السفينة.

وفي ثانية واحدة كان كلانا قد انقلب، وتدحرجنا سوية حتى وصلنا إلى فتحات التصريف. كانت الجثة المتييسة لصاحب القلنسوة الحمراء بذراعيه المفتوحتين تتدحرج معنا. وكنت قريباً من سائس الدفة حتى أتى رأسي تحت قدمه فلطمني بقوة جعلت أسناني تصطك. ورغم لطمته، إلا أنني نهضت قبله، إذ أن هاندز أعاقته الجثة. وقد جعل ميلان السفينة السطح منحدرًا ولا يمكن العدو عليه، لذا كان عليّ أن أجد طريقة أخرى للهرب، وعلى الفور، إذ أن عدوي كان في إثري حتى أنه كاد أن يمسكني. وفي لمحة هرعت نحو الصاري الخلفي، وتسلفت جبال تثبيت الشراع يداً فوق يد، ودون أن ألتقط حتى نفساً، إلى أن صرت فوق زوج الدعامات المتقاطعة فوق الصاري.

ولم أنجُ إلا لكوني سريعاً، إذ كان هاندز قد ضرب بخنجره، ولم تكن بيني وبين الخنجر سوى مسافة قدم أسفل مني، وفيما كنت أتابع صعودي، كان عدوي يقف باهتاً تحتي فاغراً فاه ووجهه

مرفوع باتجاهي، فكان كما لو أنه قد استحال إلى تمثال من فرط دهشته وخيبته.

الآن، ها قد صار عندي متسع من الوقت، لذا لم أضيع الفرصة، فقامت باستبدال حشوة مسدسي، ثم بعد أن صار عندي سلاح جاهز، سحبت مسدسي الآخر وقمت بتهيئته لأضعف من الضمان. كان تصرفي هذا قد فاجأ هاندز تماماً، وصار يرى أن الحظ لم يعد حليفاً له، وبعد تردّد واضح قام بجبرّ نفسه على الحبال ليلاحقني، ثم شرع يتسلّق ببطء وقد وضع الخنجر بين أسنانه. وقد كلفه الصعود وقتاً وجهداً كثيراً وهو يئنّ من ألم إصابة ساقه التي كان يسحلها خلفه، فيما كنت قد انتهيت من تحضير سلاحيّ قبل أن يقطع ثلث المسافة صعوداً، ثم خاطبته وأنا أصوّب نحوه مسدساً في كل يد. قلت:

- خطوة واحدة زيادة وسأفجر رأسك يا سيد هاندز!

ثم أضفت بضحكة مكتومة ساخرة:

- فالموتى لا يعصّون كما تعلم!

توقف عن ملاحقتي من فوره. وكنت أرى من خلال تعابير وحركات وجهه أنه كان يحاول التفكير. ولكن التفكير بالنسبة إليه كان عملية مضيئة وبطيئة مما دفعني للضحك عالياً، وأنا متمكّن من موقعي الآمن الحالي. أخيراً وبعد أن ابتلع ريقه مرة أو اثنتين، نطق وعلى وجهه نفس ملامح الحيرة الشديدة. ولكي يتحدث كان عليه أن يخرج الخنجر من فمه، ولكنه ظل في مكانه بلا حراك. فقال:

- أعتقد أننا واقعان في ورطة يا جيم^(١). كما أعتقد أن علينا أن نبرم اتفاقاً. كنت لتقع في قبضتي لولا ميلان السفينة. ولكنني كما قلت لك سيء الحظ. لذا أظن أنني يجب أن أستسلم، وهذا أمر يشق على بحار عتيق مثلي أن يفعله أمام صبيّ مقصورات مثلك يا جيم^(٢).

كنتُ أبتلع كلماته، وأبتسمُ بتعالٍ طوال الوقت، وأنا رابض في مكاني كديك مغرور على حائط، وإذا به وقد مدّ يده اليمنى خلفه من فوق كتفه، ثم صفر شيء ما في الهواء كما لو كان سهماً، وشعرت بضربة ووخزة حادة، وهكذا وجدت نفسي مسمّراً من كتفيّ على الصاري. وفي خضم اللحظة تلك، بما تحمله من مفاجأة ورعب، أطلقت النار من كلا المسدسين، ولا يسعني أن أقول إنّ ردة فعلي كانت بمحض إرادتي، لأنني أطلقت النار دون عمد، ثم أفلت المسدسان من يديّ كلاهما. ولم يسقط السلاحان وحدهما، إذ أن سائس الدفة كان قد أفلت قبضته من جبال التثبيت، وأطلق صيحة مكتومة وهو يسقط في الماء رأساً على عقب.

(١) Fouled: وقع في ورطة، عندما يكون هنالك شيء يعيق الهدف عن المدفع. وهذا الاصطلاح استعمله هاندز لأنه كان يعمل مدفعيةً عند فلينت.

(٢) younker: شاب.

(٢٧)

قِطْعُ الثَّمَانِيَةِ

امتدت الصواري عالياً فوق الماء بسبب ميلان السفينة، ورأيت من مكاني فوق الدعامتين المتقاطعتين أنه لم يكن هنالك من شيء تحتي سوى سطح الخليج. أمّا هاندز، فلأنه لم يكن قد صعد كثيراً عندما لاحقني، فقد كان بالتالي أقرب إلى السفينة، وكان قد سقط بيني وبين حاجز السفينة. وقد طفا مرةً وعلى فمه رغوة من الدماء وزبد البحر، ثم أنه غطّ ثانية وإلى الأبد. وعندما هدأت الأمواج رأيت جسده مكوماً وراكداً في قعر البحر الرملي الصافي المضيء تحت ظل جانب السفينة. وقد كانت هناك سمكة أو اثنتان تسبحان إلى جانب جثته. كان يبدو لي أحياناً، وبسبب اهتزاز المياه، كما لو أنه يتحرك قليلاً، كأن يحاول النهوض، لكنّه كان ميتاً بالتأكيد، نظراً لإصابته بعيار ناري ثم غرقه، وها هو قد صار طعاماً للأسماك في نفس المكان الذي قرّر أن يقتلني فيه.

وما أن تيقنت من موته حتى شعرت بالغثيان والإعياء والرعب، فكان الدماء الحارة تسيل على ظهري وصدري، وقد اكتويت بالخنجر

الذي سمّرنى به من كتفي على الصاري، كما لو أنه قضيب حديدي ساخن، ورغم أنها آلام حقيقية إلا أنها لم تكن هي ما أقلقنتني، إذ كان بإمكانني أن أتحمّل إصابتي دون شكوى، لكنني عانيت من رعب احتمال سقوطي من فوق الدعامتين المتقاطعتين إلى المياه الراكدة الخضراء إلى جانب جثة سائس الدفة.

تشبّثت بقوة بكلتا يديّ حتى آلمتني أطافري، وأغلقتُ عينيّ وكأني بهذا أغطّي الخطر المحدق بي. ثمّ ثبتتُ إلى صوابي شيئاً فشيئاً وهدأت نبضات قلبي إلى حدّها الطبيعي، فصرت أتوتّى زمام أمري ثانية.

وكان أول ما تبادر إلى ذهني هو أن أنتزع الخنجر من كتفي، بيد أنني لم أفعل، إمّا لأنه كان مغروزاً بعمق في جسدي، أو لأن أعصابي خذلتني، فعدلت عن فكري وبقيت ارتجف بعنف. ومما يثير الغرابة أنّ ارتجافي هذا هو ما قام بالعمل عني، إذ أن الخنجر في الحقيقة بالكاد كان قد أصابني، فقد كان معلقاً بجزء بسيط من جلدي، فافترق بسبب من ارتجافي، وراح الدم يتدفق مني أسرع بالطبع، ولكنني تماكنت نفسي، وأضحيتُ معلقاً بالصاري من معطفي وقميصي فقط.

ثمّ أنّني أفلتتُ من هذين بجرة عنيفة وسريعة، وعدت إلى موضعي على السطح بواسطة حبال تثبيت الشراع على ميمنة السفينة. فليس ثمّة من شيء في العالم كلّه سيدفعني لأن أجازف بالنزول بواسطة حبال الميسرة المتزعزعة التي سقط منها إزريال قبل قليل، خاصة وأنا على حالتي تلك من الارتجاف والضعف.

ثم نزلت إلى الأسفل وفعلتُ ما بوسعي أن أفعله من أجل
تضميد جرحي، ورغم أنه كان يؤلمني بشدة، ويزف بغزارة، إلا
أنه لم يكن جرحاً غائراً ولا خطيراً، ولم يعقني أو يؤذي كثيراً عندما
كنت أحرك ذراعي. ثم تطلعت من حولي، وبما أن السفينة بمعنى
أو بآخر، قد صارت الآن بحيازتي، فقد خطرت لي أن أخليها من آخر
ركابها، أعني بذلك أوبراين، الرجل الميت.

كان أوبراين قد انقذف كما قلت سابقاً إلى حاجز السفينة، حيث
استقر هناك ممدداً مثل دمية بحجم إنسان، مرعبة وبشعة. ولكن ما
أشدّ اختلاف لونه عن لون الحياة، وهيأته عن حياة الإنسان الحي
الطبيعية النضرة! فكان وهو في وضعه ذلك يسهل عليّ التعامل معه،
وبما أن الطبيعة المأساوية لمغامراتي قد بددت فيّ كلّ رعب من الموتى،
فأنني رفعت من وسطه كما لو كيساً من النخالة، وألقيته بدفعة واحدة
شديدة إلى البحر، وقد أحدثت سقطته دويّاً ملحوظاً، فيما راحت
قلنسوته الحمراء التي نُزعت عن رأسه تطفو على وجه الماء، وبعد
أن هدا الماء من تأثير سقوطه، رأيت وإزريال وهما مطروحان جنباً
إلى جنب في قعر البحر، وكلاهما يتمايل مع حركة الماء. كان أوبراين
أصلع، رغم أنه كان شاباً. وها هو ذا قابع برأسه الأصلع على ركبتي
الرجل الذي قتله، فيما راحت الأسماك تسبح حولها جيئةً وذهاباً.

أضحيت الآن وحدي على السفينة، وبدأ المدّ يتراجع، وكانت
أمام الشمس بضع درجات قبل أن تغرب، حتى أن أشجار الصنوبر
على الساحل الغربي بدأت بمدّ ظلها عبر المرسى، وصارت تعكس
أنباطاً وأشكالاً من تلك الظلال على سطح السفينة. ثم هبّ نسيم

المساء، ورغم أنّ التلّ ذا القمتين كان يصده من الجانب الشرقي، إلا أن أمّراس السفينة بدأت تغني بهدوء على وقع نسباته، وصارت الأشرعة الحاملة ترفرف إلى الأمام والخلف.

بدأت أرى الخطر المحدق بالسفينة، وأسرعت في إنزال الأشرعة الأمامية الصغيرة فتدحرجت إلى السطح، ولكن إنزال شراع الصاري الرئيسي لم يكن بالأمر الهين، إذ عندما مالت السفينة فبال تأكيد كان الصاري قد تدلّى إلى الخارج جهة البحر، حتى غطس في الماء طرفه ونحو قدم أو قدمان من شراعه. واعتقدت أن الأمر كان خطيراً بدرجة ما، إلا أنّ الضغط والميلان كانا شديدين لدرجة أنني خشيت أن أتدخل لإصلاحه. وفي النهاية استللت سكينتي وقطعت حبل الراية، فهوت القمة مباشرة، وطفأ جزء كبير من الشراع المنتفخ على الماء، وقد كان هذا أقصى ما باستطاعتي إنجازه، إذ أنني مهما حاولت ما بوسعي من قوة لأسحب، لم أستطع أن أزحزح حبل الصاري، وهكذا صار عليّ أن أعوّل على الحظ في أمر الهيسبانيولا، وأسلمّ أمري.

في هذا الوقت كان الظلام قد لفّ المرسى بأكمله، وما زلت أتذكّر مرأى آخر شعاع وهو يسقط من خلال فرجة بين أشجار الغابة، ويتلألأ كالجواهر على بساط الأزهار الممدود فوق السفينة المحطمة. بدأت أشعر بالبرد، وكان الماء يتراجع بسرعة أثناء الجزر باتجاه البحر، وأخذت السفينة تركد أكثر وأكثر على قعرها^(١).

(١) beam-ends: عندما تكون السفينة راسية على اليابسة لدرجة أن عوارضها تصير عمودية تقريباً، أو يصبح حاجزها البعيد عن الريح مغموراً تحت الماء.

تسلّقت إلى الأمام وتطلّعت من فوق، فبدأ الماء ضحلاً بما فيه الكفاية، وهكذا أمسكتُ بكلتا يديّ بحبل المرساة الضخم المقطوع كضمانة أخيرة لسلامتي، ثم نزلت بهدوء من فوق حافة السفينة. فوجدت الماء بالكاد يصل إلى خصري، وكان الرمل متماسكاً وتعلوه آثار الموجات، فخوّضت إلى الشاطئ بهمة عالية، وقد تركت الهيسبانيولا خلفي مائلة على جانبها، وصار بها الرئيسي يمتدّ عريضاً فوق سطح الخليج. كانت الشمس قد غربت في هذه الأثناء، وأخذّ النسيم يصفر بروية بين أشجار الصنوبر المتمايلة في الغسق.

وأخيراً تركتُ البحر لكنني لم أعد خالي الوفاض، فها هي السفينة هناك وقد خلّصتُها من القراصنة، جاهزة لكي يركبها رجالنا ويعودوا بها إلى عرض البحر. ولم تكن هناك من رغبة أقرب إليّ من العودة إلى الحصن والتباهي بإنجازي. ولربما ألام قليلاً على غيابي، إلا أنّ استعادة الهيسبانيولا ستكون عذراً قاطعاً ووافياً، حتى أنني كنت آمل بأن قبطان سموليت نفسه سيعترف بأنني لم أضيع وقتي سدى.

وهكذا استغرقتُ في التفكير بتلكم الخواطر، وبهمة عالية وليت وجهي شطر الحصن حيث رفاقي. وتذكرت أن معظم الأنهار الشرقية التي تصب في مرسى القبطان كيد، تنبع من المرتفع ذي القمّتين على يساري، لذا قصدت ذلك الاتجاه وفي نيتي أن أعبر الجدول بينما لا يزال ضيقاً. كانت الغابة مفتوحة على اتساعها أمامي، فسرت بمحاذاة الحافة السفلية للمرتفع، وسرعان ما وصلت إلى

زاويته، ولم يطل الأمر حتى شرعت أخوض في الماء الواصل إلى
ركبتي لأعبر النهر.

كان طريقي قد قادني بالقرب من المكان الذي صادفت فيه بين
غان، الرجل الماروني، وسرت بحذر أكبر، وأنا أراقب كل جانب من
الطريق. وقد حلّ الغسق، وما كدت أشرف على الشق بين القمتين،
حتى لاح لي ضوء ينوس في الأفق الممتد أمامي، وخننت أن رجل
الجزيرة كان يطبخ عشاءه على نار متأججة. كنت قد تساءلت في نفسي
متعجباً، كيف له أن يكشف عن موقعه هكذا دون مبالاة ولا حذر،
فها دمت أرى وهج ناره من هذا البعد، أفلا يعني ذلك أن سيلفر أيضاً
كان يرى الوهج من معسكره على الساحل بين المستنقعات؟

راح الليل يزداد حلكة وظلاماً شيئاً فشيئاً، فكان كل ما استطعت
فعله هو أن أتلمس طريقي إلى وجهتي قدر استطاعتي، فقد كان
المرتفع ذو القمتين خلفي، وقمة تل السپاي غلاس على يميني وقد
راحت تزداد خفوتاً وضآلة، وبضع نجوم تلوح في السماء شاحبة
وقليلة العدد، ورحت في مسيري بتلك الأرض المنخفضة، تارة أتعثر
بين الأجمات وتارة أتدحرج إلى الحفر الرملية.

ثم فجأة وإذا بوهج ساطع يسقط فوقني، وعندما نظرت إلى
الأعلى، كان هناك وميض شاحب من أشعة القمر قد أضاء قمة تل
السپاي غلاس، وبعد هنيهة رأيت جسماً فضياً وكبيراً يتحرك خلسة
خلف الأشجار، فأدركت أن القمر يبرز.

الآن وقد صار عندي ضوء ليدلني على طريقي، اجتزت بسرعة

ما كنت أظنّه باقي رحلتي، فتارة أمشي، وتارة أركض، حتى اقتربت من الحصن وقد نفذ صبري. ومع ذلك، فعندما بدأت أشقّ طريقي في الأجمة التي تقع أمام الحصن، لم يغب عن تفكيري أنني لربّما سأقتل عن طريق الخطأ بنيران رفاقي وستكون نهاية مأساوية لمغامرتي، لذا أبطأت من وتيرتي ورحت أمشي بحذر.

كان القمر يتسلّق أعلى فأعلى، حتى لكأنّ ضوءه ينتشر هنا وهناك ويسطع على المناطق المفتوحة الواسعة في الغابة، وأمامي مباشرة بين الأشجار كان هناك قبسٌ من ضوء بلون مختلف، بدا أحمر متوهّجاً، وبين الحين والآخر كان يعتم قليلاً، كما لو كان جمرات في موقد وقد بدأت تجبو. وأقسم بحياتي أنني ما استطعت أن أدرك كنه هذا الشيء! ولما بلغت أخيراً حدود المساحة مقطوعة الأشجار حول الحصن. كان القمر قد أغرق بنوره طرفها الغربي، أمّا الأطراف الأخرى، والحصن نفسه، فقد بقيت في ظلام تتخلله خيوط من الأشعة الفضية. وفي الجانب الآخر من الحصن كانت هناك نار عظيمة وقد تحوّلت إلى جمرات صافية عكست ضوءاً أحمر ثابتاً، بتناقض تامّ مع الشحوب الكئيب للقمر. ولم يكن هناك من أثر لأي أحد، ولا حتى أي صوت عدا صوت النسيم.

توقفت وفي قلبي تساؤل وعجب، وربّما قليل من الفرع أيضاً. فلم نعتد على إضرام نيران كبيرة مثل هذه، إذ كنا بأوامر من القبطان شحيحين إلى حدّ ما في كمية الحطب التي نضعها في النار، لذا خشيت أن يكون قد حدث خطب ما أثناء غيابي.

فتسللت من الطرف الشرقي، وحرصت على البقاء في الظلال،
ومن مكان مناسب أكثف عتمة وحلكة، عبرت السور.

وزيادة في الضمان، جثوت على ركبتيّ ويديّ، وزحفت بهدوء
شديد إلى ركن من المأوى الخشبي. وفيما اقتربت اجتاحت قلبي
بهجة مفاجئة، فلم يكن ما سمعته صوتاً جميلاً بحد ذاته، فطالما
تذمّرت منه في ما مضى، ولكن هذه المرة كان صوت شخير رفاقي
وهم يغطون في نوم عميق وآمن كوقع الموسيقى إلى أذنيّ. حتى أن
وقع العبارة الجميلة «كل شيء على ما يرام» التي يطلقها صوت
الحارس في نوبة المراقبة على السفينة، لم تبدُ أجمل ولا أكثر دعةً، ولا
أحبّ إلى أذنيّ من هذا الصوت.

في الوقت نفسه تبين لي بما لا يقبل الشك أنهم لم يكونوا
حريصين في نوبة المراقبة. فلو كان سيلفر أو أحد صحبه هو الذي
تسلّل الآن إليهم، فلن يشهد ولا واحد منهم فجر اليوم التالي. ثم
خطر في بالي أنّ ما يحصل من الإهمال كان بسبب إصابة القبطان،
وعدت إلى تقرير نفسي لتركهم في هذا الخطر وهم قلّة لا يمكنهم
تأمين الحراسة.

في هذه الأثناء كنت قد وصلت إلى الباب ووقفت، ورأيت أن
المكان كان معتماً حتى أنّه لم يكن بإمكانني تمييز أي شيء بعينيّ. أمّا
الأصوات، فكان هناك الشخير المتتابع المستمر الثابت، وبين الحين
والآخر تصدر جلبة متقطعة، كصوت تقلّب أو صوت نقرات لا
يمكن تمييزها ولا تحديدها بأية حال.

دخلتُ بهدوء وكنت أمدّ ذراعيّ أمامي أتلمّس المكان من حولي، ففكرت مع ضحكة مكتومة أنني ربما سأنام في فراشي، وأتمتع بمنظر وجوههم المتفاجئة عندما يجدونني في الصباح.

لكن قدمي خبطت شيئاً لينا، وكان قدم أحد النائمين، فاستدار وتأوه، ولكنه لم يستيقظ من نومته.

ثم فجأة ودون سابق إنذار، انطلقت صرخة حادة من قلب العتمة، وظلت تردد:

- قِطْعُ الثمانية! قِطْعُ الثمانية! قِطْعُ الثمانية! قِطْعُ الثمانية! قِطْعُ الثمانية!

وهكذا توالى الصرخات دون انقطاع أو تغير، كما لو كانت صوت طاحونة صغيرة رتيبة.

ولم يكن ذلك سوى القبطان فلينت، ببغاء سيلفر الأخضر! وكان الصوت الذي سمعته ولم أميزه هو صوت نقراته على لحاء الشجر، وكان هو الحارس الحريص أكثر من أي إنسان في مكانه، وكان هو من أعلن عن وجودي بتلك اللازمة الرتيبة.

ولم يكن أمامي متسع من الوقت لأستفيق من الصدمة. فقد استيقظ النيام وانتشروا على صرخات الببغاء الحادة السريعة المتتالية، فصاح سيلفر وقد أطلق لعنة كبيرة:

- من هناك؟

فاستدرت محاولاً الهرب لكنني ارتطمت بشخص كان يقف

أمامي، ثم تراجع وركضت في اتجاه آخر ووقعت بين يدي شخص
آخر، قام من فوره بإحكام قبضته عليّ.

وعندما تأكد لدى سيلفر وقوعي في الأسر صاح:

- أحضر مشعلاً يا ديك.

فهرع واحد منهم خارج المأوى الخشبي وسرعان ما عاد وفي
يده مشعلٌ.

الجزء السادس

القبطان سيلقر

في معسكر الأعداء

أضواء وهج المشعل الأحمر داخل المأوى الخشبي، فرأيت أسوأ
مخاوفي تتحقق، إذ أنّ القراصنة كانوا قد استولوا على الحصن والمؤن،
وكان هناك برميل من شراب الكونياك، ولحم الخنزير والخبز، مثلما
حدث في السابق، وما ضاعف من خوفي عشرة مرات أنه لم تكن هناك
آية إشارة على وجود أسرى، فلم أستطع أن أتخيل سوى أنهم هلكوا
جميعاً، وعندها عصرتني قلبي ألماً لأنني لم أكن موجوداً لأموت معهم.

كان هنالك ستة من القراصنة، ولم يبق غيرهم أحياء. كان
خمسة منهم واقفين على أقدامهم، محمريّ الوجوه ومنتفخين، وقد
أوقفوا بعتة من نومهم المبكر بتأثير الشمالة، أما سادسهم فلم يستطع
النهوض واكتفى بالاتكاء على مرفقه وكان يعلو وجهه شحوب
الموت، وقد شدّ رأسه بضادة ملوثة بالدماء تدلّ على أنه أصيب في
وقت قريب، ولم يُعالج إلا مؤخراً. فتذكرت الرجل الذي أصيب
بعيار ناري في الهجوم الكبير وولّى مدبراً بين الغابات، ولم يخامرني
شك من كونه نفس الرجل.

جلس البيغاء وهو يجمل ريشه بمنقاره على كتف جون الطويل.
وقد بدا سيلفر نفسه أكثر شحوباً وأكثر عبوساً مما اعتدت على رؤيته.
كان لا يزال مُرتدياً بدلة الجوخ الأنيقة التي بدأ فيها مهمته، إلا أنها
بدت في أسوأ أحوالها، فقد تلطخت بالطين وتمزقت بالأشواك
والأطراف المدببة للأحراش والنباتات.

قال:

- ها هو ذا جيم هو كينز بحد ذاته! فلترتعد أخشابي! إنه بيننا،
آه، حسناً، أنا سأخذ قدمك هذا على محمل الصداقة والود.
عندها جلس على برميل البراندي ثم أخذ يملأ غليونه.

ثم قال:

- إليّ بالمشعل يا ديك!^(١)

ثم أنه لما أشعل غليونه قال:

- هذا كل شيء يا فتى، أعد المشعل إلى كومة الحطب في الموقد.
وأنتم يا سادتي، خذوا راحتكم، فليس عليكم النهوض من
أجل السيد هو كينز، فهو سيأذن لكم بالجلوس، يقيناً.

ثم أردف وهو يحشو غليونه بالتبغ:

- حسناً يا جيم، ها أنت ذا، يا لها من مفاجأة سارة للعجوز
المسكين جون. لقد ظننتك فتى ذكياً عندما قابلتك أول مرة،
ولكن سلوكك هذا غير من رأيي فيك.

(١) Link: مشعل مصنوع من نسالة كتان وشيء من القار.

فلم أجه على أي شيء مما قال، كما تفترضون. كانوا قد وضعوني مستنداً بظهري إلى الجدار، فوقفت في مكاني أهدق في وجه سيلفر، وكنت أمل أن أبدو بمظهر الشجاع لمن يراني، ولكن في الحقيقة كان القنوط قد لفّ قلبي بظلامه.

جرّ سيلفر نفساً أو اثنين من غليونيه بهدوء كبير، ثم استأنف حديثه:

- والآن يا جيم بما أنك هنا، فسأقول لك بعضاً مما يدور في خاطري؛ لطالما أعجبت بك، فأنت فتى ذو همّة عالية، وإني لأرى فيك صورتي عندما كنت شاباً وسيماً. وتمنيت لو أنك انضمت إلينا فتأخذ حصتك مثلنا ثم تموت كرجل نبيل. الآن يا ديكي^(١)، عليّ أن أعترف أن القبطان سموليت هو بحار من الطراز الأول، لن أنكر هذا يوماً، لكنّه صارم، وهو يردّد دائماً: «الواجب واجب» وإنه على حق، وليكن هذا واضحاً عندك بشأن القبطان. أما الطيب فقد غضب منك وقال عنك: «مخادع وجاحد»، والخلاصة هي أنه لم يعد بإمكانك العودة إلى رفاقك، لأنهم لن يقبلوا بك بينهم. ودون أن تكون مجموعة ثالثة لا تضم أحداً سواك، لا مفر من أن تنضم للقبطان سيلفر.

(١) my cock: ذكر الدجاج، وهنا استخدم سيلفر الكلمة لتدل على معنى قائد أو زعيم، يمتدح جيم بأنه شجاع وجريء، على اعتبار أن جيم قد أخبره للتو بأنه استولى على السفينة وقضى على هاندز.

سررت لما سمعته حتى الآن، إذ أن هذا يعني أن رفاقي ما زالوا على قيد الحياة، ورغم أنني كنتُ قد صدقت شيئاً مما قاله سيلفر، عن كون عصابة المقصورة كانوا غاضبين مني لأنني تغيّبت عنهم، لكنني شعرت بالارتياح أكثر من الضيق بما سمعته من أخبار.

تابع سيلفر قائلاً:

- أنا لن أقول شيئاً عن كونك بين أيدينا، ولكن، ها أنت ذا هنا. أنا رجل يحب التحاور، إذ لم أسمع يوماً بنتيجة طيبة أتت من التهديد قط، فإذا كنتَ قد استطبت الأمر فانضم إلينا، وإذا لم تفعل فلديك كامل الحرية بأن تقول لا يا جيم، ليس ذلك وحسب، بل أنت على الرحب والسعة يا رفيقي، ولست أحسب بخاراً سيقول ما هو أكثر إنصافاً من الذي قلته، وإلا فلترتعد أخشابي!

وكان قد حرص على أن يُشعِرني طوال هذا الحديث الساخر، بأن الموت يتربص بي، فصارت وجنتاي تستعران حرارة وشعرت بقلبي يقرع في صدري بألم. لذا سألت بنبرة مرتجفة:

- هل لي أن أجيب إذن؟

فقال سيلفر:

- لا أحد يضغط عليك يا فتى، هوّن عليك، ما من أحد هنا يستعجلك يا رفيقي. والوقت يمر طيباً برفقتك كما ترى.

أجبهته وقد تشجعت قليلاً:

- حسناً، إذا كان لي حق الاختيار، فينبغي أن أعرف كل ما حدث، لماذا أنتم هنا، وأين أصحابي؟
قال أحد القراصنة مزجراً:

- أتريد أن تعرف ما حدث، ها؟ سيكون محظوظاً من يعرف ذلك!

فصاح سيلفر بعدوانية على هذا القرصان:

- عليك أن تحشو فمك^(١) وأن لا تتحدث قبل أن يوجّه إليك الحديث يا صاحبي.

ثم التفت وقال لي بنبرة ودودة تشبه تلك التي عرفتتها منه في البداية:

- جاء الطبيب ليفزي وييده راية هدنة صباح أمس أثناء نوبة الحراسة المسائية^(٢). فقال لي: «أيها القبطان سيلفر، لقد غدروا بك، والسفينة أقعلت». ربما كنا وقتها نحتمي الشراب، ولربما كنا نغني، لن أنكر إهمالنا في مراقبة السفينة. ولكننا عندما نظرنا إليها، يا للرعْد كانت السفينة قد اختفت. ولم أر في حياتي مجموعة من الحمقى يبخلقون بعيون مفتوحة على

(١) batten down your hatches: أن تحشى أو تُسدّ فتحات السفينة بالقماش استعداداً لعاصفة، وببساطة هنا فإن سيلفر يعني أغلق فمك.

(٢) dog-watch: نوبة حراسة قصيرة تمتد من الرابعة مساءً إلى السادسة مساءً، ومن السادسة مساءً إلى الثامنة مساءً. وبحسب نسخة أوكسفورد من الرواية التي قدمها وحررها بيتر هانت، فإن الكاتب كان على خطأ، لأنه الطبيب قدم صباحاً.

اتساعها من شدة الصدمة أكثر من هؤلاء، وأخبرك أنني كنت أشدهم مفاجئة، يقيناً. قال لي الطيب: «فلتفاوض» وهكذا تفاوضنا، أنا وهو، وها نحن ذا أمامك بحوزتنا المؤن والبراندي والمأوى الخشبي والحطب الذي تكبدتم متلطفين عناء احتطابه وجمعه، وبمعنى آخر، ها هي السفينة المباركة بما حملت في حوزتنا من العمودين المتقاطعين إلى نصلها الغائر^(١)، أما بالنسبة لهم فقد رحلوا ولا أعرف إلى أين.

ثم راح يدخن غليون بهدوء مرة أخرى.

أردف قائلاً:

- وخشية أن تضع في حسابك أنك مشمول بالمعاهدة، فسأخبرك بأخر ما دار من حديث. كنت قد سألت الطيب: «ما عدد من سيغادرون منكم»، فأجابني: «أربعة، وواحد منا مصاب، أما بخصوص ذلك الفتى، فلا علم لي بمكانه، ولا أعبا بأمره حتى، فقد سئمنا منه، تبأله»، هذه كانت كلماته.

سألتُ:

- أهذا كل شيء؟

فأجاب سيلفر:

(١) cross-trees to keelson: من أعلى إلى أدنى جزء في السفينة. العمودان المتقاطعين هما أعلى نقطة في السفينة، ويقعان أعلى الصاري الرئيسي، keelson هو الهيكل الداخلي، الأضلاع أو العوارض الخشبية في السفينة التي تمتد بموازية لنصلها الرئيسي وتزيد من متانة الهيكل.

- حسناً، هذا كل ما عليك أن تعرف بشأنه يا بني.

- والآن عليّ أن أختار؟

- والآن عليك أن تختار، يقيناً.

فقلتُ:

- حسناً، أنا لست بأحمق وإني أعرف تماماً ما ينبغي عليّ فعله. وليكن ما يكون، فلا يهمني ذلك، فقد رأيت الكثيرين يموتون منذ أن صرت بينكم.

في هذا الوقت كانت قد تصاعدت حماسي ورحت أقول:

- ولكن عندي مسألة أو مسألتان أودّ أن أذكرهما، أولاً: أنتم في وضع سيء، فقد فقدتم سفينتكم، وضيّعتم كنزكم، وخسرتم رجالكم، وقد ذهب كل ما عملتم لأجله أدراج الرياح. ولو أردتم أن تعرفوا من الذي كبدكم كل تلك الخسائر، فذلك هو أنا! فقد كنتُ في برميل التفاح في الليلة التي وجدنا فيها الجزيرة، وقد سمعت حديثكم أنت يا جون، وأنت يا ديك جونسون، وهاندز أيضاً، الذي صار الآن في قاع البحر، وقبل أن تمرّ ساعة كنت قد أخبرت أصحابي بكل كلمة من حديثكم. وأما السفينة، فأنا من قطعت جبل مرساتها، وأنا من قتلت الرجلين اللذين وضعتها لحراستها، وأنا الذي وضعتها حيث لن تروها بعد أبداً، ولا أي واحد منكم سيستدل عليها. لقد انقلب الأمر عليكم وأنا من سيضحك

الآن، فقد كنت مُلماً بكل ما يحدث منذ البداية، ولن أخافكم بعدُ أكثر من خوفي من ذبابة، سواء أقتلتموني أم عدلتم عن قتلي، ولكنكم إن عفوتم عني، فعندي شيء واحد لأقوله لكم ولا أزيد عليه، سنطوي الماضي وما فات قد فات، ولا بدّ يا رفاق من أنكم ستقفون يوماً بين يدي المحكمة بسبب أعمال القرصنة، وعندها سأبذل ما بوسعي لإنقاذكم. الخيار لكم، فإن أنتم قتلتموني فأية فائدة ستجنونها من مقتل شخص آخر، ولكنكم إن عفوتم عني فسيبقى عندكم شاهد سينقذكم يوماً من المشانق.

ثم أنني أمسكت عن الكلام لبرهة، ولأخبركم بالسبب، فقد كان ذلك لأن أنفاسي انقطعت لا غير، وقد دهشت عندما رأيتهم مسمرين في أماكنهم، محدقين في كالنجاج. وفيما هم ما زالوا محدقين عدت لحديثي ثانية:

- والآن يا سيد سيلفر، أعتقد أنك أفضل رجل هنا، وإذا سارت الأمور إلى الأسوأ، فأحسب أنك ستخبر الطبيب كيف مضيتُ إلى حتفي.

فقال سيلفر:

- سأحفظ ذلك في ذهني.

وقد قال قوله ذلك بنبرة شديدة الغرابة فلم أُميّز، حتى لو كانت حياتي متوقفة على ذلك، ما إذا كان يسخر من طلبي أم كان معجباً بشجاعتي.

صاح مورغان، وهو البحار العجوز ذو اللون الماهو غني، الذي كنتُ قد رأيته في حانة سيلفر الطويل، على أرصفة بريستول، قائلاً:
- وسأضيف على ذلك شيئاً آخر، إنه هو من تعرّف على بلاك دوغ.

أضاف طبّاخ السفينة:

- حسناً، انظر، وأنا سأزيد على قولك قولاً، بحق الرعد! إنه نفس الفتى الذي سرق^(١) الخريطة من بيبي بونز. وخلاصة الأمر هي أننا منقسمون بشأن جيم هوكينز!
فقال مورغان وقد أطلق لعنة:

- إذن هذه هي نهايته!

ثم استل سكينه وانقض بسرعة كما لو كان في العشرين من عمره.

فصاح به سيلفر:

- قف عند حدّك! من تحسب نفسك يا توم مورغان! أوظنت نفسك القبطان هنا؟ إني بحق السماء لملقنك درساً لن تنساه. خالف أمري ولسوف يصيبك ما أصاب رجالاً آخرين، أفضل منك، سبقوك إلى نفس النهاية، من أولهم إلى آخرهم، وطوال ثلاثين عاماً، بعضهم سُنقوا على أذرع الصواري،

(١) Faked: سرق.

وبعضهم مشوا معصوبي الأعين على ألواح السفن، إلا أنهم
كلهم صاروا طعاماً للأسماك، ولترتعد أخشابي! فلم يسبق
لرجل أن تحداني وعاش ليرى اليوم التالي، يقيناً، يا تيم
مورغان!

توقف مورغان ولكن ارتفعت دمدمات من الآخرين، فقال
أحدهم متذمراً بصوت أجش:

- إن توم على حق.

وقال آخر:

- لقد تلقيت من الإهانات والسخرة ما يكفيني من واحد،
ولأمتُ شتقاً لو قبلت بأن تهينني أنت أيضاً يا جون سيلفر.

فانحنى سيلفر من موضعه على البرميل، وما زال الغليون
يشتل في يده اليمنى، وزأر فيهم قائلاً:

- هل يرغب أي واحد منكم أيها السادة بمواجهتي؟ فلتضعوا
اسماً لما أنتم فاعلين، فلست أظنكم بخُرس، تحدثوا. ومن
يريد منكم مواجهتي فسيكون له ما أراد. أو عشتُ هذه
السنين كلها حتى يأتي في آخر عمري ابن برميل روم كهذا،
فيتحداني؟^(١) وبحسب ما أراه، أنتم تعرفون طريقتنا في تسوية
الأمر، فكلكم سادة الحظ، وأنا مستعدّ لذلك، فليأخذ من

(١) cock his hat athwart my hawse: الترجمة الحرفية هي: يميل قبعته عكس
مرساتي، أي يهينني في وجهي أو يتحداني أو يعارضني.

يتجرأ منكم قطلساً، وأنا من على عكازي سأبقر بطنه حتى
أرى لون أحشائه، وقبل أن ينفد ما في هذا الغليون من تبغ.
فلم يتحرك أحداً أو يُجيب.

ثم أعاد سيلفر غليونه إلى فمه وأضاف قائلاً:

- هذا هو صنفكم من الرجال أليس كذلك؟ مرآكم يسرّ
الناظر، إلا أنكم غير جديرين بالقتال. ولربما ستفهمون لو
حدثتكم بإنجليزية الملك جورج؛ أنا قبطان بالانتخاب، أنا
قبطان لأنني أفضل بحار من هنا إلى مسافة ميل بحري. فإذا
لم تقاتلوا كما يجب على سادة الحظ أن يفعلوا، فعليكم بحق
الرعد طاعتي! يقيناً! أنا معجب بذلك الفتى هناك، فلم أر
صبيّاً أفضل منه قط، فهو أكثر رجولة من أي زوج فتران
منكم في هذا المكان. وسأقول لكم شيئاً واحداً فقط، دعوني
أرى واحداً منكم يجرؤ على أن يمدّ يده على هذا الفتى بسوء،
يقيناً، فقط دعوني أرى واحداً منكم يجرؤ على ذلك.

أعقب ذلك صمت استمر لفترة طويلة. كنت واقفاً على
الجدار، وما زال قلبي يقرع كمطرقة ثقيلة، بيد أن بارقة من الأمل
بدأت تضيء في صدري. أما سيلفر فقد اتكأ بظهره على الجدار،
مكتوف الذراعين، وغليونه في زاوية فمه، ساكناً ومطرقاً كما لو كان
في كنيسة، ولكن عينيه كانتا تنتقلان بسرعة في ما حوله، وكان يُبقى
طرف ناظره خلسة على كل واحد من أتباعه الذين بدوا جاحمين
صعبي المراس. وقد انسحبوا تدريجياً وتجمعوا في الطرف البعيد من

الحصن، ولم يفتأ الهمس الخفيض المستمر لحديثهم يصل مسامعي طوال الوقت، كما لو أنه خرير جدول جارٍ. وكانوا يرفعون نظرهم واحداً تلو الآخر، فيسقط الوهج الأحمر للمشعل للحظة على وجوههم المتوترة العصبية، وكنت أرى أنهم لم يكونوا يحدقون بي، وإنما بسيلفر.

علّق سيلفر وهو يبصق بعيداً:

- يبدو أن لديكم الكثير لتقولوه، فإما أن تفصحوا حالاً عما عندكم أو ستندمون.

فأجاب واحد منهم:

- من بعد إذنك يا سيدي، عليك أن تتساهل في بعض القوانين، ولربما، من فضلك، تتشدد في الأخرى. فإن هذا الطاقم مستاء، ولا يقبل الإهانة ولو بمقدار إبرة مارلين^(١)، ولهذا الطاقم حقوق مثل غيره من الطواقم، واسمح لي بحرية القول، إنه واستناداً إلى قوانينك، أن بإمكاننا التشاور مع بعضنا. فنحن، وأسألك العفو يا سيدي، نعتزف بكونك قبطاناً علينا في الوقت الحاضر، ولكنني ورفاقي نطالب بحقنا في أن نخرج ونعقد مجلساً للتشاور في ما بيننا.

وبعد تحية بحرية نظامية مسهبة، توجه هذا الرجل نحو الباب

(١) marlin-spike: أداة معدنية مدببة يستخدمها البحارة لفصل خيوط الخبال عندما يريدون وصلها بجبل آخر. ولربما كانت تلك التسمية تعود إلى أسماك المارلين، وهي من رتبة الرمحيات، التي تمتاز بوجود رمح أو إبرة في مقدمة فمها.

ببرود وغادر المنزل مختفياً، وقد كان رجلاً طويل القامة مصفر العينين، قبيح المنظر، بعمر الخامسة والثلاثين، ثم حذا الجميع حذوه الواحد تلو الآخر، وكان كل واحد منهم يؤدي تحية نظامية بحرية عندما يمرّ، ثم يضيف تعليقاً كاعتذار، فقد قال أحدهم: «حسب القوانين والأنظمة»، وقال مورغان: «مجلس شورى طاقم مقدمة السفينة»، وهكذا كانوا جميعهم قد خرجوا^(١) وبقيت أنا وحدي مع سيلفر والمشعل.

فتزع طبّاخ السفينة في الحال غليونه من فمه. ثم قال بصوت هامس بالكاد كان مسموعاً لأذني:

- انظر هنا الآن يا جيم هوكينز، فليس بينك وبين الموت سوى مسافة نصف لوح خشبي، ويا له من مشهد طويل من العذاب. سوف يطيحون بي، ولكنّي، ولتضع هذا في حسابك، سأقف معك في الشدة والضعف، ولم أكن بفاعل ذلك حتى قلتَ ما قلته. أنا على وشك أن أخسر كل شيء وفوق ذلك سأسنتق. ولكني عندما رأيت طبيعتك النزيهة الخيرة، قلت لنفسي: «قف في صف هوكينز يا جون، وهوكينز سيقف في صفك بالمقابل، فأنت ورقته الرابعة الأخيرة،

(١) all marched out: في تعليق في نسخة أوكسفورد ورد التوضيح الذي اقتبسنا منه المعنى التالي: إن مبادئ سلوك القراصنة تعكس هنا «بنوداً»، فهم في مجلسهم هذا سيتعين عليهم أن يختاروا ضباطاً، ويعدون البنود، ويؤسسون كومنولثاً صغيراً خاصاً بهم، لمنع النزاعات والصراعات التي قد تنشأ بينهم، ويقسمون بالكتاب المقدس على ذلك.

وبحق الرعد فأنت أيضاً آخر ورقة رابحة عنده يا جون. قف معه وسيقف معك ظهرك إلى ظهره، أنقذ شاهدك من الموت الآن وهو سيخلص عنقك من المشنقة فيما بعد».

بدأت أستوعب شيئاً من الأمر، فسألته:

- أتعني أنك خسرت كل شيء؟

فأجاب:

- نعم بحق الرب^(١) هذا بالضبط ما أعنيه! فقد ضاعت السفينة، وضاع عنقي، وهذا هو حجم الكارثة حالما نظرت إلى ذلك الخليج ولم أر السفينة. فرغم قوتي وغلظتي إلا أنني استسلمت وبتست، أما بالنسبة لأولئك الرفاق ومجلسهم، فاشهد على قولي إنهم ليسوا سوى حمقى وجبناء. وسوف أنقذك منهم إذا كان الأمر باستطاعتي، ولكن عليك أن تعرف أن هذا سيكون مقابل أن تنقذ جون الطويل من المشنقة.

لقد كنت في حيرة من أمري، لأنه مجرد طلبه ذلك مني - وهو القرصان القديم المحنك، وزعيم قراصنة طوال حياته - بدا أمراً في غاية اليأس.

فقلتُ:

- سأفعل كل ما بوسعي فعله.

صاح جون الطويل:

(١) by gum: قسم غليظ.

- إنه اتفاق إذن! كل ما عليك هو أن تتحدث ببسالة، وستكون بحق الرعد عندي فرصة.

ثم تَوَجَّه وهو يعرج نحو المشعل الذي كان وسط كومة الحطب، وأشعل غليونه.

عاد واستأنف حديثه قائلاً:

- افهمني يا جيم، إن لي رأساً فوق كتفي^(١)، وأنا في جانب الملاك الآن. أعرف أنك وضعت السفينة في مكان آمن، ولا أعرف كيف فعلت ذلك، ولكنني متأكد أنها في سلام، وأخمن أن هاندز وأوبراين كانا رجلين مهملين وضعيفين، وإني لم أؤمن بجدارة أي منهما. أنا لن أطرح أسئلة، ولن أسمح للآخرين أن يفعلوا ذلك، فأنا أعرف عندما تنتهي اللعبة، وأعرف عندما يكون أمامي شابٌ مخلص وصلب، وأنت كذلك، ولربما سنكون أنا وأنت قادرين على إنجاز وتحقيق الكثير معاً.

ثم أخذ من البرميل شيئاً من شراب الكونياك في كوب من القصدير.

قدّم لي بعضه قائلاً:

- هلا تشرب معي يا رفيق المائدة؟

(١) head on shoulders: عقل، أي القدرة على اتخاذ القرارات الصائبة. عندي رأس على كتفي، عندي عقل لأفكر فيه وأتخذ قراراً صائباً.

وحين امتنعت عن الشرب قال لي:

- حسناً، سأشربه كله يا جيم، فأنا بحاجة إلى حشوة قوية^(١)

إذ أنّ هناك مشاكل تلوح في الأفق. وبمناسبة الحديث عن

المشاكل، ترى لماذا أعطاني الطيب المخطط يا جيم؟

فعلت وجهي أمارات الاستغراب الحقيقية والدهشة الصادقة،

ولما رأى ذلك على وجهي، أدرك أنه لم يعد هناك من داعٍ ل طرح

المزيد من الأسئلة.

قال:

- حسناً، لقد فعل ذلك، وثمة سبب خلف ما قام به، ولا

ريب عندي من ذلك يا جيم، سواء سبب سيئ أو جيد لكن

بالتأكيد ثمة سبب.

ثم احتسى جرعة أخرى من البراندي، وهو يهز رأسه الكبير

كرجل ينتظر حدوث الأسوأ.

(١) Caulker: شراب قوي، وعبارة to caulk، هي سدّ منافذ السفينة لمنع التسرب في

حالة حدوث العواصف، واستعملها هنا سيلفر تعبيراً عن حاجته للشراب لمساعدته

في مواجهة المشاكل القادمة.

(٢٩)

الوسمة السوداء، مرّة أخرى!

استمر انعقاد مجلس القراصنة التشاوري لفترة من الوقت، ثم دخل أحدهم إلى المنزل، وكرّر نفس التحية التي بدت في نظري أنها تحمل شيئاً من السخرية، وطلب السماح له بأن يأخذ المشعل. فوافق سيلفر على أن يأخذه لفترة وجيزة، ثم غادر هذا المبعوث مرة أخرى إلى مكانه وتركنا أنا وسيلفر في ظلام دامس.

قال سيلفر وقد حملت نبرته في هذا الوقت شيئاً من الودية والألفة:

- هناك نسيم قادم يا جيم.

التفتُ إلى الثغرة القريبة مني وتطلّعت منها، فرأيتُ أن جمرات الموقد قد خبت نارها، وصارت تشعّ الآن بوهج خفيض ومُدْهِم، فعرفت عندها سبب رغبة هؤلاء المتآمرين في الحصول على المشعل. كانوا متجمعين في منتصف المسافة إلى السور على المنحدر، كان أحدهم يحمل المشعل، وكان آخر يركع على ركبتيه في وسطهم، ورأيت في يده نصل سكين يلتمع عاكساً ألواناً متباينة من ضوء

القمر ونار المشعل . أما البقية فقد كانوا منحنيين على الرجل الأخير كما لو أنهم يراقبون مناوراته وتدابيره . وقد تبين أن كان يحمل كتاباً إضافة إلى السكين في يده، وكنت أتساءل كيف أنه أمر غريب وشاذ بالنسبة لطبيعتهم أن يكون بحوزتهم كتاب، عندها نهض ذلك الرجل الراكع على ركبتيه، ثم توجهت كل المجموعة إلى المنزل .
فقلتُ:

- إنهم قادمون .

ثم عدت إلى موضعي السابق على الجدار، فقد بدا أنه أمر يحط من كرامتي لو وجدوني أراقبهم .
هتف سيلفر:

- دعهم يأتون أيها الفتى، دعهم يأتون . فما زالت عندي فرصة لمعالجة الموقف^(١) .

فُتح الباب ودخل الرجال الخمسة، ثم دفعوا واحد منهم إلى الأمام . وفي أي موقف آخر كان سيكون مشهداً مضحكاً رؤيته وهو يتقدم ببطء رافعاً قدماً ليضعها أمام الأخرى بتردد، إلا أنه كان يمد ذراعه اليمنى إلى الأمام وكفه منغلقة .
فصاح سيلفر به:

- هلم يا صبي! فلن آكلك، سلمها أيها البحار المبتدئ الأخرق،
فأنا أعرف القواعد ولن أقوم بإيذاء المفاوض .

(١) a shot in the locker . وتعني فرصة أخيرة لمحاولة فعل شيء .

وهكذا تشجّع القرصان وتقدّم بسرعة، وسلّم شيئاً ما إلى سيلفر،
يداً بيد، ثم انسل بخفة إلى مكانه بين رفاقه.

فنظر طبّاخ السفينة إلى ما وضعه الرجل بيده.

فقال:

- الوسمة السوداء! لقد خمنت ذلك. ومن أين أتيتم بورقة
لصناعتها؟ ها، حيّاكم! لقد قمتم باقتطاع ورقة من الكتاب
المقدس، أو ليس هذا باعثاً للشؤم؟ يا لحماقة فعلتكم!
أتمزقون الكتاب المقدس؟

قال مورغان:

- ها، هل رأيتم؟ ألم أقل لكم أنّ عاقبة مثل هذه الفعلة الشنيعة
ستكون سيئة علينا؟ لقد قلت لكم هذا.

فأردف سيلفر:

- حسناً، ستدفعون ثمن ما اتفقتم على فعله، وستشققون كلّكم.
ومن ذاك الأخرق البليد الذي كان معه الكتاب المقدس؟

فقال أحدهم:

- إنه ديك.

فقال سيلفر:

- أهو ديك؟ إذن على ديك أن يبدأ بالصلاة. فقد رأى شيئاً من
حظه.

وعندها اندفع الرجل مصفّر العينين قائلاً:

- دع عنك هذا الكلام يا جون سيلفر، فإن هذا الطاقم قد سلّمك الوسمة السوداء، وكان ذلك بالإجماع في المجلس المنعقد، ويقتضي الواجب أن تقلب الوسمة لترى ما هو مكتوب فيها، ثم يمكنك أن تتكلم.

فأجاب طبّاح السفينة:

- شكراً يا جورج، لطالما كنت بخاراً نشيطاً، ويسرّني أن أراك تحفظ القواعد عن ظهر قلب. والآن فلأر ما هو مكتوب؟ أه «مخلوع»، أهكذا إذن؟ يا له من خط جميل هذا الذي كتبت به الكلمة، كما لو أنه طباعة، قسماً، أهو خط يدك يا جورج؟ يبدو أنّك سئمت أن تكون رجلاً تابعاً، وتود أن تكون قبطاناً أليس كذلك؟ حسناً، ليس في ذلك مما يثير عجبني. هل لك أن تناولني المشعل مجدداً، فإن نار غليوني قد خبت ولا أستطيع أن أسحب منه نفساً من الدخان.

قال جورج:

- هيا، لن تمخّض هذا الطاقم من بعد، وما أفعالك إلا دليلاً على كونك رجلاً غريب الطباع، أما الآن وقد انتهى أمرك فلعلّك تنزل عن برميلك هذا وتشارك في التصويت.

فأجاب سيلفر بازدراء:

- لقد ظننتك تعرف القواعد كما ادّعت، ولكنك إن لم تفعل،

فأنا أعرفها، وإني ماكث في مكاني ولا أزال قبطانكم حتى
تتقدّم بشكواك أمامي وأجيبك عنها، بعد ذلك سنرى. أمّا
رقعتك السوداء فهي لا تساوي عندي قطعة كعك.

أجاب جورج:

- أوه، يجب ألا تقع ضحية سوء الفهم وليكن واضحاً عندك
أننا مجتمعون على أمرك فأنت أولاً أفسدت هذه الرحلة ويا
لجراتك لو أنك أنكرت هذا. وثانياً لقد سمحت للعدو
بالخروج من هذا الشّرك دون مقابل، ولا علم لي لماذا فعلت
ذلك، ولكن من الواضح أنّهم كانوا يريدون ذلك. وثالثاً لم
تسمح لنا بمهاجمتهم وهم يسرون. نحن نعلم ببواطنك يا
جون سيلفر، فأنت تريد الغنائم لنفسك، وهذا هو الخطأ
الكبير الذي فيك. ومن ثم رابعاً هنالك هذا الصبي.

فسأل سيلفر بهدوء:

- أهذا كل ما عندكم؟

فأجاب جورج:

- هذا كلّ ما عندنا وهو كافٍ أيضاً، فإننا سنشتق ونترك معلقين
لتجفّفنا الشمس بسبب حماقتك.

قال سيلفر:

- والآن التفتوا إليّ فإني مجيكم عن هذه النقاط الأربع، واحدة
بعد الأخرى. قلت إنني أفسدت هذه الرحلة؟ أنتم كلّكم

تعرفون غايتي، ولو أنني حصلت على ما أريده، لكان على متن الهيسبانيولا هذه الليلة قبل غيرها، كل رجل منا ظل على قيد الحياة، سالمين يملأ راحات أيدينا الخبز الطيب، والكنز في حوزتنا على السفينة، ولكن بحق الرعد من عارضني؟ ومن كتف يدي وأنا القبطان الشرعي؟ ومن سلّمني الوسمة السوداء من أول يوم على هذه اليابسة وبدأ هذه الرقصة؟ نعم أنا متفق معكم أنها رقصة جميلة كرقصة هورنبايب^(١) على أنشودة في منصة للإعدام في لندن، ولكن من الذي بدأ ذلك كلّه؟ ألم يكن ذلك أندرسون، وهاندز، وأنت يا جورج ميري؟! هذا وقد كنت أنت رئيساً على ذلك الطاقم المتطلق، والآن عندك الوقاحة، بحق ديفي جونز، لتقف أمامي وتنصب نفسك قبطاناً، أنت الذي أغرقت الكثيرين منا! إن هذا وحق السماء، لكافٍ لكي ينقض جميع ما غزّلته من ترّهات!

ثم أمسك سيلفر عن الكلام لبرهة، ونظرتُ حينها إلى جورج ورفاقه فكان أثر كلمات سيلفر واضحاً على وجوههم.

أردف قائلاً:

- هذا بالنسبة للنقطة الأولى.

ثم جعل المتهم يمسح العرق من على جبينه لأنه كان يتحدث بانفعال وعصبية هزت أركان المنزل، وصاح:

(١) hornpipe dance: رقصة سريعة ترتبط بالبحارة، وعادة ما يؤديها شخص واحد.

- وسأخبركم بشيء، لقد سئمت الحديث معكم، فأنتم بلا عقل ولا ذاكرة، وأنا تارك لكم أن تتخيلوا أين كانت أمهاتكم عنكم لكي يُسمح لكم بالقدوم إلى البحر^(١)! فما شأن من هو مثلكم والبحر، يا قراصنة! الأولى بكم أن تكونوا خياطين!

فقال مورغان:

- أكمل حديثك يا جون وأجب عن بقية الأمور.
أجاب جون:

- آه، نعم، بقية الأمور! إنها كمية جميلة من الأمور أليس كذلك؟ أنتم تقولون إن هذه الرحلة قد فشلت، ولكن بحق الرب لو كان بإمكانكم أن تروا إلى أية درجة قد فشلت لأدركتم الأمر! فنحن قريبون من المشنقة لدرجة أن رقبتني تكاد أن تتصلب وتسخن بمجرد التفكير بذلك المنظر، فلربما رأيتم رجالاً معلقين في السلاسل مشنوقين والطيور تحوم حولهم والبحارة يشيرون إليهم وهم يسرون مع المد، فيسأل واحد: «من هذا؟» ويقول آخر: «إنه جون سيلفر، لقد عرفته جيداً». ويمكنكم أن تسمعوا السلاسل تجلجل وأنتم تمرون بقربهم، فهذا هو مكاننا، هذا مكان كل ابن أمّ فينا، بفضل هذا، وهاندز وأندرسون، وبقية الحمقى منكم. وإذا أردتم أن تعرفوا بخصوص النقطة الرابعة، فلترتعد أخشابي! إن ذلك الصبي رهينة عندنا! فهل سنضيع رهينة؟

(١) إهانة مبطنة إلى أمهاتهم.

لا لن نفعل، فلربما يكون آخر فرصة لدينا، ولا عجب،
فلست بقاتل ذلك الصبي يا رفاق. وبالنسبة للنقطة الثالثة،
فهناك الكثير مما يقال حول النقطة الثالثة، فلربما لن تعدّوه
شيئاً مهماً أن يأتي طبيب جامعي متعلم لكي يراكم ويعاينكم
كل يوم، أنت يا جون بإصابة رأسك، أو أنت يا جورج
ميري وقد كادت حمى الملاريا تنفض جسدك ليس قبل أقل
من ست ساعات مضت، أو ليس لون مقلتي عينيك بلون
قشرة الليمون إلى هذه الساعة؟ ولعلكم لم تعرفوا أنّ هناك
سفينة ستأتي خلفنا؟ ولن يطول الأمر حتى تصل، وسنرى
عندها من سيفرح لوجود رهينة معه عندما تصل الأمور إلى
ذلك الحد. أما بالنسبة للنقطة الثانية لله درّي فقد أبرمت
صفقة أتيتموني زاحفين على ركبكم لكي أبرمها، زحفت
وتوسلتكم مكسوري الخواطر، وكنتم ستتضورون جوعاً لو
أنني لم أبرم هذه الصفقة، ولكن كلّما قلته تافه وكلّ ما فعلته
ليس بذي أهمية عندكم! فهذا هو ذا الأمر أمامكم وهذه هي
أسبابي، فانظروا.

ثم ألقى على الأرض بورقة مصفّرة، ميّزتها من فوري، فلم تكن
سوى الخريطة ذات الصלבان الثلاثة المرسومة، وهي نفسها التي
كنت قد وجدتتها في قاع صندوق القبطان البحري ملفوفة في قماش
مشمع، ولم يدر بخلدي أي سبب يدفع الطبيب لأن يعطيها لسيلفر.
ولكن إذا كان ظهور الخريطة أمراً محيّراً بالنسبة لي، فإن ظهورها

كان كالحلم بالنسبة لمن بقي حياً من القراصنة. فقد قفزوا عليها كما تقفز القطط على فأرة، وظلّوا يتخاطفونها من يد إلى يد، ولو كنتم رأيتموهم وهم يطلقون اللعنات والشتائم والضحكات الصبيانية وهم يتفحصونها لحثيل إليكم أنهم لم يكونوا يلمسون الذهب بأصابعهم فحسب، بل كنتم ستحسبونهم مبحرين في عرض البحر مع ذلك الذهب بأمان.

قال أحدهم:

- نعم، بلا ريب، هذا خط فلينت، فها هو توقيعه (ج. ف.)، وهذه هي عقدة القرنفل^(١) علامته التي اعتاد أن يضعها في الأسفل من توقيعه دائماً.

قال جورج:

- ما أجملها! ولكن كيف لنا أن نحمل الكنز ونحن بلا سفينة. فنهض سيلفر من فوره، وأسند نفسه على الجدار بذراعه، وصاح:

- حذار يا جورج، كلمة أخرى وقحة، وأبارذك. أتسأل كيف؟ أتى لي أن أعرف، عليك أنت أن تجيبني على هذا السؤال، أنت ومن معك من ضيّعتم سفينتي، بتطفلكم وتدخلكم، اللعنة عليكم! ولكن ليس باستطاعتك أن تجيبني، فلست

(١) clove hitch: عقدة أو ربطة جبال، تتم بتمرير الحبل مرتين حول الصاري أو حول حبل غيره، بطريقة تجعل من طرفي الحبل يمران كلاهما من تحت عقدة الحبل الرئيسية في المقدمة.

تملك عقل صرصار حتى، لذا كل ما ستفعله هو أن تتأدب
في حديثك معي، وإلا فالويل لك مني، يا جورج، يقيناً.

قال مورغان العجوز:

- عندك حق.

فقال طباخ السفينة:

- حق! بالطبع عندي حق، فأنتم ضيِّعتم السفينة، وأنا وجدت
الكنز، فمن هو الرجل الأفضل؟ والآن أنا أستقيل، بحق
الرعد! فانتخبوا من تشاؤون أن يكون قبطانكم، فأنا اكتفيت
منكم ومن هذا الأمر.

راحوا يصيحون:

- سيلفر! باربيكيو إلى الأبد! باربيكيو هو القبطان!

فصاح القبطان:

- إذن هذا هو قرار الجميع. يبدو يا جورج أنّ عليك أن تنتظر
دورك يا صاحبي. ومن حسن حظك أنني لست برجل
ذي نزعة انتقامية فهذا ليس من طبعي أبداً. والآن يا رفاق
ماذا عن هذه الوسمة السوداء؟ لقد صارت بلا فائدة أليس
كذلك؟ عدا أن ديك لعن حظه عندما مزق الكتاب المقدس،
فهذا كل ما في الأمر.

زجر ديك الذي بدا عليه الضيق من اللعنة التي جلبها على

نفسه، وقال:

- أيكفي أن أقبّل الكتاب؟

فأجاب سيلفر ساخرًا:

- وماذا يبقى من الكتاب المقدس بعد أن مزقته واقتطعت منه جزءاً؟ لا، لم يعد أكثر من مجرد كتاب قصص.

صاح ديك بشيء من السرور:

- أليس كذلك؟ حسناً، ما زال يستحق الاحتفاظ به على أية حال.

فقال سيلفر وقد رمى الورقة نحوي:

- خذ يا جيم، إنه أمر سيثير فضولك.

كانت ورقة بحوالي حجم عملة الكراون^(١) أحد وجهيها كان أبيض فارغاً من الكتابة لأنه كان آخر ورقة في الكتاب المقدس، والجهة الأخرى كانت فيها آية أو آيتان من سفر الرؤيا، وقد كان من بينها هذه الكلمات التي ما زالت عالقة في ذهني حتى الآن: «لأنه خارجاً الكلاب والقتلة»^(٢)، كان الجزء المطبوع مسوداً بسخام الخشب المحروق، وقد أخذ يزول حتى أنه لطح أصابعي، أما الجانب الفارغ فقد كان مكتوباً فيه بنفس المادة من السخام كلمة «مخلوع». وما زلت أحتفظ بالوسمة السوداء إلى هذه اللحظة ولكن لم يعد

(١) The British crown: عملة فضية بريطانية ظهرت مع اتحاد ممالك إنكلترا واسكتلندا.

(٢) Without are dogs and murderers انجيل الملك جايمس، سفر الرؤيا، ٢٢.

عليها أي أثر للكتابة سوى خدش وحيد وصغير، كالذي يخلفه ظفر الإنسان.

وكانت هذه نهاية أحداث تلك الليلة، عقبها بقليل، خلدنا للنوم بعد أن احتسى الجميع الشراب. وكان أقصى حدّ لانتقام سيلفر من جورج ميري أنّه وضعه للحراسة وهدّده بالموت إذا رأى منه أية بوادر على خيانة.

مرّ وقت طويل قبل أن أتمكن من إغماض عينيّ، ووحده الله يدري كيف كانت تعتمل الأفكار والهواجس في خلدي، بدءاً من ذلك الرجل الذي قتلته ذلك المساء، إلى وضعي المحفوف بالمخاطر. وقبل ذلك كله، كنت أفكر باللعبة الاستثنائية التي شهدت سيلفر يلعبها لتوي: أن يُبقي على القراصنة موحدّين في كفة، وأن يقبض في الكفة الأخرى على الوسيلة بعد الوسيلة، مهما كانت مستحيلة أو ممكنة، لكي يحقق سلامته وينقذ حياته التعيسة. أما هو فقد نام مطمئناً وشخر عالياً، ولقد أشفقت عليه على الرغم من شروره، فقد تخيلت الأخطار التي تحاصره ومشنقة العار التي تنتظره.

(٣٠)

إطلاق سراح مشروط

لقد استيقظت -أو بالأحرى استيقظنا جميعاً لأنني رأيتُ إن حتى الحارس كان يستعيد وعيه بعد أن أغفى على الجدار في مكان حراسته- على صوت واضح وقوي من جهة الغابات يهتف:

- يا جماعة الحصن! مرحباً! هذا أنا الطيب!

ولقد كان الطيب حقاً، ومع أنني كنت سعيداً بسماع صوته، إلا أن سعادتني كان مشوبة بشيء آخر، فقد تذكرت عصياني وسلوكي المتملص، وعندما أدركت أن ما فعلته هو ما أوصلني إلى نتيجة آية رفة تحيطني وأيتها أخطار تتهددني؛ فقد شعرت بالخجل من النظر إلى وجهه. ولا بدّ من أنه قد استيقظ عندما كان الوقت لا يزال ظلاماً، لأن الفجر بالكاد بزغ، وعندما ركضت نحو ثغرة في الجدار لأنظر منها، رأيتُه واقفاً كما وقف سيلقر في مكانه مرة، غاطساً إلى ركبتيه في الضباب.

صاح سيلقر وقد كان في أتمّ الصحو من نومه تماماً، وقد شعّ لحظتها محياه بعلائم الطيبة والخير:

- عمت صباحاً أيها الطيب! إنه لصباح مشرق ومبكر،
بالتأكيد. لكنهم يقولون إنَّ الطائر المبكر هو الذي ينال رزقه
أولاً. هيا يا جورج انهض وانفض أخشابك يا فتى، ولتساعد
الطيب ليفزي ليعبر إلى جهتنا. كل مرضاك في حالة طيبة،
معافون ومبتهجون.

وهكذا ظلَّ سيلفر يثرثر وهو يقف على قمة التل، بعكازه تحت
مرفقه، وهو يستند بيده إلى المنزل الخشبي، وقد بدا وهو على هذه
الوضعية، يشبه تماماً سيلفر القديم بنبراته وحركاته وتعبيراته.
ثم أكمل قائلاً:

- عندنا مفاجأة كبيرة بانتظارك يا سيدي، فعندنا ضيف
غريب صغير، هو! هو! راكب ونزّل جديد^(١)، يا سيدي،
وهو يبدو سليماً وقوياً ومشدوداً كالكمّان، وقد نام عميقاً كما
لو أنه مشرف تحميل على السفينة^(٢) إلى جانب جون، ظهراً
إلى ظهر، إلى جوار طوال الليل.

في هذه الأثناء كان الطيب ليفزي قد اجتاز السور وأصبح
قريباً من الطباخ، وقد سمعت تغير نبرته عندما قال:

(١) a noo boarder: a new boarder، خلال حديث سيلفر والآخرين فإن أصوات
العلّة في كلمات مثل duty و new تصدر كـ(oo) لكي يدل على الاختلاف بين لهجة
هؤلاء الرجال غير المتعلمين وأولئك السادة (الجنيتلمان)، كتريلاوني وليفزي، ومثال
على الفرق في اللفظ بين الصوتين هو لفظ كلمة coot وكلمة cute.

(٢) Supercargo: ممثل لمالك السفينة على متن سفينة تجارية مسؤول عن تحميل الشحنة
وبيعها.

- أهو جيم؟

فقال سيلفر:

- إنه هو بلا ريب، جيم بشحمه ولحمه.

فتوقف الطبيب من فوره، ولم ينبس بكلمة حتى مرّت بضع ثوانٍ قبل أن يتحرك مجدداً. قال أخيراً:

- حسناً حسناً، الواجب قبل التسلية، كما قلت بنفسك من قبل يا سيلفر، فدعنا نعالج مرضاك هؤلاء أولاً.

دخل بعد لحظة إلى الحصن، وأوماً لي حين مرّ من جانبي بإيحاء وحيدة متجهمة، ثم تابع عمله في العناية بالمرضى، ولم يبدُ عليه القلق أو الخوف، رغم أنه كان يدرك أن حياته بين هؤلاء الشياطين الغادرين كانت تقف على شعرة، ثم دار بين مرضاه وتحدث معهم كما لو أنه يقوم بزيارة مهنية اعتيادية إلى عائلة انجليزية مسالمة. ولا ريب أن سلوكه قد انعكس على هؤلاء الرجال، فقد تصرفوا أمامه كما لو أنه لم يحدث شيء مما حدث، كما لو أنه ما زال طبيب السفينة، وأنهم بحارة اعتياديون مخلصون أمام الصاري.

قال الطبيب للرجل ذي الرأس المربوط بضمادة:

- أنت تتحسن يا صديقي. ولو أن شخصاً قيل عنه إنه كان قاب قوسين أو أدنى من الموت فهو أنت، ولا شك أن لك رأساً صلباً كالحديد.

ثم قال لجورج:

- حسناً يا جورج، كيف حالك؟ لقد عاد اللون إلى وجهك وتحسنت، ولا عجب فقد كانت كبك مقلوبة يا صاحبي، هل تناولت دواءك؟ هل تناول دواءه يا رجال؟

فقال مورغان:

- آي آي سيدي، لقد تناوله بالتأكيد.

قال الطبيب بطريقته الودودة:

- كما ترون، فأنا ما دمت طبيب قراصنة أو طبيب سجن، وأنا أفضل هذه التسمية، فقد حتم عليّ شرفي ألا أخسر رجلاً لا من أجل الملك جورج (باركه الرب!) ولا من أجل المشانق.

فنظر المحتالون بعضهم لبعض، ولكنهم ابتلعوا الطعنة التي سددها لهم بصمت.

قال أحدهم:

- إنّ ديك لا يشعر بخير يا سيدي.

فأجاب الطبيب:

- أحقاً ذلك؟ فلتقدم إلى هنا يا ديك، وأرني لسانك. لا، لن يثير عجبني لو أنّه كان يشعر بخير، فإن هذا الرجل يمكن أن يربع الفرنسيين بلسانه! إنها حمى ثانية!

فقال مورغان:

- آه، خذوا عندكم، إنّ هذا نتيجة إتلاف الكتاب المقدس.

ردّ الطيب:

- بل قل إن هذا نتيجة - كما أسميتها - كونكم حمقى وحميراً بكل معنى الكلمة، ونتيجة جهلكم وعدم امتلاككم من الإدراك ما يكفي لتمييز الهواء النقي من الفاسد، الأرض الجافة من المستنقعات الملوثة الضارة الخبيثة. ولكني أظن - ورغم أنه مجرد رأي ليس إلا - أنكم ستدفعون ثمناً باهضاً قبل أن تتخلص أجسادكم من الملاريا. أو تعسكرون في مخيم؟ كيف لكم هذا! أنا مستغرب منك يا سيلفر، وقد ظننتك أذكى من بقيّتهم، ولكن يبدو أنك لا تملك أدنى فكرة عن القواعد الأساسية للصحة.

وبعد أن أكمل الطيب معاينته لهم ووزع عليهم وصفاته الطبية التي تناولوها بخضوع مثير للضحك كما لو أنهم تلاميذ من المدارس الخيرية أكثر مما لو كانوا متمردين قتلة وقراصنة؛ قال لهم الطيب:

- حسناً، هذا يكفي لليوم، والآن أرغب بالحديث مع ذلك الصبي من فضلكم.

ثم أنه أوماً رأسه باتجاهي دون اكتراث.

كان جورج ميري واقفاً عند الباب، يبصق ويقيء الدواء الكريه الذي تناوله، ولكن عندما سمع أول كلمة من طلب الطيب، استدار فجأة واحمر لونه ثم صاح قائلاً:

- كلا!

وأعقب قوله بلعنة وشتيمة.

فضرب سيلفر البرميل بقبضة يده المفتوحة، وزأر قائلاً:
- صمتاً!

ثم تطلّع حوله كأنه أسد، وأكمل حديثه بنبرة صوته الاعتيادية
قائلاً:

- لقد كنت أفكر في طلبك أيها الطبيب لأنني أعرف أنك
تحب ذلك الصبي، ونحن جميعنا ممتنون لعطفك وكما ترى
فنحن نضع ثقتنا كاملة فيك، ونشرب عقاقيرك كما نشرب
الغروغ. لذا فقد وجدت طريقة تناسب الجميع، فيا هو كينز
ألا تعطيني كلمة شرف كشاب محترم ونبيل - لأنك بالفعل
شاب محترم ونبيل على الرغم من كونك فقير المولد - كلمة
شرف بأنك لن ترفع مراساتك وتهرب من هنا؟
ومن فوري أعطيته عهداً بذلك.

فقال سيلفر:

- إذن أيها الطبيب عليك فقط أن تعبر السور، وحالما تفعل
ذلك، فسأجعل الصبي يوافقك من الداخل، وأعتقد أن
بإمكانكما الحديث من خلال أوتاد السور. طاب يومك يا
سيدي، ونحن في خدمة الإقطاعي والقبطان سموليت.

وما كاد الطبيب يخرج من المنزل حتى انفجر المكان بالرفض
الذي ما كان ليكبحه ويوقفه عند حده سوى نظرات سيلفر السود

القائمة. أتهم سيلفر بأنه ازدواجي: فهو يسعى لعقد معاهدة خاصة به^(١) مضحياً بمصالح شركائه وضحايا غدره، وبعبارة واحدة مختصرة كان متهماً بالشيء الذي كان يفعله تماماً. وقد اتضح لي جلياً في هذه الحالة حتى أنه لم يمكن لي تخيل كيف سيتمكن من أن يُطفئ غضب رفاقه. بيد أن سيلفر كان رجلاً بضعفي ما كان عليه البقية منهم، وقد منحه نصر الليلة الماضية أغلبية وتفوقاً وهيمنة على أذهانهم. فوصفهم بحمقى وبُلهاء وكل النعوت التي تتخلونها، وقال لهم إنه من الضروري أن يتحدث مع الطبيب، ثم لوح بالخريطة أمام وجوههم وسألهم هل يمكنهم تحمّل خرق المعاهدة في نفس اليوم الذي يزعم فيه أن يبحث عن الكنز.

صاح قائلاً:

- كلا بحق الرعد! سنخرق المعاهدة عندما يحين الوقت المناسب، وحتى ذلك فسوف أداهن وأخدع^(٢) الطبيب حتى لو اقتضى الأمر أن أمسح حذاءه بالبراندي.

ثم أمرهم بإشعال النار، وخرج يمشي متبخترًا متكئاً على عكازه ويده الأخرى على كتفي، تاركاً رفاقه في حالة من الفوضى والاضطراب، وقد أسكتتهم فصاحته، لا قناعتهم بحجته.

قال لي:

(١) separate peace: معاهدة أو اتفاق تطبق على فرد واحد أو مجموعة من ضمن مجموعة أكبر.

(٢) Gammon: خيانة أو خداع أو مداينة

- تمهل يا فتى، لأنهم لورأونا مسرعين فسيلحقون بنا في غمضة عين.

وهكذا تعمدنا المشي على الرمال بتؤدة إلى حيث كان يقف الطبيب على الجانب الآخر من السور، وما إن صرنا على مسافة كافية للحديث معه، توقف سيلقر وقال:

- أيها الطبيب أنت أيضاً عليك أن تتبه إلى هؤلاء الذين يتربصون بنا، وسيخبرك الصبي كيف أنقذت حياته وكيف أقصيت بسبب ذلك أيضاً. أيها الطبيب عندما يسير الرجل سفينته قريباً من الريح مثلما أفعل، فإنه يقامر بآخر رمق من حياته، فلا أحسبه أمراً كبيراً لو أن رجلاً مثلك يقابله بكلمة طيبة؟ وأرجو أن تضع في حسابك أنها ليست حياتي فحسب التي هي على المحك، وإنما حياة هذا الصبي أيضاً، ولسوف نتحدث عني بإنصاف أيها الطبيب، وتمنحني بصيص أمل لأمضي قدماً في هذا، رحمة بي.

وقد تحوّل سيلقر لرجل آخر ما إن صرنا في الخارج، فحالما أدار ظهره لرفاقه والحصن، حتى تهدلت وجنتاه وارتعش صوته، ولم يكن لروح أن تبدو ميتة ويائسة أكثر من روحه.

فسأله الطبيب ليفزي:

- هل أنت خائف يا جون؟

- أنا لست رجلاً جباناً أيها الطبيب.

ثم أنه جعل يفرق بأصابعه وقال:

- ولو أنني كنت كذلك فلن أقولها، ولكنني أعترف بصراحة بأنني أخشى المشنقة. أنت رجل صالح ونزيه، وما رأيت رجلاً أفضل منك! وأعلم أنك لن تنكر عملي الطيب مثلما لن تنسى عملي السيء. وها أنا سأتنحى جانباً لأتركك وجيم بمفردكما، ولسوف تتذكر حسنتي هذه أيضاً، وتشهد لي بها، لأن ما أقوم به هو عمل مضمّن وخطير.

قال هذا ثم تراجع قليلاً، حتى صار مسمعه بعيداً عن مرمى حديثنا، ثم أنه جلس قرب جذع شجرة وأخذ يصفر ويستدير بين الحين والآخر ليسيطر على المشهد، فتارة يراقبنا أنا والطبيب وتارة يراقب رفاقه الأوغاد عسيري القيادة وهم يمشون على الرمال ذهاباً وإياباً بين النار التي كانوا منهمكين في إيقادها وبين المنزل، الذي يأتون منه بلحم الخنزير والخبز لإعداد الفطور.

قال الطبيب بحزن:

- إذن يا جيم ها أنت ذا، فاشرب ما كنت قد خمرته يا ولدي^(١).
الرب يشهد أن قلبي لا يطاوعني لألومك وأقرعك،
ولكنني سأقول لك هذا، سواء كان لطيفاً أم لا: عندما كان
القبطان سموليت بخير لم تتجرأ على الفرار، ولكن عندما

(١) As you have brewed, so shall you drink: المثل الذي ورد في النص، ويمكن

أن يوازيه في المعنى العربي: تحني ما زرعته يدك.

أُصيب، بحق المقدّسات^(١)، لم تستطع أن تمنع نفسك من أن تأتي بفعلتك هذه. وإني أقولها صراحة: إنّ ما أتيت به لم يكن إلا جنباً بكل معنى الكلمة.

وأعترف أنّي شرعت هنا بالنحيب، وقلت:

- أيها الطيب، لعلك تعفيني من الملامة، فقد لمتُ نفسي بما فيه الكفاية، إن حياتي مهدورة لا محالة، ولولا دفاع سيلفر عني لكنت الآن في عداد الأموات، وصدقني أيها الطيب أن الموت لا يعنيني، بل وأجرؤ على القول إنني أستحقه، ولكن الذي أخشاه هو التعذيب، فلو قاموا بتعذيبي...

فقاطعني الطيب وقد تغيّر صوته كلياً:

- جيم يا جيم، أنا لن اقبل بهذا، فاقفز وسنهرب معاً.
فقلتُ:

- لقد أعطيتهم كلمة شرف أيها الطيب.

صاح بي:

- أعلم، أعلم، ولكن ليس أمامنا الآن حلّ آخر يا جيم، سأتحمل اللوم والعار على عاتقي بدلاً عنك يا جيم، ولكن لا أستطيع تركك هنا يا ولدي. هيا اقفز! فما هي إلا قفزة واحدة وستصبح في الخارج، وسوف نعدو كالظباء.

فأجبتُه:

(١) «By God and Saint George» by George وهي صيغة قسم انجليزية قديمة.

- كلا، فأنت تعلم جيداً أنك نفسك لن تأتي على أمر مثل هذا، لا أنت ولا الإقطاعي ولا القبطان، ولستُ بفاعل أمراً كهذا أنا أيضاً. لقد وثق بي سيلفر، ولقد أعطيته كلمتي، وسأعود. ولكنك أيها الطبيب لم تدعني أنهي حديثي، فعندما قلتُ لك إنني أخشى أن يقوموا بتعذيبي فأبوح بشيء عن مكان السفينة، فلأنني حصلت على السفينة، بقليل من الحظ وقليل من المجازفة، وهي الآن في الخليج الشمالي، على الشاطئ الجنوبي، إلى الأسفل تماماً من علامة ارتفاع الماء. وعندما يكون المدّ في منتصفه فستظهر أعلى اليابسة.

صاح الطبيب متعجباً:

- السفينة؟

فوصفت له بسرعة مغامراتي، واستمع لي في صمت.

قال عندما انتهيت من قصتي:

- إنّ في ذلك شيء من تدابير القدر، ففي كلّ خطوة تكون أنت الذي ينقذ حياتنا، فهل تظن أننا سندعك تحسر حياتك؟ لن يكون هذا إلا جزءاً سيئاً يا بني. فأنت من اكتشف المؤامرة التي حيكت ضدنا، وأنت من عثرت على بين غان، وهذا خير ما فعلت، وما ستفعله في حياتك كلها حتى إذا عشت لتبلغ التسعين. أوه، وبحق جويتر^(١) بمناسبة الحديث عن

بين غان! إنه عفريت مجسدٌ في هيئة بشر.

ثم نادى على سيلفر:

- سيلفر يا سيلفر! سأعطيك نصيحة.

ثم أكمل فيما كان الطباخ يقترب:

- لا تتعجل في البحث عن ذلك الكنز.

قال سيلفر:

- أنا يا سيدي أبذل ما بوسعي. واسألك العفو ولكن لا يمكنني أن أنقذ حياتي وحياة ذلك الصبي إلا بالبحث عن ذلك الكنز، ففي ذلك خلاصنا يقيناً.

فأجاب الطبيب:

- حسناً يا سيلفر، إذا كان الأمر كذلك، فسأتقدم خطوة وأقول لك: احترس من العواصف الفجائية^(١) عندما تعثر عليه.

قال سيلفر:

- من رجل إلى رجل يا سيدي، إن ما تقوله كثير جداً وقليل جداً في نفس الوقت. فلست أعرف ما هي غايتك. ولا لماذا تركت الحصن؟ ولا لماذا أعطيتني المخطط؟ فأنا لا أعلم لي بأي شيء من ذلك، ولكنني مشيت وراءك طائعاً وعيناوي مغمضتان ولم تمنحني ولا كلمة أمل حتى! ولكن لا، إلى

(١) Squalls: المشاكل، المخاطر. وهنا تحذير من الطبيب سيتبين مقصده في فصل قادم.

هنا يكفي، أفصح عما عندك بصراحة، قلها ببساطة وسأترك
الدفة.

فقال الطبيب متأملاً:

- كلا يا سيلفر، لا حق عندي في قول المزيد، فهذا ليس سري
لأبوح به كما تعلم، وإلا فإنني وشرفي كنت سأخبرك.
ولكنني سأمضي معك بالقدر الذي أجرؤ عليه، وخطوة
أبعد، لأنني لو فعلت ما في نيتي فعله فإن القبطان سيثني
عليّ، وإلا فإن ظني سيكون في غير محله، فأولاً سأمنحك
شيئاً من الأمل يا سيلفر، فاذا نجى كلانا من فخ الذئاب
هذا، فسأفعل ما بوسعي لإنقاذك، ما عدا شهادة الزور.

حينها أضاء وجه سيلفر فصاح قائلاً:

- ما كنت لتقدر على قول أكثر من هذا يا سيدي بالتأكيد، حتى
لو كنتَ والدتي.

أضاف الطبيب:

- هذا أول تنازل مني إليك. أما الثاني فهو نصيحة: أبقِ على
الصبي قريباً منك، ولو احتجت إلى مساعدة نادني. أنا
ذاهب للسعي في مساعدتك، وهذا بحد ذاته سيريك أن ما
أقوله ليس عبثاً. وداعاً يا جيم.

ثم صافحني الطبيب ليفزي عبر السور، وأوماً إلى سيلفر،
وانطلق بخطى حثيثة ورشيقة إلى الغابة.

(٣١)

البحث عن الكنز- دليل فلينت

قال سيلفر عندما صرنا لوحدنا:

- إن كنتُ قد أنقذت حياتك يا جيم فقد أنقذتَ حياتي أنت أيضاً، ولن أنسى هذا. لقد رأيت الطبيب بطرف عيني يلوح لك محرضاً لتهرب، وقد رأيتك وسمعتك بوضوح وأنت تقول لا. وهذه حسنة تحسب لك يا جيم. هذه أول بارقة أمل عندي منذ فشل الهجوم، وأنا أدين لك بهذا. والآن يا جيم يجب أن نشرع في البحث عن الكنز، وبأوامر مختومة أيضاً^(١)، وأنا لا أحب هذا، لذا علينا أنا وأنت أن يعضد أحدهنا الآخر، ظهراً إلى ظهر، وسننجو رغماً عن القدر والحظ.

عندها نادى أحد الرجال من جهة النار أنّ الفطور جاهز، وسرعان ما جلسنا هنا وهناك على الرمال نأكل الكعك واللحم

(١) وهنا يعني أن سيلفر تلقى تحذير الطبيب دون أن يفهم نوع المشاكل التي حذرها منها الطبيب.

المملح^(١). كانوا قد أضرّموا ناراً كافية لشواء ثور، ولقد اشتدّ سعيرها حتى أنهم لم يعودوا قادرين على الاقتراب منها إلا من جهة الريح، وحتى من تلك الجهة لم يتمكنوا من الاقتراب دون حذر. وكانوا قد طبخوا بنفس الطريقة المرسفة كمية من الطعام أكثر مما يمكننا أكله بثلاث مرات، وقد رمى أحدهم ما بقي من طعامه إلى النار وهو يطلق ضحكة جوفاء، فراحت النار تشتعل وتضطرم بسبب هذا الوقود غير الاعتيادي. ولم أر في حياتي قط رجلاً لا يكثرثون لغدهم مثل هؤلاء، وإن عبارة: من اليد إلى الفم^(٢) هي الطريقة الوحيدة التي يمكن فيها وصف أفعالهم، وأدركت من خلال كمية الطعام المهذور وحراسهم النوّامين أنهم لن يكونوا قادرين على الاشتباك في معركة طويلة، على أنهم كانوا قادرين على القيام بمناوشة قتالية بسيطة والانتهاء من الأمر.

حتى سيلفر الذي كان منهمكاً في الأكل والقبطان فلينت جاثم على كتفه، لم يوجّه لهم أية كلمة لوم على تهورهم وإسرافهم. وكان هذا أكثر ما أثار دهشتي، إذ لم يظهر أكثر دهاء ومكراً مما كان حينئذ. قال:

- أي يا رفاق، من حسن حظكم أن عندكم باربيكيو ليفنكر

(١) fried junk: لحم مملح يستخدم كطعام في الرحلات الطويلة، وكلمة junk تعني أيضاً قطعة من حبل قديم.

(٢) hand-to-mouth: عندما لا يكون الطعام أو المال كافياً لسدّ الحاجة. أي أن القراصنة كانوا يسرفون بالطعام ويأكلون كل ما كان بين أيديهم، ولا يدخرون ليوم الغد شيئاً.

عنكم برأسه هذه ويرشدكم، أما عني فقد حصلت على ما أريد، ولكنهم حصلوا على السفينة، ولا علم عندي إلى اللحظة بمكانها، ولكن ما أن نجد الكنز حتى يتعين علينا أن نبحث عنها. وعندها يا رفاق، ستكون السفينة بحوزتنا، وبهذا ستكون لنا اليد العليا.

وهكذا واصل سيلفر الثرثرة وفمه مملوء بلحم الخنزير المقدّد الساخن، حتى أعاد لهم الأمل والثقة، ولم يكن عندي شك من أنه هو نفسه كان قد استعاد ثقته وتجددّ أمله في نفس الوقت.

ثم تابع قائلاً:

- أمّا عن الرهينة، فذلك سيكون آخر حديث له مع رفاقه الذين يحبهم كثيراً، وقد تحصلت بفضلته مشكوراً على بعض الأخبار، ولكن ذلك انتهى وانقضى. وسأخذه معنا عندما نذهب للبحث عن الكنز، لأننا لا بدّ أن نقيه بقربنا ونحافظ عليه كاحتفاظنا بالذهب، تحسباً لحدوث أي طارئ. وما أن نحصل على السفينة والكنز معاً، فسوف نعود إلى عرض البحر كما يفعل الصحب المبتهجون، وعلينا أيها الرجال أن نتباحث في الأمر مع السيد هوكينز، وسنعطيه حصته مقابل لطفه معنا.

ولا عجب من أن الرجال أضحوا في مزاج طيب، أما عني فقد كنتُ في غاية الإحباط، فلو أن الخطة التي رسمها سيلفر أثبتت أنها واعدة بالنجاح وممكنة التنفيذ، فإن سيلفر الذي يلعب على الجهتين،

لن يتوانى في اعتمادها. فها هو وقد ثبت قدميه في كلا المعسكرين، وما من شك في أنه سيفضل الثراء والحرية برفقة رجاله القراصنة، على مجرد الخلاص من المشتقة وهذا أقصى ما سيحصل عليه من جانبنا.

كلا، بل إذا انهارت الأمور ووصلت إلى الحد الذي يضطر فيه إلى الوفاء بعهده والالتحاق إلى جهة الطبيب ليفزي، فما أشد الخطر الذي يتربص بنا! ويالهول اللحظة عندما تثبت شكوك أتباعه، فنضطر أنا وهو إلى القتال دفاعاً عن حياتنا العزيزتين، هو المعاق وأنا الصبي، ضد خمسة قراصنة عتاة غلاظ!

أضف إلى ذلك الخوف المضاعف، سلوك أصدقائي المبهم الذي تعذر عليّ تفسيره: تركهم غير المبرر للحصن، تنازلهم غير المفهوم عن الخريطة، والأصعب تفسيره هو تحذير الطبيب الأخير الذي وجهه لسيلفر: «احترس من العواصف المفاجئة عندما تعثر على الكنز»، وإذا نظرتم إلى كل هذا فسوف يسهل عليكم أن تصدقوا أنني لم أهنأ بفطوري، وكم كان قلبي مضطرباً وأنا أهتم بالذهاب مع من أسروني في بحثهم عن الكنز.

لقد كان منظرنا غريباً لو كان أحدهم يرانا وقتها: فكلنا كنا نرتدي ملابس بحارة متسخة، والجميع ما عداي كانوا مسلّحين إلى أسنانهم، فكان مع سيلفر بندقيتان واحدة من الأمام والثانية من الخلف، بالإضافة إلى القطلس الكبير على خصره، ومسدس في كل من جيبي معطفه الكبير مربع الذيل، ولكي تكتمل غرابة هيئته فقد جثم القبطان فلينت على كتفه وراح يردّد بلا نهاية كلمات بحرية

دون معنى. كان طباخ السفينة قد شدّ حبلاً حول خصري، وكان يمسك طرفه الآخر فصرت أتبعه مطيعاً، مرة يضعه في يده ومرة بين أسنانه القوية. وأقسم أنني كنتُ أقاد مثل دبّ راقص.

كان بقية الرجال يحملون أشياء مختلفة: فبعضهم يحمل معاول ومجارف، وقد كانت أولى الضروريات التي أنزلوها من الهيسبانيولا إلى الشاطئ معهم، وآخرون يحملون لحم الخنزير والخبز والبراندي من أجل تحضير وجبة الغداء. وقد لاحظت أن مؤونتهم كانت من مخزوننا في الحصن، ورأيت الحقيقة في كلام سيلفر في الليلة الماضية معهم؛ فلو أنه لم يبرم صفقة مع الطبيب، فإنه مع رفاقه المتمردين المبعدين عن السفينة، سيضطرون للعيش على الماء وعلى أيّ مما سيصطادونه، أمّا الماء فلن يصبرهم إلا قليلاً، فهو ليس مما تستحسنه ذائقتهم، وأما الصيد فإن البحار ليس بصياد ماهر عادة، بالإضافة إلى ذلك أنه لو شحّ ما عندهم من الغذاء فمن المرجح أن يشحّ ما عندهم من البارود.

هكذا، وبهذا النحو من التجهيز والاستعداد انطلقنا جميعنا، حتى ذلك الرجل الذي أصيب في رأسه، الذي من المؤكد أنه ينبغي عليه أن يبقى في الظل، انتشرنا واحد بعد الآخر نحو الشاطئ، حيث كان قارباً الغيغ بانتظارنا، وقد كانا يحملان آثار عريضة وثمالة القراصنة، فكان أحدهما مكسوراً من مقعد المجذّف، وكلا القارين كانا موحلين ومحمّلين بالماء. ولكن توجّب علينا ضمانه لسلامتنا أن نركبهما، لذا توزعنا في مجموعتين، وشرعنا إلى قلب المرسى.

أثناء التجذيف دار نقاش حول الخريطة، حيث أن الصليب الأحمر أكبر من أن يكون علامة، أما كلمات الملاحظة التي كتبت على ظهر الورقة فقد كان يلفها الغموض كما استسمعون، وكما يتذكرها القارئ: «شجرة طويلة، على كتف السپاي غلاس، في النقطة: الشمال، من شمال. شمال. شرق».

«جزيرة الهيكل العظمي، شرق. جنوب. شرق، من الشرق».
«عشرة أقدام».

وبهذا تكون «الشجرة الطويلة» هي العلامة الرئيسية. وقد أضحي المرسى الآن أمامنا مباشرة ومحدداً بهضبة ترتفع حوالي مائتي قدم إلى ثلاثمائة، وتحاذي من الشمال حافة السپاي غلاس المنحدرة الجنوبية، ثم ترتفع ثانية باتجاه الجنوب حتى يأتي تلٌ وعرٌّ وصخري يدعى تل صاري المؤخرة. وقد نبتت بكثافة فوق الهضبة أشجار الصنوبر بارتفاعات متنوعة، والتي كانت تتخللها هنا وهناك أشجار أخرى من فصائل مختلفة ترتفع عمّا يجاورها بأربعين أو خمسين قدماً. ولا يمكن تحديد أية واحدة من بين هذه الأشجار كانت «الشجرة الطويلة» التي ذكرها القبطان فلينت، إلا في نقطة الإحداثيات المعينة نفسها وبالبوصله.

ولكن مع كون الحال على ما كان عليه، إلا أن كل رجل على القارب قد اختار شجرة معينة حتى قبل أن تقطع نصف الطريق، إلا جون الطويل فقد استهجن ما كانوا يفعلونه وطلب منهم أن ينتظروا حتى يصلوا إلى المكان.

كنا نجذب بتأن بأوامر من سيلفر لكي لا يتعب البحارة قبل الأوان، وبعد أن عبرنا ممراً طويلاً، رسونا عند مصب النهر الثاني الذي كان يجري تحت صدع مُشجر من تل السپاي غلاس. ثم استدرنا إلى يسارنا، وبدأنا عندها نرتقي المنحدر المؤدي إلى الهضبة.

وقد تأخر مسيرنا في أول الطريق لأن الأرض كانت ثقيلة وموحلة، وقد أعاقت مشينا نباتات مستنقعية متشابكة، ولكن شيئاً فشيئاً أخذ التل ينحدر حتى صارت الأرض ذات طبيعة صخرية تحت أقدامنا، وتغير مظهر الأشجار وخصائصها فانتشرت في مساحات مفتوحة. فكان الجزء الذي اقترينا منه من أجمل البقاع على الجزيرة، فقد عبق في المكان شذى أشجار البروم الثقيل، وحلت الشجيرات المزهرة محلّ العشب. وانتشرت أشجار جوزة الطيب الخضر، وتخللها هنا وهناك أعمدة الصنوبرات الحمر ذات الظل الوارف، وهكذا فقد اختلط بهار جوزة الطيب مع عبق بقية الأشجار. كان الهواء إلى ذلك منعشاً ومثيراً، وكلّ هذا، بالإضافة إلى كوننا تحت أشعة الشمس الشفافة، أنعش وأبهج حواسنا بشكل رائع.

تفرق الجمع وانتشروا على شكل مروحة وهم يصيحون ويتفافزون هنا وهناك. كان سيلفر في المركز على مسافة بعيدة خلفهم، وكنت أتبعه مربوطاً بحبلي وهو يحرث الأرض في مشيه بين الحصى المنزقة. وبين الحين والآخر كان يتوجّب عليّ أن أمدّ يدي إليه لأساعده، وإلا فإنه سيتعث ويقع أسفل التل.

وهكذا تقدّمنا لمسافة نصف ميل، وكنا نقرب من حافة الهضبة

عندما صرخ الرجل الذي كان في أقصى اليسار، كما لو أنه كان مرعوباً. وقد تابعت صرخاته الواحدة إثر الأخرى، فركض البقية باتجاهه.

قال مورغان العجوز وهو يركض مسرعاً حتى تجاوزنا من جهة اليمين:

- لا يمكن أن يكون قد عثر على الكنز هناك، فتلك هي القمة.

وبالفعل تحققنا من قوله عندما وصلنا إلى المكان ووجدنا شيئاً آخر مختلفاً تماماً، فقد كان هناك هيكل عظمي لإنسان، ممدوداً عند جذع صنوبرية ضخمة ولم يبق من ملابسه إلا المزق، وقد تشابك نبتٌ أخضر زاحف مع الهيكل حتى أنه رفع من الأرض بعضاً من العظام الصغيرة. ولا ريب أن قشعريرة الرعب سرت في كل القلوب للحظة.

اقرب جورج مورغان الذي كان أجراً من البقية من الهيكل وراح يفحص الملابس البالية وقال:

- لقد كان بحاراً. على أية حال هذه ملابس بحارة جيدة.

فقال سيلفر:

- آي آي، إنه بخار بالتأكيد، فلعلك تبحث عن أسقف هنا. ولكن أية وضعية هذه التي تمددت عليها العظام؟ إنها ليست طبيعية.

وبالفعل، فعند إلقاء نظرة ثانية سيكون من المستحيل عليكم أن تتخيلوا أن ذلك الجسد كان في وضع طبيعي. ولو لا بعض عوامل

الفوضى حوله (ربما انقضاض الجوارح على جسده لتأكل منه، أو
النبت الزاحف بطيء النمو الذي كان قد غطى رفاتة) فالرجل كان
ممدداً على طوله في وضع مستقيم تماماً؛ قدماء تشيران إلى اتجاه معين،
ويداه مرفوعتان فوق رأسه كالغواص، تشيران إلى الاتجاه المعاكس
لاتجاه قدميه.

قال سيلفر:

- لقد خطرت في جمجمتي البليدة فكرة. هذه هي البوصلة،
تلك قمة جزيرة الهيكل العظمي تبرز كالسن. كل ما عليكم
أن تفعلوه هو أن تمدوا خطأً مستقيماً على امتداد عظامه.

و حين نُفِّذت أوامره كان الأمر مقضياً، فالجثة أشارت بشكل
مستقيم نحو الجزيرة، وقرأت إبرة البوصلة بالتمام والكمال النقطة:
شرق. جنوب. شرق. من الشرق.

صاح الطباخ:

- كما تخمنت، هذا هنا هو الدليل، وهناك في الأعلى وجهتنا نحو
نجم القطب والكنز. ولكن، بحق الرعد! كيف يثلج صدري
التفكير بفلينت. إن هذه ولا ريب واحدة من دعاياته، فقد
كان وحده مع هؤلاء الستة هنا، فقتلهم كلهم، وسحب جثة
هذا الرجل إلى هنا وجعل منها مؤشراً للبوصلة. إنَّ عظامه
طويلة، وشعره أشقر، فلترعد أخشابى إن لم يكن ذلك هو
الآرديس! هل تذكر الآرديس يا توم مورغان؟

فأجاب مورغان:

- آي آي، أنا أتذكره، لقد كان يُدين لي ببعض المال، كما أنه أخذ معه سكييتي عندما نزل إلى الشاطئ.

وقال آخر:

- بالحديث عن السكاكين، لماذا لا نجد سكينه بجواره؟
فإن فلينت ليس من نوعية الرجال الذين يسرقون جيوب البحارة، وأعتقد أن الطيور ستدعها وشأنها.

فصاح سيلفر:

- إنك وبحق السماء لمحق!

قال ميري الذي كان لا يزال يفتش بين عظامه:

- لم يبق أي شيء هنا، لا كوبر دويت^(١) واحدة ولا حتى صندوق تبغ، هذا لا يبدو أمراً طبيعياً بالنسبة لي.

فوافق سيلفر قائلاً:

- كلا بحق الرب، هذا ليس طبيعياً ولا حتى لطيفاً، إن هذا لشيء عجب!^(٢)، لكن لو كان فلينت حياً لكننا في ورطة لا نجاة منها، أنتم وأنا. لقد كانوا ستة رجال، ونحن كذلك ستة، وها هم الآن أكوام من العظام.

قال مورغان:

(١) copper doit: عملة هولندية صغيرة من النحاس. والمقصود هنا ليس معه ولا أقل مبلغ.

(٢) Great guns: تعبير عن الدهشة أو التعجب.

- لقد رأيته ميتاً بأم عيني. لقد أخذني يبلي إلى حيث كان
يضطجع ميتاً وعلى كل واحدة من عينيه بنس^(١).

فقال الرجل ذو الضمادة في رأسه:

- لقد مات بالتأكيد، ودُفن، ولكن لو قيّض لأية روح أن تعود
لتمشي، فستكون روح فلينت. لقد مات ميتة سيئة، ويح
قلبي!

وقال آخر:

- آي، لقد مات ميتة سيئة، لقد كان على فراش موته مرة يثور،
ومرة يصرخ طالباً الروم، ومرة يغني «خمسة عشر رجلاً»،
لقد كانت هذه أغنيته الوحيدة المفضلة يا رفاق، وصدقوني
لم يطب لي سماع هذه الأغنية من بعده أبداً. كان الجو قائظاً
ففتحت النافذة، لذا كانت الأغنية تصل إلى مسامعي
واضحة، مع أن الرجل كان يرفع شراعه للمرة الأخيرة^(٢).

قال سيلفر:

- هيا، هيا، دعكم من هذا الحديث، إن فلينت قد مات، لم
يعد يمشي ولن يعود، هذا ما أعرفه، وعلى الأقل لن يمشي

(١) تقول بعض الأساطير أن على أقارب المتوفي أن يضعوا معدنية على كل عين من
عيون الميت، لكي تكون أجراً لعامل العبارة كارون، الذي ينقل روح الميت إلى العالم
الآخر.

(٢) death-haul: التغيير أو التعديل الأخير على الشراع. أي أنه كان يتنازع الموت.

خلال النهار يقيناً. إنّ الحذر غلب القطط^(١). فحريّ بكم
البحث عن الدبلونات.

ثم شرعنا في البحث بالتأكيد، ولكن بالرغم من حرارة الشمس
وضوء النهار الساطع، فإن القراصنة لم يتفرقوا في الغابة ولم يعودوا
للصياح، بل ظلوا مجتمعين أحدهم يلزم جانب الآخر، وكانوا
يتحدثون بهدوء وبأنفاس مكتومة. فقد وقع الهلع من القرصان
الميت في قلوبهم.

(١) Care killed a cat: مثل يعني القلق الكثير الذي يثقل كاهل المرء.

البحث عن الكنز - الصوت بين الأشجار

جلست المجموعة كلها حالماً وصلوا إلى حافة المرتفع بسبب التأثير المحبط للرعب الذي أصابهم، ولكي يستريح سيلشر والرفاق المعتلين من جهة ثانية.

ولكون الهضبة تميل قليلاً ناحية الغرب، فإن البقعة التي استرحنا عليها منحتنا إطلالة عريضة على الجهتين. فأمامنا خليج الغابات وقد هدّبه الأمواج، وخلفنا لم نكن نرى المرسى وجزيرة الهيكل العظمي فحسب، بل كنا نرى أيضاً - عبر اللسان الرملي والأراضي المنخفضة الشرقية - منظرًا واضحاً للبحر المفتوح على الشرق. وارتفع فوقنا تلّ السپاي غلاس بصورة عمودية، فهنا نراه منقوشاً بأشجار الصنوبر التي تنتصب منفردة، وهناك نراه معتماً عند المنحدرات السحيقة. ولم يكن ثمّة من صوت سوى ما يصعد إلى أسماعنا من تلاطم الأمواج البعيدة من كل مكان حولنا، وهسهسة عدد لا يحصى من الحشرات بين الأجمات. وما من أثر لإنسان ولا لشراع في البحر، فكانت رحابة المشهد بحد ذاتها تزيد من إحساسنا بالعزلة.

وكان سيلفر أثناء جلوسه يقوم ببعض القراءات ببوصلته. قال:

- هنالك ثلاث «شجرات طوال» على الخط المستقيم من جزيرة الهيكل العظمي. وأعتقد أن «كتف السپاي غلاس» هو تلك النقطة المنخفضة هناك. لقد تيسرت مسألة العثور على الكنز حتى لم تعد سوى لعبة أطفال، لذا أرى أن نأكل الطعام أولاً.

فتذمر مورغان قائلاً:

- لا أرغب بتناول الطعام، لست بخير، إن التفكير بفلينت أعياني.

فقال سيلفر:

- ها! أهكذا؟ إذن فلتشكر نجم حظك إنه ميت يا ولدي.

فصاح قرصان ثالث بنبرة مرتعشة:

- لقد كان شيطاناً قبيح المنظر أزرق الوجه!

فأضاف ميري:

- هكذا أطاح به شرب الروم حتى أهلكه! نعم، لقد كان أزرق الوجه بالفعل، هذه حقيقة.

ومنذ أن عثروا على ذلك الهيكل العظمي وشتى الأفكار تعصف بهم، فراحوا يتكلمون بصوت أهدأ وأهدأ، حتى أضحى حديثهم همساً بالكاد يؤثر على سكون الغابة.

بينما نحن كذلك وإذا بصوت حاد ورفيع ومرتجف يطرق
أسماعنا فجأة من خلال الأشجار التي أمامنا، وكان الصوت يردّد
الأغنية إياها بنفس الكلمات وبنفس اللحن:

خمسة عشر رجلاً على صندوق الرجل الميت

يوو هوو ورجاجة روم.

ولم أر في حياتي قوماً يجتاحهم الرعب أكثر من هؤلاء القراصنة
حينها، فقد شحبت وجوه الرجال الستة كما لو كانوا مسحورين،
وراح بعضهم يقفز وبعضهم ينشب أظفاره متشبثاً بتلابيب الآخر،
أما مورغان فقد انبطح ووجهه على الأرض، وصاح ميري:

- إنه فلينت! بحق الـ...

ثم توقفت الأغنية فجأة كما بدأت، أو إنها انقطعت إذا صحّ
التعبير في وسط المقطع الغنائي، كما لو أن أحدهم وضع يده على
فمّ المغني. وقد تبدى لي الصوت أكثر بهجة وطلاوة وهو يصدح
في هذا الجو الصافي المشمس وبين قمم الأشجار الخضراء، ولكن
تأثيره على رفاقي كان غريباً.

فقال سيلثر وهو يعاني في نطق الكلمة من بين شفثيه الشاحبتين:

- هيا، ليس في هذا من فائدة، استعدوا لنمضي قدماً. إنّ
هذا بلا شك بسبب من تأثير الروم، ولا يمكنني أن أميّز
الصوت لكن لا ريب أنها دعابة من أحدهم، إنسان من لحم
ودم، يقيناً.

كان قد استعاد شجاعته وهو يتكلم، واستعاد معها أيضاً شيئاً من لون وجهه. وبدأ الآخرون يستمعون إلى حديثه المشجع، ويستعيدون رباطة جأشهم ويثبون إلى رشدهم، وإذا بذلك الصوت يصدح ثانية ولكنه لم يكن غناءً هذه المرة بل كان نداءً خافتاً بعيداً، فرجعت شقوق ومنحدرات السبائي غلاس الصدى بوقع أكثر خفوتاً.

كان الصوت ينوح قائلاً:

- داربي مغراو!^(١)

وأقول ينوح لأن هذه الكلمة هي أفضل وصف للصوت.

وبقي يردد مرة تلو الأخرى:

- داربي مغراو! داربي مغراو!

ثم ارتفع الصوت قليلاً، وبعد أن ردد لعنة لن أذكرها، قال:

- أحضر الروم يا داربي!

لبث القراصنة مسمرين في الأرض، وكادت عيونهم تجحظ من رؤوسهم. وحتى بعد أن تلاشى الصوت بفترة طويلة فإنهم بقيوا محدقين إلى الأمام صامتين مرعوبين.

شهق أحدهم قائلاً:

(١) Darby M'Graw: في نسخة أوكسفورد من الرواية، فإن داربي م غراو هو داربي مولين واحد من أفراد طاقم القبطان كيد. ولقد أعدم مع القبطان وخمسة آخرون شنقاً في رصيف الإعدام، وبعد إعدامهم ربطوا جثثهم بالسلاسل وعلقوها فوق النهر أمام انظار الجميع لعدة سنوات.

- هذا يحسم الأمر! هيا فلنذهب.

فتنهذ مورغان قائلاً:

- لقد كانت هذه آخر كلماته على ظهر السفينة.

كان ديك قد أخرج كتابه المقدس وبدأ بالصلاة بصوت جهوري وبكلمات متلاحقة سريعة. لقد كان ديك ولدًا صالحًا حسن النشأة، قبل أن يقدم إلى البحر ويقع بين تلك الصحبة السيئة. أما سيلفر فما زال ثابتاً لا يُقهر، ورغم أنني كنت أسمع أسنانه تصطك في رأسه، إلا أنه لم يستسلم.

تمتم قائلاً:

- ما من أحد على هذه الجزيرة قد سمع عن داربي قط، ثم أن لا أحد غيرنا هنا.

ثم وبعد جهد جهيد رفع صوته قائلاً:

- أيها الرفاق، أنا هنا لأحصل على ذلك الكنز، ولن يهزمني إنسان أو شيطان. فأنا لم أخف من فلينت في حياته، وإنني وبحق السماء سأواجهه ميتاً. هنالك سبعمئة ألف پاوند قابعة ليس بأبعد من ربع ميل من هنا. فمنذ متى يولي قرصان ظهره معرضاً عن ذلك القدر من المال، خوفاً من بحار عجوز سكير أزرق الوجه^(١)، وفوق ذلك ميت؟

(١) يبدو أن فلينت كان معتاداً على شرب الروم بكثرة، الأمر الذي أدى إلى تكسر الشعيرات الدموية في فصار وجهه مزرقاً.

لكن لم تظهر أية علامة على أنه نجح في إيقاظ الشجاعة مرة أخرى في نفوس أتباعه، بل بالعكس كان رعبهم يزداد بسبب كلماته التي تدل على الاستخفاف والاستهانة.

قال ميري:

- الزم حدّك يا جون! لا تستهن بالأرواح ولا تُغضبها!

أما البقية فقد أجمهم الرعب الشديد عن الجواب، ولو أنهم تجرؤوا والتفرّقوا وهربوا شتاتاً، ولكن الرعب أبقاهم ملازمين بعضهم، وملازمين لجون، كما لو أنّ جرأته كانت تُعينهم. أما من جانبه، فقد غالب سيلفر ضعفه حتى تغلّب عليه. وقال:

- أرواح! حسناً ربما كانت كذلك، ولكن هنالك شيء واحد لم أفهمه؛ لقد كان هناك صدى، ولم يسبق لأحد أن رأى روحاً لها ظلّ قط، فإذا كانت كذلك فمن أين للروح بصدى للصوت؟ هذا ما أودّ أن أعرفه، فليس هذا بأمر طبيعي، بالتأكيد.

لقد كانت حجته ضعيفة في نظري، ولكن لا يمكنكم أن تحزروا أبداً ما الذي يؤثر في نفوس المؤمنين بالخرافات، ويا لعجبي عندما رأيت أن هذا قد بعث في نفس جورج ميري الطمأنينة. فقال:

- حسناً، أنت رجل عاقل^(١) وما تقوله صحيح ولا ريب من ذلك. ولكن يا رفاق السفينة إنّ هذا الطاقم قد أضلّ به،

(١) You've a head upon your shoulders. ورد شرح العبارة سابقاً.

إنه على المسار الخطأ، وعندما أفكر بالأمر ملياً فإن الصوت يشبه صوت فلينت وهذا أمر مسلّم به، إلا أنه لم يكن واضحاً كصوت فلينت، كأنه صوت شخص آخر، إنه يشبه صوت..

وهنا زجر سيلفر قائلاً:

- بحق السماء إنه بين غان!

فصاح مورغان وهو ينتصب على ركبتيه:

- آي، إنه هو، إنه بين غان!

فسأل ديك:

- أهذا من المرجح؟ لأن بين غان ليس هنا، مثلما أن فلينت ليس هنا.

لكن البحارة القدامى استقبلوا تعليقه بالازدراء.

صاح ميري:

- لا عليكم من بين غان، سواء كان حياً أو ميتاً، لا عليكم منه!

كانت رؤيتهم وهم يستعيدون همّتهم ولون وجوههم الطبيعي أمراً استثنائياً. وسرعان ما صاروا يتحدثون مع بعضهم، وبين الحين والآخر يتوقفون للاستماع، ولما مضت فترة من الوقت لم يسمعوا خلالها شيئاً، حملوا أدواتهم على أكتافهم وانطلقوا ثانية، فكان ميري يتقدمهم ومعه بوصلة سيلفر لكي يُبقي الجميع على

المسار الصحيح مع جزيرة الهيكل العظمي. وقد كان صادق في قوله إن لا أحد يكثرث بأمر بين غان، حياً كان أم ميتاً.

وحده ديك ظل قابضاً على الكتاب المقدس، وهو يتطلع حوله كلما مشى بنظرات خائفة مترقبة، لكنه لم يجد أي تعاطف من رفاقه، حتى أن سيلفر سخر منه ومن احتياطاته. فقال له:

- لقد قلت لك أنك أفسدت الكتاب المقدس، أما وقد صار لا يصلح حتى للقسم به فهل تحسب أن الأرواح تخشاه أو تعبأ به؟ لا، لن يحصل ذلك.

ثم أنه فرقع أصابعه الكبيرة وتوقف على عكازه للحظة.

ولكن ديك لم يكن يشعر بالارتياح، فقد ظهر لي واضحاً أن حالته كانت تتدهور، وأنه على وشك الوقوع في المرض، وقد عجلت حرارة الجو والإرهاق وصدمة الرعب من سريان الحمى التي تنبأ بها الطبيب ليفزي، فصارت حرارته ترتفع بسرعة.

لقد كانت مسيرتنا هنا في القمة على أرض مفتوحة وواسعة، وكان طريقنا يتحدّر إلى الأسفل، إذ كما قلت إن الهضبة كانت تميل إلى الغرب قليلاً. وقد نمت أشجار الصنوبر الكبيرة والصغيرة التي يفصل بينها وبين الأخرى مسافة عريضة. وكان هناك بين أجمات شجر جوز الطيب وشجر الأزالية مساحات واسعة مفتوحة يشد سطوع الشمس عليها. كنا نمشي في طريقنا إلى الشمال الغربي عبر الجزيرة، فمن جهة كنا نقرب أكثر من أي وقت مضى من كتف السپاي غلاس، ومن الجهة الأخرى كنا مطلين على مشهد واسع

من الساحل الغربي حيث كنت ذات مرة اتخبط بين الأمواج في قارب الكوراكل.

وصلنا إلى أولى الشجرات الطوال، وأثبتت قراءة الإحداثيات أنها ليست الشجرة المقصودة، وكذلك الشجرة الثانية. أما الثالثة فقد ارتفعت بحوالي مائتي قدم فوق الأجمات التي تنمو تحتها، وهي شجرة عملاقة بجذع أحمر بحجم كوخ، وحوها ظلال وارفة يمكن لسرية جيش أن تناور فيها. وكانت واضحة للعيان من البحر من الجهتين الشرقية والغربية، وقد يكون أنها رُسمت على الخريطة كي تكون دليلاً للإبحار.

ولم يكن لضخامتها أن تثير اهتمام رفاقي، بل علمهم أن هنالك ذهباً بقيمة سبعمائة ألف باوند كان مدفوناً في مكان ما تحت ظلها مترامية الأطراف. وكلما اقتربوا كان الرعب الذي أصاب قلوبهم سابقاً ينجلي بالتفكير بالمال، فاحترقت مقلهم في رؤوسهم، وصارت أقدامهم أسرع وأنشط، وأرواحهم معلقة بتلك الثروة وبذلك الحياة الطويلة من الترف والمسرات التي تنتظر كل واحد منهم.

كان سيلفر يعرج على عكازه وهو ينخر وقد انتصبت خياشيمه وراحت ترتجف، ثم يصب لعناته كمجنون عندما يحطّ الذباب على وجهه المحموم اللامع، وكان يجذب الحبل الذي يربطني به بغضب، وبين الحين والآخر كان يرمقني شزراً بنظرات قاتلة. ومن المؤكد أنه لم يتجشم عناء إخفاء أفكاره، فمن المؤكد أنني قرأتها كما لو أنها

مطبوعة؛ فإنه باقترابه من الذهب نسي كل شيء آخر، وأضحى وعده وتحذير الطيب شيئين من الماضي، ولم يكن ثمة من شك يراودني من أنه كان يريد أن يستولي على الكنز، ثم يجد الهيسبانيولا ويبحر بها تحت جناح الظلام، بعد أن يذبح عنق كل رجل شريف على هذه الجزيرة، ليقلع بها في عرض البحر كما نوى منذ البداية، محملاً بالجرائم والثروات.

ولأنني كنتُ مرتاعاً من الأخطار التي ترتبص بي، فقد كان من الصعب عليّ مجازاة صيادي الكنز هؤلاء في سرعة سيرهم. فكنت أتعثر بين الحين الآخر، وعندها يجزّ سيلفر الحبل بقسوة ويرميني بنظراته القاتلة. أما ديك الذي تحلّف وراءنا فقد راح يهذر مع نفسه الصلوات واللعنات في آن واحد، فيما كانت الحمى ترتفع في جسده. وزيادة لبؤسي، وتوخيماً لشقائي، فقد كانت تطاردني المأساة التي حدثت مرة على تلك الهضبة، عندما قتل القرصان الفاسق ذو الوجه الأزرق -الذي مات في السافانا وهو يغني ويصرخ طالباً بالشراب- ستة من شركائه بيده. ولا بدّ من أن هذا البستان الذي هو اليوم في غاية السكينة والدعة قد ردّد صدى صرخاتهم، وحتى في خضم أفكارني خيّل إليّ أنني ما زلت أسمع الصدى يرن حتى حينها.

وصلنا إلى حافة الغابة، فصاح ميري:

- هلموا أيها الرفاق جميعكم!

فركض من كان في الطليعة منهم.

وبعد عشرة ياردات رأيناهم وهم يتوقفون فجأة، ثم ارتفعت

صيحة خافتة، فضاغف سيلفر من سرعته وكان يحفر بعقب عصاه الأرض كما لو كان ممسوساً، وفي اللحظة التالية كنا أنا وهو واقفين في مكاننا بلا حراك.

فأرأينا أمامنا حفرة كبيرة لم يمض عليها وقت طويل، لأن جوانبها كانت قد انهارت ونما العشب في قاعها. وكان فيها مقبض معول مشطور إلى نصفين، وعدة ألواح من صناديق الشحن مرمية في الأرجاء. وقد رأيت على واحدة من هذه الألواح وسمّاً بالحديد الحامي عليه كلمة (والراس)، وكان هذا هو اسم سفينة فلينت.

بات الأمر إذن واضحاً للعيان وبالذليل القاطع، فقد عُثر على الكنز المخبوء ونُهب، وقد ضاعت السبعمئة ألف باوند!

(٣٣)

سقوط الزعيم

لم يحدث في العالم بأسره أشدّ من هذه الانتكاسة، فكان كل واحد من هؤلاء الرجال الستة قد نزلت عليه صاعقة، إلا سيلفر، فقد اجتاز الضربة في الحال. كان قد كرّس كل فكرة تراوده على ذلك المال كما لو أنه في سباق، ومع أنه بدأ مصروراً للحظة، لكنه تمالك نفسه وأعصابه وعدّل من خطته حتى قبل أن يتسنى للآخرين أن يدركوا حجم خيبتهم.

همس لي قائلاً:

- خذ هذا يا جيم واستعدّ للمتاعب!

ثم ناولني مسدساً مزدوج الماسورة.

في الوقت نفسه جعل يتحرك بهدوء نحو الشمال، وبعد عدة خطوات صارت الحفرة بيننا نحن الاثنين وبين الخمسة الآخرين، ثم نظر نحوي وأوماً إليّ كما لو أنه يقول: «نحن في وضع خطير». وظننت أننا بلا ريب في موقف خطير. صارت نظراته ودية للغاية،

فأصابني هذا التقلب المستمر بالاشمئزاز والضيق، لذا لم أتمالك نفسي من أن أقول له همساً: «ها أنت ذا تعير ولاءك ثانية».

ولكن لم يكن أمامه متسع من الوقت ليجيبني، فقد قفز القراصنة واحداً تلو الآخر إلى الحفرة وهم يصيحون ويكيلون اللعنات والشتائم، ثم راحوا ينبشون الأرض بأظافرهم وهم يقذفون الألواح، فعثر مورغان على قطعة ذهبية، حملها وهو يطلق سيلاً من اللعنات. وكانت قطعة من فئة الجنيهين، فتلقفوها وظلت تدور من يد إلى يد حوالي ربع دقيقة.

ثم رفع ميري القطعة وراح يهزها في وجه سيلفر وزمجر قائلاً:
- جنيهان! أهذا هو كنزك ذو السبعمائة ألف پاوند الذي منيتنا به؟ أيها المساوم العتيد؟ يا من لا يخفق في شيء. أيها البحار الأخرق الغبي!

فقال سيلفر بنبرة متغطسة ملؤها الوقاحة:

- استمروا بالحفر أيها الفتية! فلن يفاجئني لو أنكم ما عثرتم إلا على بعض الجوز!

استشاط ميري غضباً وصرخ وهو يعيد قول سيلفر:

- بعض الجوز! هل سمعتموه أيها الرفاق؟ ألا فلاخبركم أن هذا الرجل على علم بهذا الأمر منذ البداية. وما عليكم إلا أن تنظروا إلى وجهه وستقرؤون ذلك كما لو كان مكتوباً على ملاحظه.

فعلق سيلفر قائلاً:

- أوه ميري، أتقف ضد القبطان ثانية؟ أنك وبلا ريب لرجل
لحوح.

بيد أنهم هذه المرة كانوا جميعاً في صف ميري. فبدؤوا يخرجون
من الحفرة، وعيونهم تقدح شرراً من الغضب. ثم أنني انتبهت إلى
شيء وحيد كان من صالحنا، أنهم كلهم كانوا في الجهة المقابلة إلى
حيث يقف سيلفر.

وهكذا وقفنا جميعنا، اثنان من جانب وخمسة من الجانب
الآخر، تفصلنا الحفرة، ولم يجسر أحد على أن يسدّد الضربة الأولى.
أما سيلفر فقد مكث في مكانه دون أن يأتي على حركة، وراح يتطلع
فيهم، منتصباً على عكازه، وقد تبدى لي حينها وكأنه كان في أقصى
درجة من الهدوء رأيت فيها على الإطلاق. لقد كان بلا ريب رجلاً
شجاعاً.

في النهاية خطر لميري أن يخطب في رفاقه، فأنشأ قائلاً:

- أيها الرفاق، إنها اثنان وحيدان، أحدهما ذلك الأعرج
العجوز الذي أتى بنا إلى هنا وجعلنا نتخبط معه حتى
أوصلنا إلى ما نحن عليه، والآخر هو ذلك الجرو الذي أنوي
أن أقتلع قلبه. والآن أيها الرفاق..

وكان قد رفع ذراعه وصوته، ومن الواضح أنه كان ينوي أن
يباشر الهجوم، ولكن فجأة: طاخ، طاخ، طاخ، دوت ثلاث طلقات

بنادق من جهة الغابة. فهوى ميري على رأسه إلى الحفرة، أما الرجل ذو الضمادة فقد دار حول نفسه كمرصاع وسقط على جانبه ميتاً ولكنه ما زال يرتعش، أما الثلاثة الآخرون فقد ولّوا الأدبار بكل ما عندهم من قوة.

وقبل أن يرتد إليكم طرفكم كان جون الطويل قد أطلق النار من مسدسه ذو الماسورتين على ميري الذي كان ينازع الموت حينها، وعندما كان الرجل يغلق عينيه في سكرة الموت قال له سيلثر:
- ها قد سوّيت حسابي معك يا جورج.

عندها خرج إلينا من بين أشجار جوز الطيب كلّ من الطيب وغراي وبين غان، ثم انضموا إلينا وبنادقهم ما زالت مدخنة.
صاح الطيب:

- هلموا بسرعة يا رفاقي. علينا أن نسبقهم إلى القوارب.
انطلقنا بوتيرة سريعة حتى صرنا نخوض بين الأدغال حتى الصدر.

وأشهد وكذلك يشهد الطيب أنّ سيلثر كان حريصاً على مجاراتنا، وقد بذل جهداً في سبيل مواكبتنا لا يمكن لأي رجل آخر سليم البنية أن يضاهيه، فقد راح يقفز على عكازه حتى أن عضلات صدره كادت أن تتمزق. كان متخلفاً عنا بحوالي ثلاثين ياردة، وكان على وشك أن يجرّ مختنقاً عندما وصلنا إلى حافة المنحدر.

فنادى قائلاً:

- أيها الطبيب، أنظر! ما من حاجة بعد تدعو إلى العجلة!

وبلا شك، فلم تكن هناك من حاجة إلى العجلة، إذ رأينا الناجين الثلاثة في الجزء المفتوح من الهضبة وكانوا لا يزالون مستمرين في ركضهم في الاتجاه نفسه الذي شرعوا فيه، مباشرة نحو تل صاري المؤخرة. وقد صرنا الآن نقطع طريقهم إلى القوارب، لذلك جلسنا أربعتنا لنتلقت أنفاسنا، فيما لحقنا ببطء جون الطويل حتى انضم إلينا وهو يمسح وجهه.

قال:

- لك وافر شكري أيها الطبيب. فقد أتيت في آخر لحظة لإنقاذنا أنا وهو كينز.

ثم أردف وهو يوجه كلامه إلى بين غان:

- إذن أنت هو بين غان! حسناً، من المؤكد أنك رجل لطيف.
فأجاب الرجل الماروني وهو يتلوى كثعبان بحر من فرط إحراجه:

- نعم، أنا بين غان!

ثم أضاف بعد صمت طويل:

- كيف حالك يا سيد سيلقر؟ بخير، أشكرك، هكذا ستقول.

فغمغم سيلقر قائلاً:

- بين يا بين! أظنك غلبتني!

أرسل الطبيب غراي لإحضار واحدة من المعاول التي تركها القراصنة خلفهم عندما قرّوا، وعندما رحنا ننحدر على مهل إلى أسفل التل حيث كانت القوارب؛ روى لنا بوضع كلمات مختصرة ما حدث. وقد سلبت القصة عقل سيلفر وأثارت اهتمامه أيما إثارة، وقد كان بين غان الرجل الماروني نصف الأبله بطل القصة من البداية إلى النهاية.

عثر بين على الهيكل العظمي أثناء تجواله الطويل منفرداً على الجزيرة، وكان هو من سلبه، وهو من وجد الكنز، وهو من نقّب عنه وأخرجه. وكانت تلك ذراع معوله التي وجدناها داخل الحفرة مشطورة إلى نصفين، وكان قد حمل الكنز على ظهره على دفعات في عدة رحلات منهكة، من أسفل شجرة الصنوبر الطويلة إلى كهفه في تل القمتين في الزاوية الشمالية الشرقية من الجزيرة، وقد خبأه هناك في أمان قبل شهرين من وصول الهيسپانيولا.

ثم أن الطبيب عندما استدرجه ليروح بالسر في مساء يوم الهجوم، وكان قد رأى أن المرسى فارغ في الصباح التالي؛ توجه من بعدها إلى سيلفر وأعطاه الخريطة التي أضحت بلا فائدة، وقد أعطاه المؤن أيضاً لأن بين غان قد خزّن في كهفه مؤونة من لحم الماعز الذي ملّحه بنفسه، وكان الطبيب مستعداً ليبذل أي شيء في سبيل أن يحظى بفرصة للابتعاد بأمان عن الحصن إلى التل ذي القمتين حيث سيكونون هناك في مأمن من الملاريا وقريباً من المال لحراسته.

ثم قال:

- أما أنت يا جيم فقد كان ما فعلته رغباً عن إرادة قلبي،
إلا أنني عملت ما رأيته الأصح لأولئك الذين التزموا
بواجبهم، أما وإذا لم تكن واحداً منهم، فعلى من يقع هذا
الخطأ؟

في ذلك الصباح عندما عرف الطبيب أنني سأكون في ورطة
بسبب ما أعدّه للقراصنة من خيبة فظيعة، هرع إلى الكهف تاركاً
الإقطاعي لحراسة القبطان وأخذ معه غراي والماروني، ثم انطلقوا
يسرون على قطر الجزيرة ليصبحوا عند الصنوبرة الطويلة. ولكنه
سرعان ما أدرك أن جماعتنا قد سبقوه، ولما كان بين غان أسرع في
الجري لذا أرسله ليكون في الطليعة ويتدبر ما عساه تدبيراً وحيداً،
فخطر لبين غان أن يستفيد من إيمان صحبه البحارة السابقين
بالخرافات، وقد أفلح في ما فعله، إلى حد أن غراي والطبيب وصلا
قبل صيادي الكنز وكمناهم.

قال سيلفر:

- أوه، لقد كان من حسن حظي أن هوكينز معي. فلولاه أيها
الطبيب لم تكن لتتردد في أن تدعهم يقطعون جون العجوز
إرباً.

فأجاب الطبيب مبتهجاً:

- بلا أدنى شك.

في هذه الأثناء كنا قد وصلنا إلى قاربي الغيغ، فحطم الطبيب

واحداً منها بمعوله، ثم ركبنا جميعنا في القارب الآخر، وأبحرنا نحو الخليج الشمالي.

كانت هذه رحلة من ثمانية أو تسعة أميال، ورغم أن الاعياء كاد أن يقتله، إلا أن سيلفر أمسك مجدافاً وراح يجذف معنا، ثم رحنا ننساب بسرعة على البحر الهادئ. وسرعان ما اجتزنا المضائق واستدرنا حول الزاوية الجنوبية الشرقية للجزيرة، حيث قطرنا الهيسبانيولا قبل أربعة أيام. وحالما اجتزنا التل ذي القمتين كان يمكننا أن نرى الفوهة السوداء لكهف بين غان، وقد وقف بالقرب منها شخص يحمل بندقية، ولم يكن ذلك سوى الإقطاعي، فلوحنا له بمنديل، وهتفنا له ثلاثاً، وانضم صوت سيلفر للهتاف بكل حماسة مع البقية.

وما عسانا أن نرى سوى الهيسبانيولا وهي تمخر الماء وحدها على بعد ثلاثة أميال داخل مصب الخليج الشمالي؟ فقد رفعها الفيضان الأخير، ولو كانت الريح قوية أو لو كان تيار المدّ والجزر عالياً كما هي الحال في المرسى الجنوبي، لما كنا سنراها ثانية أبداً أو لوجدناها محصورة إلى حد يعجزنا عن إنقاذها. لكننا وجدناها على هذه الحال ولم يكن قد أصابها تلف أكثر من التحطيم الذي نال الصاري الرئيسي. فجهزنا مرساة أخرى وألقيناها في الماء وسقطت على عمق لا يتجاوز القامة والنصف. ثم اقلنا راجعين نحو خليج الروم^(١) وهي أقرب نقطة دالة على المكان الذي أودع فيه بين غان

Rum Cove (١)

الكنز، ثم عاد غراي لوحده على قارب الغيغ إلى الهيسبانيولا، حيث سيمضي الليلة في حراستها.

كان هناك مرتفع طفيف يرتفع ممتداً من الشاطئ إلى مدخل الكهف، لاقانا في قمته الإقطاعي. وقد كان طيباً وعطوفاً معي ولم يعلق بشيء عن هروبي، سواء أكان لوماً أو مديحاً. بيد أن وجهه احمر قليلاً عندما حياه سيلثر بكل تهذيب.

فقال:

- أنت يا جون سيلثر شرير يفوق الوصف، ودجال، دجال متوحش يا سيدي. وقد طلبوا مني ألا أقاضيك، لذا لن أفعل. ولكن يا سيدي إنّ ذنب القتلى معلق في رقبتك وإنه لعبء ثقيل كحجر الرحي.

فأجاب جون الطويل:

- وإنني شاكر عطفك يا سيدي.
ثم حياه مرة أخرى.

فصاح الإقطاعي:

- لا تجرؤ على شكري! إنه لإهمال جسيم مني لواجبي.
فتراجع!

وبعدها دخلنا جميعنا الكهف الذي كان مكاناً فسيحاً مفتوحاً للهواء الطلق وفيه ينبوع صغير وبركة ماء صاف، نمت حولها السراخس، أما أرضه فكانت رملية. وقد استلقى القبطان سموليت

أمام شعلة نار كبيرة، وفي الركن البعيد من الكهف لمحت بريقاً من ضوء طفيف يومض في اللهب، وإذا بي أرى أكواماً هائلة من العملات النقدية والسبائك المصنوعة من الذهب. إنه كنز فلينت الذي جئنا في سبيله من مكان قصي، والذي كلّفنا سبعة عشر نفساً من رجال الهيسبانيولا. فيا ترى كم روحاً كلّف جمعه، أية دماء سالت وأية أحزان نزلت، وأية سفن عظيمة غرقت، وأيّ رجال شجعان ساروا على الألواح معصوبي الأعين، كم قذيفة مدفع أطلقت، وأي عار وأكاذيب وقسوة لربما لم يبق رجل على قيد الحياة ليروها أو يحصيها، ومع ذلك، ما يزال هناك ثلاثة ممن ارتكبوها على هذه الجزيرة، وهم سيلفر ومورغان العجوز وبين غان، وقد لاح كل واحد منهم نصيبه من تلكم الجرائم، مثلما كانوا يأملون عبثاً أن يلوحهم نصيب من الكنز.

قال القبطان:

- أقبل يا جيم. أنك لفتى صالح، ولكن لا أظنني سأبحر معك ثانية، فإنك من أولاد المحسوبة بها لا أقوى على تحمّله. أهذا أنت يا جون سيلفر؟ ما الذي أتى بك إلى هنا يا رجل؟

فأجاب سيلفر:

- لقد أتيت لأؤدي واجبي يا سيدي.

فقال القبطان:

- ها!

وكان هذا كل ما قاله.

فيا له من عشاء هذا الذي تناولته ليلتها بين أصحابي، وما أشهاه من طعام لحم الماعز الذي ملّحه بين غان بنفسه مع بعض الأطايب وقنينة من النبيذ المعتق من الهيسبانيولا. وأنا على يقين من أنه لن تكون هنالك صحبة أهنأ بالأ ولا أسعد من صحبتنا تلك. وقد جلس سيلفر خلفنا وهو يكاد أن يكون بعيداً عن ضوء النار إلا أنه كان يأكل بنهم ومتأهباً لأن يشب من مكانه عند أي طلب، بل إنه كان يشاطرنا ضحكنا في هدوء، وقد عاد فأصبح هو نفسه البحار اللطيف المهذب المداهن الذي لازمناه وعرفناه طوال الرحلة.

(٣٤)

النهاية

في صباح اليوم التالي أقبلنا على العمل مبكرين، إذ كان يجب أن ننقل هذه الأكوام الضخمة من الذهب لمسافة ميل برأ إلى الشاطئ، ومن ثم ثلاثة أميال بالقارب إلى الهيسبانيولا، وكانت هذه مهمة جسيمة على عدد قليل من الرجال. أما الرجال الثلاثة الفارون في الجزيرة فلم يعننا من أمرهم الكثير، إذ أن حارس وحيد على كتف التل كان كافياً لتأميننا من أي هجوم مباغت، إلى جانب أنهم نالوا من القتال قدر ما يكفيهم ولا نحسبهم بعائدين.

لذا انهمكنا في العمل بجد ونشاط، فكان غراي وبين غان يسيران بالقارب جيئة وذهاباً، وأثناء غيابهما كان البقية ينقلون الكنز ويكدسوه على الشاطئ. وكانت سبيكتا ذهب معلقتان كل واحدة على طرف حبل حمولة كافية لرجل واحد؛ رجل سيكون مسروراً لحملها والسير بها ببطء. ولأنني لم أكن ذا فائدة في الحمل والنقل، فقد بقيت طوال اليوم في الكهف مشغولاً في تعبئة النقود المسكوكة في أكياس الخبز.

وكانت هنالك مجموعة غريبة ومختلفة من العملات المعدنية مثل مجموعة بيلي بونز، إلا أنها كانت أكبر عدداً وأكثر تنوعاً حتى حسبت أنني لن أحظ بمتعة أكبر من تلك التي حظيت بها أثناء فرزها وتصنيفها، فمنها عملات إنجليزية وفرنسية وإسبانية وبرتغالية، وجورجيات، ولويسات، ودبلونات، وجنيهاً، ومويدورات وسكوينات^(١)، وعليها صور كل ملوك أوروبا على مدار المائة سنة الماضية، وضروباً من القطع الشرقية الغربية الموسومة بما يبدو كضفائر من الخيوط أو شبكة العنكبوت، ومنها قطع مدورة ومنها مربعة، ومنها مثقوبة من الوسط كما لو أنها تُرتدى حول العنق، وعموماً كل نوع من أنواع النقود حول العالم قد وجد لنفسه مكاناً في هذه المجموعة، وبأعداد لا تحصى كأعداد أوراق الخريف، حتى أن ظهري ألمني من طول الانحناء عليها وأصابعي أتعبها فرزها وتصنيفها.

وهكذا استمر العمل يوماً بعد يوم، كانت فيها بحلول كل مساء ثروة مشحونة على السفينة، وثروة بانتظار الغد لتشحن، وخلال كل هذا الوقت لم نسمع شيئاً من خبر القراصنة الثلاثة الناجين.

وأخيراً، وأظن أن ذلك حدث في الليلة الثالثة، كنت والطبيب نتجول على حافة التل التي تطلّ على الأراضي المنخفضة للجزيرة الصغيرة، وعندها نقلت الريح لنا صوت جلبة هي بين الصراخ

(١) moidores and sequins: المويدرات هي عملات برتغالية سكّت في الفترة بين ١٦٤٠ و١٧٤٢، أما السكوينات فعملات إيطالية وتركية من القرن الثالث عشر.

والغناء من جوف الظلام الدامس في الأسفل. إلا أنه لم يصل إلى
أسماعنا سوى نزر يسير، ثم سرعان ما عاد السكون يلف المكان.

قال الطبيب:

- فليغفر الله لهم. إنهم القراصنة!

فعلا صوت سيلفر من خلفنا قائلاً:

- إنهم سكارى يا سيدي!

ويتوجب هنا أن أذكر أن سيلفر مُنح الحرية المطلقة، وبالرغم
من التبكيت والتعنيف الذي كان يتعرض له يومياً، إلا أنه أخذ
يعتبر نفسه مرة أخرى واحداً من التابعين المخلصين. وكان أمراً
مثيراً للعجب رؤيته وهو يصطبر على هذا الاستخفاف والازدراء،
وكيف حرص بتهديب لا يكَلّ من أن يندمج مع الجميع. مع ذلك
فلا أعتقد أن أحداً عامله أفضل مما يعامل كلب، باستثناء بين غان
الذي كان ما يزال يهاب ضابطه القديم، أما أنا، فقد كنت أحفظ له
جميله على الرغم من امتلاكه سبباً وجيهاً لأظن به أسوأ الظنون،
إذ شهدته وهو يعدّ لخيانة أخرى عندما كنا الهضبة، وبناء على ذلك
كان صعباً على الطبيب أن يجيبه دون خشونة.

فقال:

- سكارى أم يهدون.

فأجاب سيلفر:

- أنت محق يا سيدي. لا يفرق عندي ولا عندك أمرهم.

فصاح الطبيب بنبرة هازئة متعالية:

- أظنه من الصعب أن تحملني على أن أسمىك إنساناً، لذا فربما قد تستغرب مشاعري يا سيد سيلفر، ولكن لو تبين لي يقيناً أنهم يهدون - إذ أنني أحسب أن أحدهم لا بدّ وأن أصيب بالحمى - فإنني سأترك معسكرنا وأجازف بنفسي تحت أي تهديد، لكي أقدم لهم العون الطبي.

فقال سيلفر:

- أستمحك العذر يا سيدي ولكنك على خطأ فادح. فلسوف تخسر حياتك، يقيناً. أما وأنا في صفك الآن، قلباً وقالياً^(١)، فإنني لا أريد لهذه الجماعة ان تضعف بفقدان أحد رجالها، ناهيك أن يكون ذلك الرجل هو أنت، بما أنني صرت أدرك ما أنا مدين به إليك. لكن هؤلاء الرجال في الأسفل، لن يفوا بالعهد إذا عاهدوا، حتى لو أرادوا ذلك، أضف إلى أنهم لا يثقون بأحد، على عكسك.

فقال الطبيب:

- لا، أما أنت فرجل تفي بعهدك، كما شهدناك جميعاً.

وقد كان ذلك آخر عهدنا بالقراصنة الثلاثة، لكننا في مرة سمعنا من مكان ناء صوت إطلاق نار فافترضنا أنهم يصطادون، ثم

(١) hand and glove: يداً وقفازاً، تعني العمل معاً، ارتائنا أن نستعمل المثل العربي المعروف قلباً وقالياً بدلاً عنها.

عقدنا اجتماعاً تقرر فيه أننا سنتركهم خلفنا على الجزيرة، وقد طرب
لذلك القرار بين غان أيما طرب، واستحسنه غراي كل الاستحسان.
وتركنا لهم مخزوناً وافراً من البارود والطلقات، وكمية من لحم الماعز
المملّح، وشيئاً من العقاقير الطبية وبعض الاحتياجات الضرورية
الأخرى، كالأدوات والملابس وشراع فائض عن حاجتنا، ولفة من
الخبال بطول قامة أو اثنتين، وبطلب خاص من الطيب أبقينا لهم
بعض التبغ كهدية جميلة.

وكان هذا آخر أعمالنا على الجزيرة، وكنا قبل ذلك قد شحنا
الكنز بأكمله على السفينة، وتزودنا بمؤونة تكفينا من الماء وما تبقى
من لحم الماعز تحسباً لحدوث أيّ طارئ، ثم أننا في صباح يوم جميل
رفعنا المرساة وكان هذا كل ما فعلناه وخرجنا من الخليج الشمالي
رافعين العلم نفسه الذي رفعه وقاتل تحته القبطان في الحصن.

ولا بدّ أن الرجال الثلاثة كانوا يراقبوننا عن كثب وأكثر مما
كنا نتوقع، كما تبين لنا فيما بعد، لأننا عندما كنا نخرج من المضائق
توجّب علينا أن نمّر قريباً من النقطة الجنوبية، وإذا بنا نرى الرجال
الثلاثة وهم راكعين على كتيب من الرمال وقد رفعوا أذرعهم
متوسلين عطفنا. وقد أذهب قلوبنا الحزن أن نضطر لتركهم خلفنا
في تلك الحال من البؤس، ولكننا لم نكن لنجازف بوقوع تمرد آخر،
كما أن اصطحابهم معنا إلى الديار ليواجهوا المشنقة يبدو نوعاً قاسياً
من العطف. فناداهم الطيب وأخبرهم عن المؤن التي تركناها لهم،
ودلّمهم على المكان الذي سيجدونها فيه. لكنهم ظلوا ينادوننا بالأسماء

مستنجدين، ويتوسلون لنا بحق الربّ لكي نرحمهم ولا نتركهم للهلاك في مكان كذاك.

وعندما أيقنوا أنّ السفينة ماضية في مسارها، وقد أضحت تمخر مياه البحر بسرعة مبتعدة عن مرمى السمع، نهض أحدهم - ولم أميز من هو - فأطلق صرخة مدوية غليظة، ثم رفع بندقيته من على كتفه وسدّد إطلاقه صفّرت بالقرب من رأس سيلفر واخرقت الشراع الرئيسي.

على أثر ذلك اختبأنا خلف حواجز السفينة، وعندما رفعت رأسي ثانية لأتطلّع خارجاً كانوا قد اختفوا ثلاثتهم من الكثيب الرملي، بل وحتى الكثيب ذاته بدا كما لو أنه تلاشى عن الأنظار بازدياد المسافة، وكان ذلك نهاية الأمر، ولم يكن قد انتصف النهار بعد عندما، ويا لفرط السعادة التي لا توصف، كانت أعلى صخرة في جزيرة الكنز قد غاصت في زرقة البحر الصافية.

ولأن عددنا كان قليلاً فكان لا بدّ من أن نشترك جميعنا في العمل، باستثناء القبطان الذي ظل راقداً في فراش له في مؤخرة السفينة ويصدر أوامره، إذ أنه كان بحاجة للنقاهاة رغم أنه تعافى كثيراً. وقد وجّهنا السفينة إلى أقرب مرفأ في أمريكا الإسبانية، لأننا لم نحتمل المجازفة بالعودة إلى الديار بلا بحّارة جدد، وبما أن الحال هكذا، فإننا لو واجهنا رياحاً مضطربة أو عاصفة أو عاصفتين شديدتين سنكون كلنا في غاية الإنهاك قبل أن نكمل رحلتنا.

وما كاد الغروب يحلّ حتى ألقينا بالمرساة عند أجمل خليج مغلق،

وسرعان ما أحاطت بنا قوارب مليئة بالأفارقة^(١) والهنود المكسيكيين، والمولدين، ممن يبيعون الفواكه والخضروات، ويعرضون علينا الغوص مقابل حفنة من المال. فكان مشهد الوجوه البشوشة حولنا (وخاصة السود) ومذاق الفواكه الاستوائية وفوق كل شيء الأضواء التي أخذت تشعّ في المدينة؛ كلّ ذلك قد صنع تبايناً ساحراً يسلب اللبّ مقارنة بينه وبين إقامتنا المأساوية والدموية في الجزيرة، ثم مضيت مع الطيب والإقطاعي إلى الساحل لقضاء الوقت المبكر من الليل. وهناك قابلاً قبطان سفينة حربية إنجليزية فتحدثا معه وركبا سفينته وباختصار أمضينا وقتاً طيباً ثم عدنا إلى الهيسپانيولا عندما انبلج الفجر.

كان بين غان على سطح السفينة وحده فما كدنا نركب حتى بدأ يفضي إلينا باعتراف وهو يتلوى بشكل عجيب، ذلك أنّ سيلفر قد رحل وقد تواطأ معه الرجل الماروني في فراره على زورق ساحلي قبل بضعة ساعات، وقد أكد لنا أنه ما فعل ذلك إلا ليقبي على حياتنا، التي كنا سنخسرهما طالما «إنّ ذلك الرجل ذو الساق الواحدة على متن السفينة معنا». ولم يكن هذا كل ما في الأمر، فطباخ السفينة لم يرحل خالي الوفاض، إذ كان قد تسلّل خلال حاجز السفينة عندما لم يكن هناك من أحد ليراقبه، ثم أخذ واحداً من أكياس العملات ولربما كانت قيمته حوالي ثلاثمئة أو أربعمئة جنيه، لكي تعينه في تجواله القادم.

(١) ذكر الكاتب مفردة negroes وارتأينا أن نحيلها إلى المعنى الأقرب على اعتبار أن المفردة هذه بالذات لم تعد مقبولة في وقتنا الحاضر.

وأعتقد أننا كنا جميعاً سعداء لأننا تخلصنا منه بهذا الثمن الزهيد.

ولأختصر القصة أقول إننا تمكنا من الحصول على بعض البخارة معنا، وتوقفنا في رحلتنا إلى الديار، فوصلت الهيسبانيولا إلى بريستول في الوقت الذي أزمع فيه السيد بلانلي على تحضير سفينة أخرى لتبحر إثرها، ولم يعد معها من الذين أبحروا على متنها سوى خمسة فقط، وقد تحقق الانتقام في أغنية «نشب وسيتكفل الشيطان بالباقي»، إلا أننا لم نكن بحالة سيئة كتلك السفينة التي غنوا عنها:

رجل واحد عاد حياً

من خمسة وسبعين أبحروا عليها

لقد أخذ كل واحد منا نصيباً وافراً من الكنز، وكل واحد أنفق حصته بحكمة أو حماقة وفق هواه. أما القبطان سموليت فقد ترك الإبحار. وأما غراي فلم يحافظ على غنيمته فحسب بل أصابته رغبة مفاجئة للارتقاء فطور ودرس مهنته وأضحى اليوم نائب قبطان وشريك في ملكية سفينة كبيرة بثلاث صواري، كما أنه تزوج وصار رب عائلة. أما عن بين غان فقد حصل على ألف باوند وقد أنفقها أو ضيعها في ثلاثة أسابيع، أو بالضبط في تسعة عشر يوماً، لأنه عاد إلى التسول في اليوم العشرين. ثم أنه جعل حارساً فتحقق ما كان يخشى وقوعه عندما حدثني تلك المرة على الجزيرة. وهو ما يزال اليوم على قيد الحياة، ويعيش محبوباً بين الأولاد الريفيين على أنه أضحوكة ومحط سخرية، وصار مغنياً معروفاً في الكنيسة في أيام الأحاد وأعياد القديسين.

أما سيلفر فلم نعد نسمع من أمره من بعد، فذلك البحار العتيد الضخم ذو الساق الواحدة قد خرج من حياتي نهائياً، إلا أنني أذهب في تخمين أنه عاد إلى زوجته الملوثة العجوز^(١)، ولربما يعيش حياة هانئة معها ومع القبطان فلينت. أو أنني أرجو له ذلك، لأن فرصه ضئيلة في أن يحظى بالهناءة في الحياة الأخرى.

أما الفضيات والأسلحة، فما تزال على حد علمي قابعة حيث دفنها فلينت، وفيما يخصني فهي ستظل مدفونة إذ لن أعود إلى تلك الجزيرة الملعونة حتى لو جرجرتني الثيران والعربات بالحبال، وإن أسوأ كوابيسي هو عندما أحلم بهدير الأمواج وهي تتلاطم على سواحلها، أو عندما أنهض من فراشي مذعوراً وصوت القبطان فلينت الحاد لا يزال يرنّ في سمعي وهو يردد: «قطع الثمانية! قطع الثمانية!».

(١) Negress: ارتأينا أن نستعمل كلمة ملونة التي وردت في رسالة السيد تريلاوني في الفصل السابع.

ماذا يمكن أن يقال أكثر عن أشهر قصة قراصنة استحوذت على الخيال الجمعي للقراء الصغار والكبار على حدّ سواء، وعلى مدى قرن ونصف؟ قصة تجاوزت حدود الزمان والمكان ونقشت اسمها مخلداً في التاريخ الأدبي، حتى قيل إنها "رواية معروفة لدرجة أن المرء لا يحتاج إلى قراءتها".

لقد أرسى ستيفنسون في هذه الرواية كبريات دعائم كتب المغامرات، التي كانت لولاه خليقة بأن تظل مجرد حكايات خيالية مسلّية للأطفال، فقد صنع جنساً أدبياً راسخاً ومأثوراً حياً باستخدام لغة واقعية كادت أن تجعل منها قصة ممكنة الحدوث، مستغلاً استعداد القارئ إلى تصديق المستحيل الممكن حدوثه، من خلال وجود عناصر جذيرة بالتصديق.

نُشرت هذه الرواية في البدء على شكل أجزاء في مجلة للأطفال ما بين عامي 1881 و1882. وبالرغم من أنها كُتبت للأطفال، لكنها نالت إعجاب الكبار أيضاً، فأعجبت كلاً من: (مارك توين)، (روديارد كيبلينغ)، (بورخيس) و(هنري جيمس).. وسواهم. وقد قيل عن جزيرة الكنز: "إنها حكاية تعيد الرجل إلى صباه".

ووفقاً لمبدأ (Dead Men Tell No Tales) الذي يقول به القراصنة، فقد جرت الكثير من أحداث هذه الرواية، حتى أن العبارة نفسها امتدّ تأثيرها لتصبح عنواناً لأحد أشهر أفلام القراصنة في وقتنا الحالي، ونعني به فيلم (الرجال الاموات لا يحكون حكايات) من سلسلة (قراصنة الكاريبي)، ولا عجب لو رأى القارئ الذي شاهد قراصنة الكاريبي أن الكثير من مأثورات روايتنا هذه ترد في جميع أجزاء السلسلة إياها.

روبرت لويس ستيفنسون
جزيرة الكنز



منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

